سيمون دو بوفوار

مذكرات فتاة رصينة



دار العلم للملايين

مذكرات فتاة رصينة ..

سيمون دو بوفوار

مذكرات فتاة رصينة ..

نقلته الى العربية

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
بيروت

MEMOIRES D'UNE JEUNE FILLE RANGÉE

الطبعة الاولى
تموز (يوليو) ١٩٥٩

القسم الأول

١

ُولدتُ في الساعة الرابعة من فجر اليوم التاسع من شهر كانون الثاني ١٩٠٨ ، في غرفة ذات أثاث أبيض اللون تشرف على جادة « راسباي » . ويرى من ينظر صور الاسرة التي أخذت في الصيف التالي سيدات صبيّات يلبسن أثواباً طويلة ، وقبعات مزدانة بريش النعام ، ورجالاً يبتسمون لطفل : انهم أبي وأمي وجدّي وأعمامي وعمّاتي وأنا . وكان أبي في الثلاثين ، وأمي في الواحدة والعشرين ، وكنت ولدهما الأول . وأقلب صفحة من المجموعة ، فأرى أمي حاملةً بين ذراعيها طفلاً لست إيّاه ، واراني ارتدي تنّورة مكسّرة وقبعة (بيريه) ، وكان عمري عامين ونصفاً حين ُولدت أختي . ويبدو اني كنت غيورة ، ولكن لفترة من الزمن . وقد كنت ، على ما أذكر ، فخورة بأني البنت الكبرى .

وليس لديّ من سنواتي الأولى إلاّ انطباع مبهم : شيء ما أحمر وأسود وحارّ . كان المنزل أحمر ، وغرفة الطعام ، والحرير الذي يقنّع الابواب الزجاجية والستائر المخملية في مكتب أبي .

وأنا مدينة لـ « لويز » باطمئناني اليومي . فقد كانت تلبسني في الصباح ، وتنزع ثيابي في المساء وتنام في الغرفة نفسها التي أنام فيها . وكانت صبيةً لا جمال فيها ، ولا يحيط بها سرّ ما دامت غير موجودة ، على ما كنت أعتقد ، إلاّ لتسهر على أختي وعليّ ، فلم تكن ترفع

صوتها قط ، وما كانت لتوبخني بغير حق : وكانت عينها الهادئة تحرسني إذ كنت ألعب في حديقة « اللوكسمبورغ » ، أو اهدهد لعبتي « بلوندين » التي هبطت عليّ من السماء ذات ليلة ميلاد مع الحقيبة التي كانت تضمّ جهازها . وكانت تجلس إلى قربي مساء لتريني صوراً وتقصّ عليّ حكايات . لقد كان حضورها ضرورياً لي ضرورة الأرض تحت قدمي .

أما أمي فقد كانت توحي إليّ بعواطف الحب والتعلق ، بالرغم من انها كانت أبعد عني من « لويز » . وكنت أجلس على ركبتيها ، وانغمر في عذوبة ذراعيها المعطرتين ، وأغطي بالقبلات بشرتها البضّة : وكانت تتجلى أحياناً في الليل عند سريري ، جميلة كالصورة . وكانت إذا غضبت تحماق فيّ ، فأخاف هذا الشعاع العاصف الذي كان يذهب بجمال وجهها ، وأشعر اني بحاجة إلى بسمتها :

وأما أبي ، فكنت قلّما أراه . وكان يذهب كل صباح إلى « قصر العدل » حاملاً تحت ذراعه محفظة ملأى بأشياء لا تُمسّ كانوا يسمونها « اضبارات » : ولم تكن له لحية ولا شاربان ، وكانت عيناه زرقاوين مرحتين . وكان إذا عاد في المساء يحمل لأمي بنفسجاً ، فيتعانقان ويضحكان . وكان أبي يسليني أنا أيضاً ويطلب مني ان أغنّي ، وكنت مسرورة حين كان يهتمّ بي ، ولكن لم يكن له في حياتي دورٌ محدّد :

كانت مهمة لويز وأمي الرئيسية ان تغذّياني ، ولم يكن ذلك سهلاً دائماً . لقد كان العالم يدخل فيّ ، عن طريق فمي ، بأعمق مما كان يدخل عن طريق عينيّ ويديّ : فلم أكن أقبله كلّه : لقد كان طعم المآكل يثير ني وينتزع من عيني الدموع ، ومن حلقي الغصص والصراخ والقيء ؛ على اني كنت أفيد من امتيازات الطفولة ، فأنقضّ على الحلويات والسكاكر على اختلاف أنواعها :

ومع ذلك فقد كنت آكل وانمو وانظر إلى صورتي في المرآة. وكانوا قد قالوا لي إن السمراوات ذوات العيون الزرقاء لسن شيئاً عادياً، وهذا ما كان يروقني فيّ، وكنت أسعى إلى أن اروق الآخرين. وكنت احترم الرجال أكثر مما أحترم النساء واعجب بشواربهم ورائحة تبغهم وأصواتهم الخشنة وأذرعهم التي كانت ترفعني عن الأرض.

وكانوا يستمعون في البيت إلى حكاياتي ويرددون كلماتي فاستشعر من ذلك أهميتي في الدنيا. وقد كنت فتاة صغيرة مرحة جداً، على انه كان يحدث لي أن تأخذني سورات غضب أرتمي معها على الأرض متشنّجة مزرقّة الوجه. وكنت غالباً ما أتساءل عن سبب ذلك، وأظن انه راجع إلى حيوية متدفقة وتطرّفٍ لم أتراجع عنه يوماً. وكان يكفي ان يعاملني أحد كطفل حتى يجرح شعوري. فبالرغم من أن معلوماتي محدودة، وكذلك امكانياتي، فاني كنت أقدر نفسي كشخص حقيقي.

وكان عنفي يخيف الآخرين، فكانوا يوبخونني دائماً، ولكنهم نادراً ما كانوا يصفعونني، وكانت أمي تقول:

– إذا مسّ أحد سيمون، فأن لونها يزرقّ.

وكان أبي يتسلى بأن يردد:

– إن هذه الطفلة غير اجتماعية.

كما كانوا يقولون:

– سيمون عنيدة كأنها بغلة!

فأركب ساعتذاك رأسي، وألجأ إلى العصيان لمجرّد رغبتي بالاّ أطيع. وأراني في صورة الاسرة امدّ لساني سخرية، وأولي ظهري الناس فيضحكون خلفي. وقد شجعتني هذه الانتصارات على ان اعتبر القواعد والمراسيم والعادات أشياء يمكن تجاوزها. ولم تكن الهزائم تخلّف في نفسي مذلّة أو كرهاً. وحين كانت دموعي وصرخاتي تنتهي بي إلى الاستسلام، فأن قواي تكون قد نفدت بحيث لا تمكنني من

اجترار النـدم والأسف ، بـل اني كثيراً مـا أكون قد نسيت سبب ثورتي .

وكانت المقولتان اللتان ينتظم بهما عالمي هما « الخير » و « الشر » . وكنت اسكن منطقة « الخير » حيث تتحد السعادة والفضيلة اتحـاداً لا انفصام له ، وكنت اؤمن بأن افراح النـــاس وأتراحهــم تســاوي ما يستحقون :

٢

وكان عمري خمس سنوات ونصفاً — تشرين الأول عام ١٩١٣ — حين قرر أهلي إدخـالي إلى معهد « دزير » . وكانت تسكرني فكرة ان أمتلك حياة تخصّني وحــدي . فحتّى ذلك الحين ، كنت قد نموت على هامش الصبية الآخرين . أما الآن ، فستكون لي كتبي ومحفظتي ومهامّي ، وسأقطع أيامي وفقاً لتوقيتّي الخـــاص . واستشرفت مستقبلاً يتركّز في ذاكرتي بدلاً من أن ينفصل عني . لسوف أغتني سنةً بعد سنة ، على أن أظلّ أمينة لتلك التلميذة التي أصبحتها والتي كنت أحتفل تلك اللحظة بمولدها .

ولم يخب ظني . لقد كانت حياتي غنيةً بالأفراح والأحداث في صف « الصفر » الذي كنت بطلته الأولى . وعند اقتراب عيد الميلاد ، ألبسوني ثوباً أبيض مثّلت بـه الطفل يسوع . وكانت البنات الأخريات يركعن أمامي .

وكانت أمي تراقب فروضي وتستمع إلى دروسي . وكنت أحــب التعلمّ . على ان كل شيء كان يتغيّر في نفسي حين كنت أغادر المدينة وانتقل بين الحيوان والنبات ، في الطبيعة ذات الثنايا التي لا تحصى • وكنا نقضي الصيف في مقاطعة « ليموزين » بين أفراد أسرة أبي . وكان

جدّي يروي لي أسماء جميع النباتات ، وكنّا نغادره في منتصف العطلة لنقضي بعض الوقت في منزل خالتي « هيلين » في مقاطعة « غريار » . وكانت تروق لي رفقة روبير ومادلين ، ابنيْ خالتي ، اللذين كان اولهما يكبرني بخمس سنوات والأخرى بثلاث . وكنت اجد معهما من الحرية ما لم أكن أجده في أي مكان آخر .

وقد لاحظت ان أبي ، منذ أن دخلت المدرسة،أصبح يهتم بتقدمي ونجاحي اهتماماً كبيراً . وكان يبدو لي من جنس اندر من سائر البشر . ولم يكن في الجوار من هو في مثل أهميته وإشراقه ومرحه ، ولم يكن هناك من يحفظ مثله الاشعار ، ولا من يقرأ مثله الكتب ، ولا من يناقش مثله بحرارة . وكان أطرف ما عنده انه يمثل المسرحيات في أوقات فراغه .

وكنا في مقاطعة « ميرنياك » ضيوفاً على عمي « غاستون » حين أعلنت الحرب عام ١٩١٤ . ولم نلبث طويلاً حتى رأينا « البوش » (أي الالمان) يتجولون في الطرقات . وقد تهامس الناس طويلاً حين سمعوا ان احدى الفتيات قدمت لجريح ألماني قدحاً من الخمر ، وانها قالت :

— واي بأس ؟ إنهم هم أيضاً من البشر !

وكنت أسمع ان « البوش » كانوا مجرمين بالولادة ، وكانوا يثيرون في النفوس البغض والحقد .. ولهذا نظرت شزراً حين رأيت ذات يوم تلك التي أصبح اسمها « الألمانية » والتي غدت تجسّد لي « الشر » . ومن ذلك اليوم بدأت أشعر بحب وطني ، وأحسّ العطف على اللاجئين البلجيكيين والنفور من الجنود الألمان . واستولى عليّ شعور الفضيلة فزالت هواياتي وانقضى غضبي . وكانوا قد شرحوا لي ان الرب سوف ينقذ فرنسا إذا كنت عاقلة وتقية ، فاذا بي أتعلّق بالدين وأتعبد الصليب .

وقد توجه أبي إلى الجبهة في شهر تشرين الأول ، وما زلت

أذكرني ماشية إلى جانب أمي ، في طريق العودة ، وعيناها مبللتان بالدموع . غير اني كنت واثقة من أن الله سيحفظ أبي ، وكنت عاجزة عن تصوّر المصائب . وقد حدث بالفعل ان أبي عاد إلى احد المستشفيات بعد نوبة قلبية اعترته ، ثم ألحق بوزارة الحربية ، فعادت حياتنا إلى سابق عهدها .

وأحسست اني قد تطورت فأصبحت فتاة عاقلة ، وأصبح دمي أقل غلياناً مما كان ، وغدا ذوقي ينسجم مع الحياة التي كنت أعيشها بحيث ان أحداً لم يعد يعاكسني . واقتنعت بان أهلي لا يريدون لي إلاّ الخير ، وان ارادة الله هي التي تعبّر عنها أفواههم .. وهكذا بدأت أتنازل عن الاستقلال الذي حاولت طفولتي ان تحتفظ به . وغدوت طوال سنواتٍ انعكاساً أميناً لأهلي ...

٣

قضى أبي طفولته في منزل جميل كان يملكه جدّي في شارع سان جرمان بباريس ، وعرف سعة العيش ورغده . وكان شغوفاً بالدرس والمطالعة ، وكان يعيش في ظلّ جدّتي ويسعى ابداً إلى إرضائها . وكان مغرماً بالمسرح والأدب ، يشاهد جميع المسرحيات ويقرأ جميع المؤلفين ، حتى بلغ مرحلة الدراسة الجامعية ودرس الحقوق ، وظل بورجوازي التفكير والمعيشة ، واشتهر في الاوساط بأنه محدّث بارع وشخصية جذّابة ، وكان يختلف إلى المسارح ويودّ لو يمتهن التمثيل ، ويشارك في كثير من الحفلات الخاصة .

وكان أبي يطمح لإعادة الملكية ، وكان معجباً بموراس ودوديه ، وكان يغيظه السماح لليهود بأن يتدخلوا بشؤون البلاد ، وكان ايمانه باجرام دريفوس يشبه ايمان جدتي بوجود الله . وكان يقدّس المرأة بصفتها

أمّـاً ، ويطلب من الزوجة الامانة المطلقة ، ومن الفتيات الطهارة ، ولكنه كان يقرّ للرجـال حرّيات واسعة ، مما كان يقوده إلى التسامح مع النساء اللواتي يوصفن بأنهنّ « خفيفات » . وكانت سلطته في البيت لا تناقش ، وكانت أمي تقرّ له بها ، وتعترف بأنه هو الذي أدخلها الحياة وحبّبها بالكتب . وكان غالباً ما يقول :

— إن المرأة هي ما يصنع زوجها منها ، وعليه هو أن يكوّنها .

ولم أكن أشعر تجاه أبي بأي انزعاج ، فكنت أطرح عليه أسـئلة كثيرة ، ولكني لا أحاول أن أتجاوز الحدود التي تفصله عني . ولم أكن في نظره لا جسماً ولا روحاً ، وانما كنت فكراً . ولم يكن هو ينحني فوقي ، بل كان يرفعني اليه فأفخر بان أشعر اني أصبحت شخصاً كبيراً . وحين كنت أهبط إلى المستوى العادي ، كان ذلك متوقفاً على أمي التي ترك لها أبي بلا تحفظ أمر السهر على حياتي العضوية وتوجيه حياتي الخلقية .

أما أمي ، فهي منحدرة من عائلة بورجوازية تقية وغنية . وبالرغم من جمالها فقد كان ينقصها المرح والاطمئنان ، وكانت تؤمن بأن على المرأة ان تطيع الرجل ، ولكنها كانت تبدو لنا ذات سلطة ونفوذ ، وان كانت تظهر خجولة في المجتمع . وكان خير صديق لأبي يعيش حياة آثمـة ، ولم يكن هذا يمنعه من زيارتنا كثيراً ، ولكننا لم نكن لنستقبل عشيقته ... وقد كانت أمي تنفر من جميع القضايا « الجسدية » ولم تحاول يوماً أن تفاتحني في أيّ منها ، بل إنها لم تنذرني بما ينتظرني من مفاجآت على عتبة البلوغ .

على انها كانت تتولى مهمتها كمربية بجدّ ورصانة كبيرين . وكانت تصحبني بنفسها إلى المدرسة وتحضر دروسي وتراقب فروضي ، وقد تعلمت الانكليزية وباشرت اللاتينية لتستطيع أن تتابعني في دروسي ، وكنـا نقوم بصلواتنا ، هي وانا واختي ، بصورة مشتركة دائماً . وكانت في

كل لحظة ، وحتى في أعمق أسرار قلبي ، شاهدي ، ولم أكن أميّز قطّ بين نظرها ونظر الإلـه . ومن أجل هذا ، كنت أعتقد أن بوسعي ، بل من واجبي ، ان أساويها بالتقوى والفضيلة »

وحين بلغت السابعة أو الثامنة ، كان بوسعي ان احدثها بحرية كبيرة : وهناك ذكرى دقيقة تؤكد لي ذلك . فقد حاولت يوماً أن أتسلّق على عمود من الخشب كان في البيت ، وحين بلغت ذروته ، شعرت بتاً كل غريب بين فخذي ، وكان هذا لذيذاً ومخيّباً في الوقت نفسه ، وقد أعدت الكرّة . ثم قلت لأمي « هذا غريب ! » ووصفت لها ما شعرت به ، فاذا هي تتحدث عن شيء آخر بلهجة اللامبالاة ، واعتقدت انني باشرت موضوعاً من هذه الموضوعات العابثة التي لا تستدعي جواباً .

وكان الاتفاق السائد بين أمي وأبي يعزّز الاحترام الذي كنت أكنّه لكلٍ منهما . وقد أتاح لي أن أحلّ صعوبة كان يمكن أن تربكني كثيراً: ذلك ان أبي لم يكن يذهب إلى القدّاس ، وكان يبتسم حين كانت عمتي مرغريت تعلّق على معجزات « لورد » ، وهذا يعني انه لم يكن مؤمناً . غير ان هذا التشكك لم يؤثر علي لشدّة ايماني بالله .. ومع ذلك ، فقد كنت أعرف ان أبي لا يخطئ قط ، فكيف أفسّر ارتيابه بأوضح الحقائق ؟ ولكن ، بما ان أمي التقية ترى موقفه هذا طبيعياً ، فلم يكن لي مناص من تقبّل موقف أبي . وكان من نتيجة ذلك اني اعتدت اعتبار حياتي الفكرية – التي يجسّدها أبي – وحياتي الروحية – التي توجهها امي – ميدانين مختلفين تماماً . فان القداسة لا تمتّ بصلة إلى العقل ، والاشياء الانسانية كالثقافة والسياسة والعادات لا تتعلق بالدين : وهكذا دفعت الله خارج العالم ، وهذا ما سوف يؤثر تأثيراً عميقاً على تطوري اللاحق . فان فردية أبي وأخلاقيته المتحررة كانتا تناقضان أخلاقية أمي التقليدية القاسية . وفقدان التوازن هذا الذي دفعني إلى حس

الجدال يشرح إلى حدّ بعيد اني أصبحت من طبقة المفكرين .

وأما اختي التي كانوا يدعونها « بوبيت » فكانت أصغر مني بعامين ونصف . وكانت شقراء ذات عينين زرقاوين ، وكنا نعيش عيشة واحدة ، وكنا بذلك سعيدتين . وكنت اعلّمها دروسها وأنصب نفسي معلمة لها .

لقد كنت أواجه الحياة كما لو انها مغامرة سعيدة ، وكان الايمان يحميني من الموت ، وكان حسبي ان أغمض عيني حتى تحملني أيدي الملائكة الثلجية إلى السماء .

وكنا نقضي أوقات الفراغ بقراءة الكتب التي كانت تختارها لنا أمي . وأما السينما فقد كان أهلي يعتبرونها تسلية عامّية . وقد حدث ان صديقاً لأبي دعانا جميعاً ذات يوم لحضور فيلم « ملك كامارغ » وكان البطل ، وهو خطيب قروية جميلة شقراء ،يتنزه يوماً على شاطئ النهر ، فالتقى ببوهيمية عارية ذات عينين تقدحان الشرر كانت تقود دابتها ، ففغر فاه من الدهشة ، ولم يمض وقت طويل حتى كان مختلياً مع البوهيمية في بيت صغير وسط البحيرات .. ولاحظت ان أمي وجدتي تتبادلان نظرات شاردة ، فأدركت منها ان هذا الفيلم لم يكن لي ... ولم أذهب بعد ذلك إلى السينما !

وبدأت أشعر ، وأنا منفيّة على شرفة بيتنا أراقب المارّة ، انني أصبحت جائعة لرؤية البشر ، واني أودّ لو أعدو وراء ذلك الرجل المجهول الذي يستدير عند المنعطف والذي لن أراه بعد أبداً ... وقد رأيت ذات أصيل في حديقة اللوكسمبورغ فتاة طويلة تلاعب أولاداً بالحبل ، وكانت ذات وجنتين موردتين وضحكة حارة عذبة . ولا أدري لماذا قلت لأختي ، حين عدت مساء :

– اني أعرف ما هو الحب !

والواقع اني استشعرت شيئاً جديداً في نفسي ، دون أن احسّ بأيّ

نفور من حياتي ووضعي .

٤

لم يكن من حق الجسد ، في عالمي ، أن يوجد . ومع ذلك ، فقد كنت عرفت عذوبة ذراعي أمي .. وكان بعض الاحتكاك عند بشرتي ، وبعض حرارة تبثّها يد تلامس عنقي .. كان ذلك يبعث في جسمي الارتعاش .

وفي سنواتي الثماني الأولى لم أعرف إلاّ صبياً كان يهمني رأيه ، وقد كان من حظي انه لم يحتقرني . انه ابن عمّي « جاك » الذي كان كبرني بستة أشهر ، وكانت له أخت تكبرني بثلاث سنوات واسمها « تيتيت » ، وكانا قد فقدا أباهما في حادثة سيارة ، فتزوجت أمها مرة أخرى ، وكنا نقضي أنا وأختي بعض أوقات العطل عندهم .. وكان جاك صبياً جميلاً بعينيه الذهبيتين وشعره اللامع ، وكنت أجلس إلى قربه على الدرج لنقرأ في « رحلة جيليفر » . وقد لاحظت انه يحتقر البنات بالاجمال ، وهذا ما جعلني ازداد تقديراً لصداقته لي . وقد صرح بقوله : « إن سيمون صبية ناضجة قبل الاوان » وسرّتني هذه العبارة كثيراً .

وذات يوم ، صنع « جاك » بيديه كنيسة صغيرة من الزجاج كتب عليها « إلى سيمون » ولم أتلق في حياتي هدية راقتني كهذه . وقد عزمنا على اننا « زوجان بالحب » وجعلت اسمّي جاك « خطيبي » ، وقمنا بشهر العسل فوق صهوتي جوادين خشبيين في « اللكسمبورغ » . وقد حملت تعاهدنا على محمل الجدّ . غير انني لم أكن أفكر فيه قط ، في أثناء غيابه . لقد كنت مسرورة إذ أراه ، ولكني لم أكن أشتاق اليه قط .

وهكذا ، فان الصورة التي أتمثلها لي وأنا في سن الرشد هي صورة

فتاة رصينة سعيدة ، لا تخلو من تكبّر .

وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، كنت أتلقى درس البيانو تحت مراقبة أمي حين دقت أجراس الهدنة .

وعادت لنا الحياة طبيعية هـادئة ، ولكن العيش بلا انتظار شيء كان يبدو لي مريعاً . كنت أنتظر ، وكنت منتظَرة . وهذا ما كنت أجيب به نفسي حين كنت أتساءل : لماذا أنا هنا ؟ وكانت المطالعة ، خارج دروسي ، هي أهم أعمالي في الحياة . وكان أبي يصطحبني بين الفترة والفترة إلى المسرح ، فيخلق ذلك بيننا مشاركة كانت تشعرني بأنه لا يخصّ سواي . ولم يفتح أبي مكتبه للمحاماة مرة ثانية بعد الحرب ، ولكنه قَبِلَ أن يعمل مديراً مساعداً في مصنع حميه ، براتب ضئيل .. على أنه كان يعلّق على ذلك مبتسماً بقوله :

— لقد أصبحنا من محدثي الفقر !

ولاحظت ان حس السخرية عنده قـد عمق ونمـا ، فـازددت له حباً واكباراً ، ولم ينقص ذلك قط من حبّي لاسرتي وتعلّقي بها .

غير انه كان هناك ما يغمّني : فلا بد ان يأتي يوم تنتهي فيه هذه المرحلة من حيـاتي .. فكيف لمن أحبّ ذويه عشرين عامـاً أن يتركهم بلا ألم عنيف ليلحق بانسان مجهول ؟ وكيف له ان يحبّ هذا المجهول الذي لم يكن بالنسبة له شيئاً ؟ وسألت أبي في ذلك فأجاب مبتسماً :

— إن الزوج شيء آخر !

والواقع اني كنت أنظر إلى الزواج باستياء . لم أكن أجد فيـه استعباداً ، فان وضع أمي كان ينفي ذلك ، ولكن الذي كان ينفّرني منه هو هـذا الاختلاط . فقد كنت أحدث نفسي بذعر : « إن أحدنا لا يستطيع في سريره مساء أن يبكي بهدوء إذا كان راغباً في ذلك . » ولست أدري إذا كانت سعادتي قـد كدّرتها الاحزان أو الازمات ،

ولكني كنت غالباً ما يلذّني في الليل أن أبكي. فاذا اضطررت إلى أن أكبت هذه الدموع ، فان ذلك يعني ان أحرم نفسي هذا القدر الضئيل من الحريـة الذي كنت أنعم بـه . لقد كنت طوال النهار أحسّ بأنظار الآخرين مصوّبة نحوي ، وكنت أحبّ وسطي ، ولكن حين كنـت آوي في المساء إلى فراشي ، كنت احسّ عزاءً عميقاً ان أعيش أخيراً بضع لحظات من غير شهود . وقد كان في وسعي آنذاك ان اسأل نفسي وأناقشها وأعير سمعي لهذه الضجّـات الخجولة التي كان حضور الكبار يخنقها ...

ولقد كنت تقيةً جداً : كنت أعترف مرتين في الشهر للأب مرتان واتناول القربان ثلاث مرات في الاسبوع ، وأقرأ كل صباح فصلاً من « الاقتداء » . وكنت بين الدروس اتسلل إلى كنيسة المعهد واصلي طويلاً ، ورأسي بين يديّ . وغالباً ما كنت في أثناء النهار ارتفع بروحي إلى الله ، وانقطعت عن الاهتمام بيسوع الطفل ، لأعبد المسيح عبادة عميقـة ، وكنت قد قرأت ، في هوامش الاناجيل ، قصصاً مثيرة كان هو بطلها ، وكنت أتأمل بعينين محبتين وجهه الجميل العذب الحزين ، وأتابع عبر التلال التي يغطيها شجر الزيتون اشراق ثوبه الابيض ، وأغمر بدموعي قدميه العاريتين ، وكان يبسم لي كما ابتسم لمادلين . حتّى إذا عانقت ركبتيه طويلاً وبكيت على جسده الدامي ، تركته يعود إلى السماء . وكان يذوب هناك مع الكائن البعيد الذي أدين له بحياتي والذي سيسحـرني اشراقه يوماً إلى الابد .

وأي عزاء كنت استشعره إذ أعرف انه هناك ! لقد قالوا لي انـه كان يحبّ كل مخلوق من مخلوقاته كما لو انه كان فريداً . ولم يكن نظره يتركني لحظة ، وكان الجميع مبعدين عن لقائنا ، كنت أمحوهم فلا يبقى في العـالم غيره وغيري ، فأشعر اني ضرورية لمجده ، وان وجودي ذو ثمن لا يُحدّ . وما كان ليفلت شيئاً من أعمالي وأفكاري

ومزاياي التي كانت تستكنّ فيه ، وكذلك نقائصي وضعفي ، ولكن هذه النقائص كانت تغتسل بندمي وبطيبته حتى لتغدو في مثل إشراق فضائلي . ولم أكن أملّ الاعجاب بنفسي لدى هذه المرآة التي لا بداية لها ولا نهاية .

وكنت كل سنة أختار يوماً اعتزل فيه الناس لاستمع إلى توجيهات احد الواعظين واتأمل وازور الكنائس . وكانت أمي تحترم انطوائي على نفسي حيث كنت اسجل على احد الدفاتر تأملات روحي واماني في التقرب إلى الله ، حتى اني عزمت على أن أدخل الدير لأتأمل طوال الوقت في مجد الاله . ولم اعبّر عن هذا العزم خشية الا يحملوه على محمل الجد ، فاكتفيت بأن أصرح :

– أنا لن أتزوج .

فابتسم أبي وقال :

– ستتحدث في هذا مرة أخرى حين تبلغين الخامسة عشرة ...

٥

كانت سعادتي تبلغ ذروتها في الشهرين والنصف التي كنت أقضيها كل صيف في الريف . وكان مزاج أمي يبدو هناك أهدأ منه في باريس ، وكان أبي يهتمّ بي أكثر مما يهتم عادة في العاصمة ، وكنت أنعم بفرص عديدة لأقرأ وألعب مع أختي . وكنت أعوّض عن المقتضيات المدرسية الدقيقة باتساع الآفاق التي كانت تنفتح أمام فضولي ، فأستغلها من غير معونة أحد ، وأشعر أن وساطة الكبار لم تعد تتدخل بين العالم وبيني . وكنت أراني اثمل بالوحدة والحرية اللتين لم تكونا متاحتين لي كثيراً في المدينة ، فاذا بجميع امانيّ متوافقة : أمانتي للماضي وتذوقي للجديد وحبّي لأهلي ورغباتي في الاستقلال .

وكنا عادةً نمكث بضعة أسابيع في « لاغريير » ، وكان القصر هناك يبدو لي ضخماً وقديماً ، بينما لا يعود عهده في الحقيقة إلى أكثر من خمسين عاماً خلت . ولكن لم تكن هناك يدٌ واحدة قد غامرت في تكنيس غبار الزمن عن أثاثه وحاجاته ، فاذا بالداخلين اليه يشمّون رائحة حيوات قديمة قد انطفأت فيه .

وكان عمي وامرأة عمي وأولادهما يعيشون عيشة تتلاءم وهذا الإطار الباذخ . وكانت امرأة عمي هيلين تراقب خزائنها وتستخدم عدداً من الخادمات ولكنها مع ذلك تشكو من انها لا تجد ساعة للراحة. وكان عمي يخرج في الساعة التاسعة فيمتطي صهوة جواده ،وكانت مادلين تعتني بحيواناتها بينما يستغرق روبير في نومه ، فنلعب معاً ، هي واختي وأنا . وكانت مادلين غارقة في قراءة الروايات ، وكانت تحلم بأن تصبح جميلة جداً وان تكون محبوبة . وأما امرأة عمي ، فلم تكن تستقبل احداً من الناس ، ولا تزور احداً .

وكنت أقضي معظم وقتي هناك في القراءة . وكان الذّ أوقاتي أن أنهض باكراً في الصباح فأفاجئ البراري تستيقظ بعد أن أغادر البيت النائم والكتاب في يدي . ولما كان يستحيل عليّ أن أجلس فوق العشب المندّى ، فقد كنت أسير في الشارع وأنا أقرأ ،فأحس رطوبة الهواء على جلدي ، وأشعر بطبقة الجليد الرقيقة تذوب تحت قدمي ، وأرى الارز يلتمع باشراق يشبه اشراق أول صباح في الجنة ، ولقد كنت وحدي أحمل جمال العالم ، تمجيداً لله ، بينما تحلم معدتي بقطعتين من الشوكولا والخبز المحمص . وحين يبدأ النحل في الطنين ، وتنفتح المصاريع الزرقاء على عطر العشب النديّ ، أكون قد شاطرت ذلك النهار الذي يجهل على الآخرين ، ماضياً طويلاً ذا أسرار . حتى اذا عدت إلى البيت وتناولت طعام الفطور ، جلست أكتب « فروض العطلة » ، وأنا أستمع الى نقاش جدّي وأبي وعمي وضحكهم وغنائهم أحياناً . ثم اني كنت

أصطحب اختي للنزهة والشيطنة في البراري ، نكتشف المستنقعات والشلالات ونتسلق الاشجار والصخور ونسرق الجوز واللوز ، ونذوق تفاح جميع الشجرات . وكان يسكرنا عطر الاعشاب والسنابل الخضراء فنتمدد على الأرض ونأخذ في القراءة . وبالرغم من أن حضور أختي كان خفيفاً علي ، فقد كنت أوثر الوحدة ، ولا سيما في الليل ... لقد كان يخيّل الي ان الارض تصدي بهذا الصوت الذي ما يفتأ يهمس لي : انني هنا ، فيرتعش قلبي بحرارته الحية اذ أنظر الى النجوم هناك ، في الاعالي ، كان الله ينظر إلي ... وقد كان هذا العيد في دمي ، بعد ان لامسني النسيم وأسكرتني العطور ، يمنحني الخلود .

أما اذا كانت أختي الى جانبي ، فكنا نتحدث في شتى الأحاديث ونتداول في الأمور التي كانوا يصفونها بأنها « غير لائقة » . فقد كان من « غير اللائق » أن تعرّي المرأة ذراعيها أو ان تلبس لباساً قصيراً يكشف عن ساقيها أو أن تصبغ شعرها أو أن تقصه أو أن تتزيّن أو أن تضطجع على ديوان أو أن تعانق زوجها في ممرات المترو ... فاذا خالفت هذه القواعد فانها « سيئة الخلق » . ولم يكن « عدم اللياقة » يختلط مع الاثم ، ولكنه يستدعي مع ذلك توبيخاً وتقريعاً . وكنا أختي وأنا نقابل هذه المظاهر بمحاولة الاستهزاء بها . ففي حديقة « اللكسمبورغ » مثلاً كنا نتغامز بالمرافق حين نمرّ أمام عاشقين يتبادلان الهمس أو القبل .

وأذكر ان الواعظ أراد يوماً ان يحذرنا من اغراء الفضول ، فروى لنا قصة لم يكن من شأنها إلا أن أثارت فضولي الى أبعد حدّ . وملخص القصة ان فتاة صغيرة ذكية جداً وناضجة قبل الأوان ، ولكنها ذات والدين قلما كانا يهتمان بها ، اتته يوماً تعترف له بأنها قرأت كثيراً من الكتب السيئة حتى انها فقدت ايمانها وأضحت تستفظع الحياة . وقد حاول أن يردّ لها الأمل ، ولكنّ العدوى كانت قد استولت عليها بحيث لم يعد لينجع بها دواء ، فاذا به يعلم بعد قليل انها قد انتحرت .

وكانت أول حركة بدرت مني هي طفرة إعجاب وحسد لهذه الفتاة الصغيرة التي كانت تكبرني بعام واحد ، والتي كانت أوسع علماً مني بالحياة . ولكني سقطت بعد ذلك في القلق والتبرم : لقد كان الايمان حارساً لي من النار ، وكنت أخشى النار خشية لا أستطيع معها أن أرتكب اثماً مميتاً . وإذا كفّ أحدنا عن الايمان ، انفتحت أمامه جميع الهوّات . أفيمكن ان يصاب انسان بمثل هذه المصيبة من غير أن يستحقّها ؟ إن المنتحرة الصغيرة لم تأثم بدافع العصيان ، وكل ما حدث انها عرّضت نفسها ، من غير حيطة ، الى قوى مظلمة اكتسحت روحها : فلماذا لم ينقذها الله ؟ وكيف تستطيع كلمات يقدّمها البشر أن تهدم يقيناً كبيراً ؟ وما أدركته أقلّ من ذلك ، هو أن تفضي المعرفة الى اليأس. والحق ان الواعظ لم يقل ان الكتب السيئة تصوّر الحياة بالوان مزيّفة غير حقيقية ، ولو فعل ذلك ، لكنس بسهولة أكاذيب هذه الكتب . وان مأساة الفتاة الصغيرة التي أخفق في انقاذها تكمن في انها قد اكتشفت قبل الأوان وجه الواقع الحقيقي . وقد قلت لنفسي : على أي حال ، سأرى هذا الوجه أنا نفسي ذات يوم، ولن يدفعني ذلك الى الموت : لقد كانت عقلانيتي تنفر من فكرة أن هناك ملاكاً حيث الحقيقة تقتل .

غير ان ابنة عمي مادلين كانت تقرأ أي كتاب يقع تحت يدها . وقد اغتاظ أبي عندما رآها ، حين كانت في الثانية عشرة ، تقرأ كتاب « الفرسان الثلاثة » ، فما كان من أمها الا أن هزّت كتفيها بلا مبالاة . ولكن ذلك لم يدفع بمادلين الى الانتحار .

وفي عام ١٩١٩ بقينا طوال اسبوعين في بيت امرأة عمي هيلين حين عزم أهلي على الانتقال الى بيت جديد . وقد سألت ابنة عمي مادلين على غير تأمل سابق ، عما تنطوي عليه الكتب المحرمة الممنوعة . ولم يكن قصدي أن أقف على محتوى هذه الكتب ، وانما كانت غايتي

أن أفهم الاسباب التي من أجلها قد حُرّمت :

وكنا جالسات ، نحن الثلاث ، على العشب في الحديقة . وقد ترددت مادلين قليلاً ثم انطلقت تتكلم . وبعد قليل نادت كلبها وأشارت الى كرتيْن بين فخذيه ، ثم قالت :

— ان للرجال مثلهما أيضاً !

وروت لنا أنها كانت قد قرأت في كتاب عنوانه « روايات وقصص » حكاية غريبة : مركيزة بلغ من شدة غيرتها على زوجها انها بترت « كرتيْه » بينما كان نائماً ، فمات على الأثر .. وسألت مادلين مزيداً فشرحت لي ما تعنيه كلمتا « عشيق » و « خليلة » . فاذا أحبت أمي شخصاً غير أبي فستكون خليلته ، وسيكون هو عشيقها . ولم توضح لي معنى كلمة « أحب » بحيث أن كلامها زادني حيرة ولم يجلُ الغموض . ولم يبدأ كلامها يهمّني الا حين شرحت لي الطريقة التي بها يولد الاولاد : انهم يتكوّنون في أحشاء أمهاتهم . وكان قد سبق للطباخة منذ أيام أن شقّت بطن أرنب فوجدت فيه ستة أرانب صغيرة . وحين تنتظر المرأة ولداً ، يقال انها حامل ، وينتفخ بطنها . ولم تعطنا مادلين تفاصيل أخرى . ولكنها أضافت قولها ان « أشياء » ستجري في جسمي عما قريب ، وأن علي أن أضع بين فخذي بعض الخرق حتى لا أتلوّث بالدم ... وهنا سألتها أختي كيف يتأتى لي أن أبول في هذه الحالة ؟ فاغتاظت مادلين من السؤال وقالت لاختي انها بلهاء ومضت عنا الى دجاجاتها ...

وقد ظللت على دهشة فترة طويلة : فقد كنت تصورت ان الاسرار التي يحتفظ بها الكبار هي أخطر من ذلك بكثير . كان هناك شيء غامض لم يتضح لي قط . إن مادلين لم تعرض لموضوع الحبل الذي أخذت أتأمله في الأيام التالية . ولما كنت مدركة ان السبب والنتيجة متماثلان ، فلم أستطع أن أقر أن يكون من نتيجة حفلة العرس ان تبعث في بطن

المرأة جسماً من لحم ودم ، فلا بدّ أن يحدث بين الوالدين شيء ما عضوي . وقد كان بوسع تصرف الحيوانات أن يرشدني في هذا المضمار: فقد رأيت ذات ساعة كلبة مادلين الصغيرة ملتصقة بكلب كبير من فئة « الكلب الذئب » ، وكانت مادلين تحاول وهي تكاد تبكي أن تفصل بينهما ، وهي تقول « سيكون أولادها كبيري الحجم أكثر من اللزوم ، وقد تموت كلبتي من ذلك . »

وبالرغم من أن ثرثرة مادلين قد خيّبت ظننا ، فانها قد أثارتنا حقاً ، فاذا بي وبأختي نستسلم لموجة من الحديث البذيء . ولم تكن امرأة عمنا هيلين تخيفنا ، فأخذنا نتحدث أمامها بكلام « لا يليق » . وكانت أحياناً تجلس الى البيانو لتغني معنا بعض أغاني ١٩٠٠ ، وكانت تعرف الكثير منها . وقد اخترنا أوفر هذه الأغاني تحرراً وخروجاً على الحشمة وأخذنا ندمدمها في سرور . « إن نهديك الابيضين هما في فمي الجائع أطيب من الفريز ، والحليب الذي أشربه منهما ... » كان مطلع هذه الأغنية يثير فضولنا : هل ينبغي لنا أن نفهمها على حرفيتها ؟ أو يحدث للرجل أن يشرب حقاً حليب المرأة ؟ أيكون هذا طقساً من الطقوس الغرامية ؟ مهما يكن من أمر ، فان هذا المقطع هو « غير لائق » حتماً ، وهذا لم يمنعنا من ان نكتبه على الزجاج بأطراف أصابعنا ، ومن أن نغنّيه بصوت عال في مسمع امرأة عمنا هيلين . بل لقد أرهقناها بأسئلة دقيقة ، وكانت صراحتنا تتخذ شكل تحدّ وإثارة ، وقد بلغنا من ذلك غايتنا . حتّى اذا رجعنا الى باريس ، لم تتورع أختي ، وكانت أقل تحفظاً مني ، عن ان تسأل أمي عما اذا كان الاولاد يخرجون من السُرّة فأجابتها أمي بشيء من الجفاء :

— لماذا هذا السؤال ؟ لا شك انكما تعرفان كل شيء !

وهذا يعني ان امرأة عمي هيلين قد أطلعتها على الأمر : وقد عزّانا كثيراً أن نجتاز هذه المرحلة ، فمضينا الى الأمام ، وأفهمتنا أمّي

أن المواليد يخرجون من المؤخرة ، وبدون ألم . ولم يكن لهذا الحديث من تتمة . ولم أفاتح أمي بعد ذلك قط في مثل هذه الامور .

ولست أذكر أني اجتررت بعد ذلك قضايا الحبل والولادة ، أو أدخلتها في برنامج مستقبلي . لقد كنت أنفر من الزواج ومن الأمومة ، ولم أشعر أني معنيّة بهما . والواقع ان اطلاعي على هذه الأمور انما أثارني وأزعجني من زاوية أخرى ، هي أنه ترك كثيراً من الاسرار معلّقة . فما هي العلاقة القائمة بين مثل هذه القضية ، قضية ولادة طفل ، وبين الامور « غير اللائقة » ؟ فاذا لم تكن هناك علاقة ما ، فلماذا كانت لهجة مادلين وامتناع أمي عن الكلام يوحيان بان هناك مثل هذه العلاقة ؟ ان أمي لم تتكلم الا بعد تحريض منا ، ومن غير أن تشرح لنا قضية الزواج . وان الوقائع الفيزيولوجية تتعلق بالعلم كما يتعلق به دوران الأرض : فما الذي كان يمنعها من ان تخبرنا خبرها ببساطة ؟ ومن جهة أخرى ، اذا كانت الكتب المحرمة لا تحوي ، كما أوحت لنا بذلك ابنة عمنا ، إلا بذاءات سمجة ، فمن اين تراها قد استقت سمّها ؟ إن هذه أسئلة لم أكن اطرحها على نفسي بصراحة ، وانما كانت تعذبني مع ذلك . لا بد أن الجسم هو بذاته شيء خطر حتّى تكون كل اشارة الى وجوده ، سواء كانت هذه الاشارة خفيفة أو قاسية ، شيئاً خطراً جداً .

واستنتجت أن وراء سكوت الكبار شيئاً يختفي ، وأدركت أن لارتباكهم سبباً . على اني كنت قد فقدت أوهامي حول طبيعة أسرارهم . إنهم لم يكونوا يملكون الدخول الى مناطق مظلمة يمكن للنور ان يبهر فيها العيون ، ويمكن للافق ان يكون فيها أوسع وأرحب مما هو في دنياي الخاصة . وهكذا فان خيبتي كانت تردّ العالم والناس الى ابتذاليتهم اليومية . ومنذ ذلك اليوم ، بدأ احترام « الكبار » ينقص في نفسي ...

في معهد « ديزير » تعرفت ذات يوم الى رفيقة كانت تجلس غير بعيد عني في الصف : سمراء قصيرة ذات شعر أسود . وكان اسمها اليزابيت مابيل ، وكانت في مثل سني . وقد علمت منها انها بدأت دراستها في وسط اسرتها ، ثم حدث حادث خطير لها اذ كانت في الريف : كانت ذات يوم تقلي البطاطا ، فاشتعلت النار في ثوبها ، واحترق فخذها في اعلاه حرقاً بالغاً ، وظلّت تئن وتتوجع ليالي طويلة، وكانت بشرتها تحت تنّورتها المكسّرة ما تزال متورّمة ، بعد ان قضت سنة كاملة في الفراش . ولم أكن قد سمعت شيئاً على مثل هذه الأهمية فبدت لي اليزابيت شخصية تثير الاهتمام . وقد أدهشتني طريقتها في التحدث الى المعلمين ، وكان صوتها الطبيعي يختلف عن أصوات سائر الرفيقات المصطنعة . وبعد ذلك باسبوع ازددت بها اعجاباً حين رأيتها تقلّد مدرستنا « الآنسة بوديه » تقليداً عجيباً ، وكان كل ما تقوله غريباً يثير الفضول .

وقد كنا نتنافس ، اليزابيت وأنا ، على المركز الأول في الدروس. وقد راق هذا التنافس لمعلماتنا ، فشجعن صداقتنا التي أخذت تزداد وتعمق حتى أصبح الجميع يدعوننا بـ « اللتين لا تفترقان » .

وتساءل أبي وأمي طويلاً عن فروع اسرة « مابيل » ، وخرجا من ذلك بأن علاقة بعيدة مشتركة تربط اسرتها بهذه الاسرة . وكان أبوها مهندساً كبيراً للسكك الحديدية ، وكانت أمها تنتمي الى أسرة من الكاثوليكيين المناضلين .وقد تعرفت ذات يوم على أمي ، وانعقدت بينهما الصداقة ، فسمح لنا اليزابيت وأنا ، ان نتزاور وان تلعب احدانا في بيت الأخرى .

وحين زرتها مع أختي للمرة الاولى في منزلها ، أصبنا بما يشبه

الذعر : كان لاليزابيت (التي كنا ندعوها « زازا ») أخت كبيرة وأخ كبير ، وستة أخوة وأخوات أصغر منها وسرب من القريبات . وكانوا جميعاً يركضون ويقفزون ويتشاجرون ويصعدون على الطاولات ،ويقلبون الكراسي وهم يتصايحون . وحين دخلت أمها علينا ، كانت تمسح العرق عن جبينها وهي تبتسم ، وقد أدهشتني أن لا تغضب لشيء مما كان يفعله الاولاد ، والحق اني لم أحبّ هذه الاعمال الصاخبة ، ورأيت زازا تتضايق منها هي أيضاً . وقد التجأنا أخيراً إلى مكتب أبيها ،وأخذنا نتحدث بعيداً عن الصخب . وكانت هذه متعة جديدة . لقد كنت أتبادل مع زازا أحاديث لم أكن أتبادل مثلها مع أي انسان آخر . كنا نتحدث عن دروسنا ومطالعاتنا ورفيقاتنا وأساتذتنا وكل شيء نعرفه في الدنيا ، من غير أن نتحدث لحظة عن انفسنا . ولم تتحول أحاديثنا يوماً الى جانب الاعتراف أو المسارّة . ولم نكن نسمح لانفسنا بأي رفع للكلفة ، وكنا نتبادل الاحترام ، ولم نكن لنتعانق قط ، الا في الرسائل .

وكانت زازا مثلي تحب الكتب والدرس ، وكانت تتمتع الى جانب ذلك بعدد من المواهب لم أكن أملكها . وحين كنت أزورها أحياناً في بيتها ، بشارع فارين ، أجدها مشغولة بصنع الحلويات ، وكانت تصنع خشافاً لذيذاً من الفاكهة ، وكانت تضرب على الآلة الكاتبة « أخبار الاسرة » على عدة نسخ ترسلها الى الاقرباء خارج باريس . وقد بدأت تتلقى معي دروساً في البيانو ، ولكنها سرعان ما تفوقت عليّ . وبالرغم من أن جسمها دقيق هزيل ، فقد كانت رشيقة مرنة خفيفة الحركات . وكانت حيويتها وتلقائيتها تسحرانني بالاجمال .

ولم أدرك على الفور المكانة التي سوف تحتلها هذه الصداقة من حياتي ومستقبلي . كل ما هنالك انها كانت خير صديقة لي . والى جانبها بدأت أشعر بشخصيتي تنمو وتتضح معالمها .

وحين عدت الى المدرسة تلك السنة شعرت بأن ايامي بدأت تفقد مذاقها . لقد أعطيت كل شيء ، ومع ذلك فان يديّ فارغتان . وكنت يوماً أسير الى جانب أمي في شارع « راسباي » ، فاذا بي أتساءل فجأة : « ما الذي يحدث ؟ أهذه هي الحياة ؟ أليست هي الا هذا ؟ هل تراها ستستمر على هذه الوتيرة ؟ » وشعرت بأنفاسي تتقطع وأنا أفكر بأن أياماً وأسابيع وأشهراً ستمضي هكذا ، لا يضيئها أي انتظار ولا أي وعد : إن العالم ، كما يخيّل إليّ يموت ، واني لا أجد اسماً لهذا الضيق .

وجعلت أجرّر قدمي طوال اسبوعين .. وكنت ذات مساء أخلع سترتي في المعهد ، حين ظهرت زازا . فأخذنا نتحدث ونعلّق ، وتسارعت الكلمات الى شفتي ، وكانت تدور في صدري الف شمس ؛ وقلت لنفسي فجأة في بهرة من الفرح : « تلك هي التي تنقصني ! » لقد كان جهلي بمغامرات القلب الحقيقية كبيراً جداً حتى اني لم أفكر بان أقول « انني أتألم لغيابها » . كنت بحاجة الى حضورها لأتحقق من حاجتي اليها . وفجأة تناثرت المواضعات والتقاليد شظايا ، واستغرقني انفعال عجيب لم ينص عليه أي قانون . وتركت لنفسي أن تستخفها هذه الفرصة التي تفيض من جوانحي عنيفة نضرة كمياه شلال ، عارية كتمثال جميل من الغرانيت . وبعد أيام ، وصلت المعهد مبكرة ، فنظرت بشبه ذعر الى طاولة زازا وقلت في نفسي : « اذا حدث انها لن تأتي بعد أبداً لتجلس عليها ، أو انها تموت ، فماذا يكون شأني ؟ » وصعقتني حقيقة جديدة : « لا أستطيع أن أعيش بدونها بعد الآن ! » وقد كان هذا مريعاً بعض الشيء : كانت تأتي وتروح بعيدة عني ، وكل سعادتي ووجودي كان بين يديها . وتصورت الآنسة كونتران ، مدرّستنا ، تدخل ذات لحظة وثوبها يكنس الارض فتقول لنا : « صلوا يا أولادي : إن رفيقتكم الصغيرة اليزابيت مابيل ، قد دعاها الله اليه

في الليلة الماضية .» وقلت في نفسي : سوف أموت على الفور ! سأنسل من على طاولتي وأسقط على الأرض فائضة الروح . واطمأننت لهذا الحل. لم أكن أعتقد حقاً ان نعمة إلـهية ستنتزع مني الحياة ، ولكني لم أكن أخشى كذلك خشية حقيقية موت زازا . بل لقد اعترفت بيني وبين نفسي بعلاقة التبعية التي تنشأ من تعلقي بها ، ولم أكن أجرؤ على أن أواجه كل نتائجها .

ولم أكن أطلب أن تستشعر زازا قبلي إحساساً نهائياً كهذا : فقد كان بحسبي أن أكون لها صديقة أثيرة . ولم يكن الاعجاب الذي أكنه لها ينتقص من قيمتي في عين نفسي . فان الحب ليس هو الحسد . ولم أكن أفكر بشيء في العالم أفضل من أن أكون أنا نفسي ، وأن أحب زازا .

القسم الثاني

١

انتقلنا الى مسكن آخر كانت أجرته أدنى من الاجرة التي كان يدفعها أبي للمسكن السابق . ولكن المنزل الجديد كان أضيق وأصغر ، وليس فيه حمام ولا تدفئة في الشتاء . وكانت الغرفة التي أنام فيها مع أختي من الصغر بحيث لم تكن إحدانا تستطيع ان تتحرك . وكانت أمي تستقبل الناس في المكتب وكانت تحدث أبي هناك أيضاً . وقد تعودت أن أكتب فروضي وأدرس دروسي في ضجيج الاصوات . وقد أخذت أنا وأختي نحسد الفتيات اللواتي تملك كل منهن غرفة خاصة بها.

أما « لويز » ، فقد خطبت الى عامل فاجأته يوماً وقد أجلسها على ركبتيه في المطبخ . وبعد ان تركتنا لويز ، حلّت محلها قروية شابة نضرة مرحة تدعى كاترين ... وكنت أعرفها من قبل حتى أنها كانت شبه رفيقة لي . ولكنها كانت تخرج مساء مع الاطفائيين الذين كانوا يعملون في الثكنة المقابلة لبيتنا ، وكان الناس يقولون انها « تغامر » معهم . ولم تلبث أمي ان طردتها وعزمت على ان تستغني عن الخدم ، لا سيما وأن أشغال أبي كانت قد ساءت . وكان قد بدأ يعمل في « الاعلانات المالية » في بعض الصحف ، وكانت هذه المهنة تبعث لديه الضجر ولا تعود عليه الا بمال ضئيل . وكان يذهب مساء على سبيل التعويض ، ليلعب « البريدج » في المقهى أو لدى بعض أصدقائه. وكان يقضي أوقات فراغه صيفاً في ميدان السباق ، فتظل أمي غالباً

وحيدة ، ولم تكن تشكو من ذلك ، ولكنها كانت تكره القيام بعمل البيت ، وتشعر بأن الفقر يرهقها . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت عصبية جداً . ولم يكن أبي وأمي يختصمان حقاً ، ولكنهما كانا يتصايحان بصوت مرتفع جداً من أجل أمور صغيرة ، وغالباً ما يعزوان السبب لي أو لأختي .

وقد خفّ تعلّقي بأختي منذ تعرّفت على زازا . وكانت صديقتي تسخر من الجميع ولا توفر « بوبيت » وتصفها بأنها طفلة . وكنت أقلدها في ذلك . وقد استاءت أختي استياء شديداً حتى انها حاولت ان تنفصل عني . وكنا ذات يوم في المكتب ، فقالت لي أختي بصوت فاجع ، وكنا قد تخاصمنا منذ دقائق ..:

— اعترف لك باني أعتقد اني لم أعد أحبك كالسابق .

ثم شرحت لي عدم اكتراثها بي ، وكنت استمع اليها والدموع تتدحرج على خدي . ولكنها سرعان ما قفزت وهي تقول :

— هذا غير صحيح ! هذا غير صحيح .

وأخذت تقبلني وتعانقني ، فبادلتها ذلك وجففت دموعي ، وقلت:

— الحقيقة انني لم أصدقك .

ولكن الواقع انها لم تكن تكذب . لقد بدأت تثور على وضعها بصفتها الصغرى ، وقد شملتني بثورتها لأنني كنت قد شرعت أتخلى عنها . وكان تشعر بأن والديّ يهتمان بي أكثر من اهتمامهما بها . وقد شاءت يوماً ، في مصيفنا بـ « ميريناك » أن تثبت ان ذاكرتها قوية ، فسردت لنا اسماء جميع الماريشالية في عهد نابليون ، وكانت قد حفظت لائحتهم عن ظهر قلب . فابتسم ابي وأمي ، فاذا هي تحدجني بنظرة مغيظة ، كأنما تبحث عن نقائصي وعيوبي . وقد أغاظني حقاً ان تدعي أنها تساويني وتود أن تنافسني ..

وفي ذلك العام ، بدأت الكوابيس تعكر عليّ نومي . وقد حلمت

ذات ليلة بأن رجلاً يقفز على سريري ويغرق ركبته في معدتي ، فأكاد أختنق . ثم حدث ان كنت أصاب بضيق وانزعاج شديدين كلما نهضت في الصباح ، وكنت أودّ لو أبقى غارقة في الظلام . وكنت أصاب نهاراً بالدوار . وكانت أمي والطبيب يقولان : « ان هذه فترة التكوّن» وكنت أكره هذه الكلمة ، كما كنت أكره ما يجري في جسمي : وكنت احسد « الفتيات الكبار » على حريتهن ، ولكن كان ينفرني كثيراً التفكير بأن بطني قد ينتفخ يوماً . وكنت قد سمعت بعض النساء في الماضي يبوّلن بصوت يشبه صوت الشلال ... واذ كنت أفكر بالقرب المملوءة ماءً والتي يحفظنها في بطونهنّ ، استشعر مثل ما استشعر « جيليفر » من ذعر يوم كشفت له بعض العملاقات عن نهودهن .

وأصبحت الكتب المحرّمة تخيفني أقل مما كانت تخيفني من قبل ،منذ اكتشفت سرّها ، وكنت غالباً ما أترك بصري يتجوّل فوق قصاصات من الصحف معلّقة في المرحاض . وعلى هذا النحو قرأت قسماً من رواية متسلسلة كان بطلها يضع شفتين ملتهبتين على نهدي البطلة الأبيضين. ولقد أحرقتني هذه القبلة . ولقد تمثلتني ذكراً وأنثى وشاهدة ، فأعطيتها وتلقيتها وملأت منها ناظري . ويقيناً أني اذا أحسست من ذلك مثل هذا الانفعال الحيّ ، فلأن جسدي كان قد استيقظ ، ولكن أحلامه تبلورت حول هذه الصورة . ولست أذكر كم مرة تذكرتها قبل أن أنام . وقد اخترعت صوراً أخرى ، واني لاتساءل من أين أتيت بها . ولم يكن علمي بان الزوجين ينامان في سرير واحد ، ويكادان يكونان عاريين من الثياب ، كافياً بان يوحي لي بأن هناك ضماً أو ملاطفة : وانما أفترض اني كنت اختلق ذلك بمحض حاجتي اليه . ذلك اني كنت فترة من الزمن فريسة رغبات معذّبة ، فكنت أتقلّب في سريري ، وقد جفّ حلقي ، منادية جسم رجل يحيط جسمي ، ويدي رجل تلامسان بشرتي . وكنت أحسب بيأس : « لا حق للفتاة بان تتزوج قبل الخامسة عشرة . » وكان عليّ أن أنتظر سنوات قبل أن ينتهي

عذابي . وكان هذا العذاب يبدأ لطيفاً لذيذاً وكانت أوهامي وأشباحي تبعث في صدري خفقاً عذباً في دفء الفراش واختلاج الدم فأحسب أنها ستتحقق فعلاً ، ولكنها سرعان ما كانت تتلاشى : فليس ثمة يد واحدة ولا فم واحد ليهدئا جسمي الثائر ، وهكذا يصبح قميص نومي ثوباً مسموماً . ولم يكن ينقذني من ذلك كله الا النوم . ولم أكن أربط هذا الاضطراب بفكرة الاثم قط : فقد كانت قسوته تفيض عن انبساطي ، وأشعر اني ضحية أكثر مني مجرمة. ولم أكن أتساءل كذلك عما اذا كانت سائر الفتيات الصغيرات يعرفن مثل هذا العذاب ، فانني لم أكن قد اعتدت ان أقارن بيني وبين الاخريات .

وكنا نقضي فترة من الصيف لدى بعض الاصدقاء ، حين استيقظت صباح يوم من ايام تموز ، مذعورة : كان قميصي ملطخاً ، وأسرعت فغسلته ، ولكن ثيابي ما لبثت أن تلطخت من جديد . وكنت قد نسيت تنبوءات مادلين الغامضة ، فأخذت أتساءل عن أي مرض خبيث أصبت به . واستبد بي القلق ، وأخذني شعور مبهم بأنني كنت مخطئة فهرعت الى أمي ، فشرحت لي اني أصبحت « فتاة كبيرة » ثم ربطت بعض الخرق بين ساقي بطريقة مزعجة . على اني استشعرت عزاء كبيراً أن أفهم اني لم أكن خاطئة في شيء . بل ان شيئاً من الاعتزاز قد استولى علي ، كما كان يحدث لي كلما كان يطرأ علي شيء هام . واحتملت بلا انزعاج كبير أن أرى أمي تتهامس مع صديقاتها . ولكني على عكس ذلك ذبت خجلاً حين عدنا في المساء الى البيت فالتقينا بأبي الذي أشار الى حالتي إشارة ضاحكة . فقد كنت تخيلت أن المجتمع النسائي كان يحرص على ان يخفي عن الرجال عاهته الخفية . وكنت أحسبني ازاء أبي روحاً صافية ، واستفظعت ان يعتبرني فجأة هيكلا عضوياً . وأحسستني قد سقطت الى الأبد .

وما لبث وجهي ان تبشّع ، واحمرّ أنفي ، ونبتت في وجهي وعنقي بثور كنت أحكّها بعصبية . وكانت أمي التي أرهقها العمل تهمل ثيابي ، فتزيد فساتيني المشوّهة من قلّة اناقتي . وكانت مخاوفي الجنونية تنمو ما ازداد انزعاجي من جسمي : فلم أكن أحتمل مثلاً أن أشرب من كأس كنت قد شربت منه . وكانت تأخذني بعض التشنّجات العصبية ، فلا أنقطع عن رفع كتفيّ ولا عن فرك انفي وكان أبي يردد قائلاً « لا تحكي بثورك ولا تفركي أنفك ! » وكان يتحدث عن بشرتي وعن بثوري وعن سخافتي دون ما هوادة ، فيزداد ضيقي وانزعاجي .

وجعلت ألاحظ أن صدري كفّ عن ان يكون كصدور الفتيات الصغيرات ، واني أصبحت أتحيّر بين الصبية والمرأة .

وما لبثت لياليّ طويلاً حتى استعادت هدوءها . على ان العالم حولي أخذ يضطرب بطريقة لا توصف . وكان في الصف الذي هو فوق صفي في المعهد طالبة كنت أنظر اليها على انها معبودة جميلة ، شقراء باسمة موردة . وكان اسمها « مرغريت دو تيريكور » وكان أبوها يملك ثروة من أكبر ثروات فرنسا . وكانت تصحبها الى المعهد وصيفة في سيارة فخمة سوداء يقودها سائق . وكانت تبدو لي ، وهي ما تزال في العاشرة من عمرها ، أميرة صغيرة بشعرها المصفّف وفساتينها المرتبة وقفازيها اللذين لم تكن تنزعهما الا حين تدخل الصف . ولقد أصبحت في تلك الفترة صبية جميلة ذات شعر ذهبي أملس وعينين من البورسلين وبسمة عذبة . وكنت معجبة بطبيعتها وتحفظها وصوتها الرصين المغنّي . وكانت سائر الطالبات يعبدنها لما كانت تظهره لهن من احترام ولما كان يبدو لهنّ من بريق غناها . وكانت تحدّثني بكثير من اللطف ، وكان يقال ان أمها كانت مريضة مزمنة ، وهذا ما أحاط مرغريت بهالة روائية ... وكنت أحدث نفسي

بأني سأتهاوى من الفرح اذا ما دعتني يوماً الى بيتها ، ولكني لم أكن أجرؤ حتى على ان أتمنى ذلك : فقد كانت تسكن في أوساط هي في بعدها عني تماثل البلاط الانكليزي . والحق اني لم أكن أصبو الى علاقة حميمة معها ، وانما كنت أود لو أستطيع فحسب أن أتأملها عن كثب.

وحين أدركت سن البلوغ ، عمقت عاطفتي . وحضرت ذات يوم الامتحان النهائي للصف الاعلى ، وكانت مادلين ترتدي ثوباً جميلاً من « الكريب دو شين » كانت أكمامه تشفّ عن ذراعين جميلتين في التفافهما : وقد اضطربت لهذا العري المحتشم ، وكنت من الجهل والاحترام المتحفظ بحيث أعجز عن التعبير عن اية رغبة ، ولم أتصوّر أن هناك يداً يمكن أن تدنّس يوماً هاتين الكتفين الناصعتين . غير اني طوال وقت الامتحان لم أنزع بصري عنها ، وكان شيء ما مجهول يشد على حنجرتي بالضيق .

وكان جسمي يتطوّر ، وكذلك حياتي : فلقد بدأ الماضي يتركني. وكنت أتفرّج يوماً مع أختي على صور عائلية قديمة ، حين فطنت على أن ملك جدّي في «ميريناك» سوف يُفقد حين يموت ، وهو الآن في سنّ كبيرة ، ذلك ان هذا الملك سيحول الى عمي غاستون ، ولن أشعر آنذاك حين أزوره اني في بيتي حقاً ، وانما سوف أقصده كغريبة ، ثم أنقطع عنه . وهذا ما أبرمني . وكان أهلي يرددون ان مما يجمّل الحياة أن يكون فيها صداقات طفولية : أتراني أنسى يوماً زازا ؟ وكنا نتساءل ، أختي بوبيت وأنا ، عما اذا كان حبنا سيقوى على الدهر .

وكانت رتابة حياة الكبار تثير شفقتي دائماً : وحين أدركت أن هذه الحياة ستصبح عما قريب من نصيبي ، استولى عليّ الضيق . وكنت أساعد أمي ذات يوم في غسل الصحون : كانت هي تغسلها ، وأنا أمسحها ، وكنت أرى عبر النافذة ثكنة الاطفائيين ، ومطابخ أخرى

تفرك فيها النساء الاواني أو تقشر الخضار . الغداء والعشاء كل يوم . وغسل الصحون كل يوم ... هذه الساعات التي تتكرر الى ما لا نهاية والتي لا تفضي الى أي مكان : أتراني سأعيش هكذا ؟ وانطبعت في رأسي صورة بلغ من وضوحها أني ما زلت أذكرها حتى اليوم : كان يمتد صفّ من المربعات الرمادية حتى الأفق . وكانت هذه المربعــات تتناقص وفق قانون المنظور ، ولكنها كانت كلها متشابهة مسطّحــة : كانت هذه هي الأيام والاسابيع والسنوات ، وقد كنت منذ ولادتــي أنام كل مساء وأنا أغنى قليلاً مما كنت في الليلة السابقة . كنت أرتفع درجة درجة على هذا النحو ... ولكن .... اذا كان مفروضاً اني لن أجد هناك الا سطحاً كئيباً ، من غير ما هدف أمشي اليه ، فما جدوى الحياة ؟

وقلت لنفسي ، وأنا أصفّ الصحون في الخزانة ، ان حياتي لا بد أن تفضي الى مكان ما . ومن حسن الحظ اني لم أكن مرصودة لحيــاة عائلية بيتية . وكان ابي يقول لي ولاختي :

— انكما لن تتزوّجا يا صغيرتي ... ذلك انه ليس لديكما مهر ، ويجب أن تعملا .

وكنت أوثر الى ما لا نهاية ان أمتهن مهنة على أن أتزوّج ، وكانت هذه الفكرة تفسح لي طريق الامل . فقد عرف العالم أشخاصاً عملـوا أشياء ، وسوف أعمل أنا الأخرى شيئاً ما . ولم أعرف ما هو بالضبط ، فقد فكرت في عدة أشياء ، وداعبتني الرغبة في أن أمتهن الكتابة . ولكن هذه المشاريع كانت تحتاج الى كثافة ، ولم أكن من الايمان بها بحيث أواجه المستقبل بملء الثقة . وكنت أحمل سلفاً ثياب الحداد عـلى ماضيّ . وكنت قد فقدت طمأنينة الطفولة ، ولكني لم أربح شيئاً بالمقابل . ولم تكن سلطة أهلي قد تراخت ، فكان احتمالها يصعب عليّ ما ازداد حسّي النقدي تفتحاً . ولم أكن أجد فائدة لتلك الزيــارات

أو لتلك الدعوات لتناول الطعام التي كانوا يعتبرونها اجبارية . وكانت لأمي أفكارها التي لم تكن لتهتم بأن تبررها ، وكانت قراراتها غالباً ما تبدو لي اعتباطية . ولو أنها كانت تعاكسني كثيراً لدفعتني إلى الثورة . ولكنها كانت قليلاً ما تتدخل في شؤوني الهامة ، كدراستي واختياري لصديقاتي ، وكانت تحترم عملي بل وحتى عطلي ولا تطلب مني الا خدمات قليلة ، كأن أطحن البن ، أو أنزل سلة الاوساخ . وكنت قد اعتدت على الوداعة ، وكنت أعتقد ان الله كان يطلب مني ذلك . وهكذا لم ينفجر النزاع الذي كان ينصبني تجاه أمي ولكني كنت أحسه مستكناً في ضميري . كانت تربيتها ووسطها قد أقنعاها بأن أجمل أدوار المرأة انما هي الأمومة ، ولم تكن تستطيع أن تمثل هذا الدور الا اذا مثلت انا دوري ، ولكني رفضت بقسوة أن أمثل دور الكبار . وكانوا قد طلبوا منا في « معهد ديزير » عشية التناول أن نذهب فنرتمي على أقدام أمهاتنا طالبات منهن الصفح عن خطايانا . لم أمتثل لهذا الطلب . بل اني أقنعت أختي حين أتى دورها الا تمتثل له . وقد أغضب ذلك أمي ، وشعرت بعصياني وبدأت توبخني، وكنت آخذ عليها رغبتها في أن تضعني تحت تبعتها وأن تؤكد أن لها حقوقاً علي . ثم اني كنت أغار من المقام الذي كانت تحتله في قلب أبي ، لأن شغفي به لم يكن الا ليزداد ويعمق .

وكان تفوق أبي يملأ نفسي بحبه ، بالرغم من ان الحياة كانت تزداد عقوقاً له . على ان ذلك لم يمنعني من أن أرثي له ، فقد كنت أعتقد بأنه ضحية مصائب عظيمة غامضة ، وبأنه مغبون مظلوم . وكنت أزداد تعلقاً به ما ظهر بمظهر المرح واللامبالاة ، وكان لا يكف عن رواية القصص الطريفة وعن إلقاء النكات . وكان يقرأ لنا فيكتور هوغو وروستان ، ويتحدث عن المؤلفين الذين يحبهم وعن المسرح وعن أحداث الماضي الكبيرة ، وعن جملة من الموضوعات الرفيعة التي كانت

تنزعني من جو الأشياء اليومية العادية ، ولم أكن أتصور أن هناك رجلاً أذكى منه .كانت له الكلمة الأخيرة في جميع المناقشات التي أشهدها ، وحين كان يهاجم أشخاصاً غائبين ، يسحقهم سحقاً . وكان يكفي أن يوافق على رأي من آرائي ، أو تصرف من تصرفاتي ، حتى أكون واثقة من نفسي . وكان طوال أعوام لم يوجه لي إلا المديح . ولكني خيبت ظنه حين بلغت سن العقوق ، فقد كان يقدّر الاناقة والجمال في النساء، وهو لم يكتف بأن لا يخفي عني خيبته ، وانما أصبح يولي أختي من الاهتمام أكثر مما كان يوليها من قبل . وكان يشع فخراً حين كانت تظهر متنكرة بثياب « فاتنة الليل » . وكان يشترك احياناً باستعراضات يقيمها أحد أصدقائه فيشرك بها بوبيت أيضاً .

على ان غريمتي الحقيقية كانت أمي . كنت أحلم بأن تكون لي بأبي علاقات شخصية ، ولكن حتى في المناسبات النادرة التي كنا نلتقي بها وحدنا ، كنا نتحدث كما لو كانت أمي موجودة معنا . وكنت اذا لجأت اليه ، في حال النزاع يجيبني : « إفعلي ما تقوله لك أمك ! » فشعرت بأنه غير مستعد للدفاع عني ، وبدأت أفقد بعض تعلقي به واعتبره غير معصوم عن الخطأ . ولعل هذا ما دفع بي الى أن أخفي عن أهلي بعد ذلك ما كنت أحسب أنه لن يرضيهم اذا كشفته لهم .

٢

ظل أبي وأمي يراقبان مطالعاتي مراقبة دقيقة ، ولا يتركان بين يدي باستثناء الكتب الادبية المتعلقة بالدراسة ، الا عدداً صغيراً من المؤلفات المختارة ، وكانا غالباً ما يقصّان بعض الصفحات من هذه الكتب . ولكنهما لم يكونا ليغلقا المكتبة بالمفتاح ، واثقين من أمانتي ؛

وكنت في أثناء العطل ، أستغرق في المطالعة ، وأسمح لنفسي

بأن أقرأ بعض الكتب التي كانا يمنعانها عليّ . وهكذا غامرت في دخول الميادين المحرمة في المطالعة ... وقد تصنّعت يوماً اني أقرأ « ليـــالي » موسيه ، ولكني انتقلت من هذا الكتاب الى جميع مسرحياته ، وقرأت « رولا » و « اعترافات فتى العصر » . وكنت كلما وجدتني وحيـــدة في البيت ، أقرأ بحرية في جميع كتب المكتبة ، وأقضي ساعاتعجيبة وأنا جالسة في الأريكة الجلدية ، ألتهم الروايات التي سحرت شباب أبي : روايات بورجيه ، ودوديه ، وبريفوست ، وموباسان وسواهم، ولقد أتمت هذه الكتب تربيتي الجنسية ، ولكن من غير انسجام كبير. وكانت عملية الحب في بعض هذه الكتب تستمر ليلة بطولها ، وأحياناً بضع دقائق ، وتبدو تارة تافهة لا طعم لها ، وتارة عظيمة شهوانية ، وكانت تحتمل تفاصيل ودقائق ظلّت مغلقة عليّ طويلاً . وقد عقّـــد الأمور في رأسي ما قرأته عن علاقات « المتمدنين » لفارير مع صبيانهم، وعلاقة كلودين مع صديقتها « ريزي » . وبالاجمال لم أكن أربط بـين هذه القصص وبين تجربتي الخاصة ، فقد كنت مدركة انهم كانوا يصورون مجتمعاً فاسداً في معظمه . ولم يكن في هذه المؤلفات ما يعرض عليّ صورة للحب أو فكرة عن مصيري يمكن ان ترضيني ، ولم أكن أبحث فيها عما ينبئني عن مستقبلي ، ولكنها كانت كلها تمنحني ما كنت أطلب منها : كانت تخرجني من جوّ محيطي . وكنت اذا ما خرج أهلـي في المساء أطيل الى ساعة متأخرة من الليل أفراح ذلك الهروب . فكنت أقرأ بينما كانت أختي تنام متكئة على وسادتي . وما أن إسمع صـوت المفتاح يدور في القفل حتى اطفىء النور . وحين أفيق صباحاً وأرتّب سريري ، كنت أخفي الكتاب تحت الفراش منتظرة ان يتاح لي اعادته الى مكانه . وكان من المستحيل على أمي ان تتنبّه الى هـــذه المناورات ، ومع ذلك فقد كان يكفيني أحياناً أن أذكر أن كتـــاب « أنصاف العذراوات » أو كتاب « المرأة والكركوز » ينامان تحـــت

فراشي حتى أرتعش من الذعر . ولم يكن في مسلكي ، على ما أعتقد أي شيء مستنكر : لقد كنت أتسلى وأتثقف ، لقد كان أهلي يريدون الخير لي ، ولم أكن أخالفهم ، لأن مطالعاتي لم يكن فيها شيء . ومع ذلك فقد كان يكفي لعمل ما من أعمالي أن يذيع حتى يصبح عمل إجرام .

ومن عجيب المفارقات أن ما قذفني في هوّة الخيانة ، انما هي قراءة مشروعة . وكان قد سبق لي آن شرحت في الصف كتاب « سيلاس مارنر » . وقبل ان أذهب الى العطلة الصيفية ابتاعت لي أمي كتاب « آدم بيد » . وكنت جالسة تحت شجر الصفصاف في حديقة القرية ، أقرأ الكتاب وأتتبع بنفاد صبر تطور القصة البطيء . وفجأة قرأت ان البطلة – التي لم تكن متزوجة – وجدت نفسها حاملاً إثر نزهة في احدى الغابات . واذا بقلبي يخفق خفقات كبيرة : المهمّ ألا تقرأ أمي هذا الكتاب ! لأنها ستعرف آنذاك أنني كنت أعرف ، ولم أكن أستطيع تحمل هذه الفكرة . ولم أكن أخشى عقاباً ، فاني لا ملامة عليّ في ذلك ، ولكني كنت أخاف خوفاً عظيماً ما عساه أن يخطر في بالها . فلعلها قد تجد من الواجب ان تتحدث إلي ، وتلك امكانية كانت ترعبني ، لأني كنت أعرف مدى نفورها من مباشرة هذه الموضوعات التي كانت تصمت عنها صمتاً طويلاً . والحق ان وجود الفتيات – الامهات كان في رأيي أمراً موضوعياً لا يزعجني أكثر مما يزعجني وجود العالم الآخر ، ولكن معرفتي لذلك ستصبح عبر ضمير أمي ، فضيحة تلطخنا نحن الاثنتين .

وبالرغم من ضيقي لم أر أن اخترع هذا الحل : الادّعاء بأني أضعت الكتاب في الغابة . فقد كانت إضاعة أي شيء ، حتى ولو كان فرشاة أسنان ، يسبّب في البيت عواصف شديدة يستوي عندها في الخوف العلاج والمرض . ثم اني اذا كنت أمارس بلا وسواس التخفّي

الفكري ، فلن أستطيع أن أطلق أمام أمي كذبة ايجابية ، لأني كنت أخشى أن أخون نفسي باحمرار وجهي وتلعثم كلماتي . وكل ما فعلته أني حاذرت ان يقع كتاب « آدم بيد » في يد أمي . ولم يخطر في بالها أن تقرأه . ولذلك وفّرت علي تلك المشكلة .

وهكذا غدت علاقاتي بأسرتي أشقّ مما كانت من قبل . ولم تعد أختي تحبني في غير ما تحفّظ ، وكان ابي يجدني قبيحة ويغيظه ذلك وكانت أمي تحاذر هذا التبدل الغامض الذي كانت تلحظه علي . ولو أن أهلي قرأوا ما في رأسي لحكموا عليّ ، وقد كانت نظراتهم تضعني في خطر بدلاً من ان تحميني كما كان يحدث في السابق . وقد هبطوا هم أنفسهم من منزلتهم في نظري ، ولم أفد من ذلك لأرفض حكمهم عليّ . بل على العكس ، فقد أحسستني مشبوهة بازدواج ، لقد كففت عن أن أقطن في مكان ممتاز ، كما أن مزيّتي قد تصدّعت . لقد كنت غير واثقة من نفسي ، وكنت قابلة للنقد . وقد كان من جراء ذلك ان تغيّرت علاقتي بالآخرين .

٣

كانت مواهب « زازا » تتوثق رويداً رويداً . فقد أصبحت تعزف على البيانو ببراعة ، بالنسبة لسنّها ، وبدأت تتعلّم العزف على الكمان. وكان خطّها في الكتابة يدهشني باناقته بينما كان خطي طفولياً ورديئاً ، وكان أبي معجباً باسلوبها في رسائلها إعجابي به ، وكذلك حيويتها في الحديث . وكان يسلّيه أن يعاملها باحترام ، فترد عليه ببراعة ، ولم تكن سنّ العقوق لتبشعها ، بل كانت لها حركات فتاة ناضجة بحسن لباسها وتسريح شعرها . على انها لم تفقد جرأتها الصبيانية : فقد كانت في أثناء العطلة تمتطي الحصان عبر الغابات ، غير عابئة بما قد يقوم في وجهها من

عقبات . وقد قامت بزيارة لإيطاليا أخذت تحدثني عنها لدى عودتها ، وعن المباني والآثار والتماثيل واللوحات التي أحبتها . وحسدتها على الأفراح التي تذوقتها في بلد أسطوري ، وجعلت أنظر باحترام إلى الرأس الأسود الذي كان يخبئ مثل تلك الصور الجميلة . وكانت تبهرني بجدتها وطرافتها . فبينما كان اهتمامي بالمعرفة أكثر من اهتمامي بالحكم ، ولذلك كنت أعنى بكل شيء ، كانت ، هي « زازا » ، تختار . كانت اليونان تسحرها ، وكان الرومان يضجرونها . وكان مصير نابوليون يبعث لديها الحماسة من غير ان تؤثر فيها مصائب الأسرة المالكة . وبينما كانت معجبة براسين ، كان كورناي يغيظها . ولقد عرفتها ابداً ساخرة ، حتى انها اتخذت التهكم نظرية لها بين الثانية عشرة والخامسة عشرة من عمرها . ولم تكن تكتفي بالاستهزاء بمعظم الناس ، بل كانت تسخر من العادات القائمة والأفكار المستجلبة . وقد جعلت كتاب « الامثال» للاروشفوكو كتاب سريرها ، وكانت تردد في كل لحظة ان الفائدة هي التي تقود البشر . ولم أكن قد كونت عن البشرية أية فكرة عامة ، ولكن تشاؤمها العنيد كان يفرض علي أن أتخذ فكرة ما . وكان كثير من آرائها هداماً مخرباً . وكانت جرأتها تستثير غضب بعض المعلمين ، بينما كان بعضهم الآخر يعزوها إلى حداثة سنها ويتسلى بذلك . وكان مركزي في الترتيب قبلها ، حتى في اللغة الفرنسية التي كنت أتفوق بها عليها من حيث « المضمون » ، ولكني أظن انها كانت تحتقر المركز الأول . وكان يقال إن لها شخصية متميزة ، وكان هذا امتيازها الأكبر. وكنت أرى فيها حضوراً متدفقاً كأنه الينبوع ، صلباً كأنه كتلة من العاج . وكنت أقارنها بما كان لدي من فراغ داخلي ، فأستشعر احتقاراً لنفسي . وكانت زازا تضطرني إلى هذه المقارنة ، لأنها كانت توازي دائماً بين حماستي وعدم اكتراثها ، وبين نقائصها ومزاياي التي كانت تهزأ بها . حتى أنا ، لم أكن بمنجى من سخرياتها .

وكنت أقول لنفسي بحزن : « ليست لي شخصية » . كان فضولي يتجه إلى كل شيء ، وكنت مؤمنة بمطلق الحق وبضرورة القانون الاخلاقي ، وكانت أفكاري تتناسق وموضوعاتها ، وكنت اوثر الافضل على الخير ، والشر على الأسوأ ، وأحتقر ما كان يستحق الاحتقار . ولم أكن ألحظ أيّ أثر للذاتية في الحكم . لقد أردتني من غير حدود، وكنت من غير شكل ، كاللامحدود سواء بسواء . وكنت أحب « زازا » إلى حد انها كانت تبدو لي أكثر حقيقةً مني : كنت سلبها . على اني كنت أرفض أن أكون « زازا » لو عرض عليّ ذلك . فأنا أفضل أن أملك العالم على أن أملك وجهاً ، وكنت مقتنعة بأنني وحدي كنت افلح بأن أكتشف الواقع من غير أن اشوهه أو ازيّنه .

وكانت « زازا » ثالثة أولاد أسرة « مابيل » ، وكانت أمها تعتبرها صورة لها وكانت هي تفضل أمها على أبيها . وقد علمت منها انها فهمت قبل الأوان أن أمها قد كرهت أباها منذ الليلة الأولى من زواجهما ، وانها بسطت هذا النفور على اسرة زوجها برمتها . وبالرغم من أن الاب أراد لزازا أن تدرس الرياضيات ، فقد اختارت الأدب .

ولم تكن زازا تحترم نفسها ، ولكنها لم تكن كذلك تحترم الآخرين . وكانت تلتمس في السماء ما ترفض الأرض أن تقدمه لها . كانت شديدة التقوى ، وكانت تعيش في محيط أكثر انسجاماً من محيطي ، إذ كانت القيم الدينية مؤكدة بالاجماع وبحماسة . وكانت اسرتها تقصد « لورد » كل عام في موسم الحج الوطني . وكان الحديث غالباً ما يدور في محيطهم عن الله والاحسان والمثل الأعلى . ولكن زازا أدركت بسرعة أن هؤلاء الناس لم يكونوا يحترمون إلا المال والمظاهر الاجتماعية . ولقد أثارها هذا النفاق ، فاحتمت منه بنوع من الجرأة الوقحة .

وبالرغم من صداقتنا الحميمة ، فاننا لم نكن نرفع الكلفة بيننا ،

وكنت أعرف انها أقل تعلقاً مني بها . صحيح انها كانت توثرني على سواي من الرفيقات ، ولكن الحياة المدرسية لم تكن لتهمها كما تهمني وكنت أجهل أي مركز كانت تمنحني في حياتها ، وهي الحريصة على اسرتها ومحيطها وعطلها المدرسية . وكانت الرسائل التي نتبادلها تقليدية جداً ، ولم تكن احدانا تصارح الأخرى بأي عاطفة تكنّها لها . وكانت أمها وأمي تقرأن رسائلنا ، ولم تكن هذه الرقابة تسمح بتدفق العواطف الصميمية . ومهما يكن من أمر ، فقد كان وجود زازا مغلقاً باحكام حتى انه لم يكن لي فيه مكان ، وكان هذا يحزنني ويقلقني، ولم أكن أدري ما إذا كان هذا الشعور صحيحاً ام مبالغاً فيه .

٤

كان معظم الفتيان الذين كنت أعرفهم يبدون لي محدودين مزعجين مع علمي انهم كانوا ينتمون إلى فئة ذات امتياز . وكنت مستعدّة للرضوخ لتأثيرهم بمجرد ان يكون لديهم بعض السحر أو الحيوية . وكان أشدّهم تأثيراً عليّ ابن عمتي جاك ، الذي كان يسكن مع أخته ومع خادمة عجوز في شارع « مونبارناس » ، وكان يأتي غالباً فيقضي الامسية عندنا . وكان قد اكتسب ، وهو بعد في الثالثة عشرة ، مزايا شاب ناضج . وقد لاحظت ان استقلاله في حياته وسلطته في المناقشات قد جعلا منه رجلاً كبيراً ، ورأيت من الطبيعي ان يصفني بابنة خاله الصغيرة . وكنا نسرّ كثيراً ، أنا واختي ، حين كنا نسمع طرقه على الباب . وقد وصل ذات مساء في ساعة متأخرة جداً ، حتى اننا كنا قد أوينا إلى فراشنا ، فهرعنا إلى المكتب ونحن بقميص النوم :

فقالت أمي :

– ما هذا ؟ إن ذلك ليس من اللائق ، فقد أصبحتما كبيرتين !

فدهشت من هذا . لقد كنت اعتبر جاك كأنه أخٌ لي .وكان يساعدني في ترجمة فروضي اللاتينية ، وينتقد اختياري لأنواع المطالعة ، ويلقي عليّ الاشعار . وقد أنشد ذات مساء ، ونحن على الشرفة ، قصيدة « حزن اوليمبو » ، فذكرت ، والغصّة في قلبي ، اننا كنا مخطوبين أما الآن ، فلم يعد يعقد الأحاديث الحقيقية الا مع ابي .

وكان جاك طالباً خارجياً في كلية « ستانيسلاس » حيث كان تلميذاً لامعاً . وكان يعرف عدداً من الشعراء والكتّاب كنت أجهل عنهم كل شيء . وكان إذا دخل البيت يدخل معه ضجيج عالمٍ مغلقٍ بالنسبة لي وكم كنت اودّ لو انفذ اليه !

وكان أبي يقول :

– إن لسيمون عقل رجل . إن سيمون رجل !

ومع ذلك ، فقد كانوا يعاملونني كفتاة . ولقد كان جاك ورفاقه يقرأون الكتب الحقيقية . فيقفون على مجرى المشاكل الحقيقية ، ويعيشون تحت سماء مفتوحة : أما أنا ، فقد حشروني في غرفة ضيقة . غير انني لم أيأس ، فقد كنت واثقة من مستقبلي . كانت هناك نساء قد شققن لانفسهن طريقاً في عالم الرجال ، إما بالمعرفة أو بالموهبة . ولكني كنت نافدة الصبر بسبب ما يفرضونه عليّ من قيود تؤخرني . وحين كان يتفق لي ان أمرّ امام كلية « ستانيسلاس » كان قلبي ينقبض إذ أذكر السرّ الخفي الذي يحتفلون به خلف تلك الجدران : قاعة درس للصبيان .. وكنت أشعر انني منفيّة . وقد كان لهم أساتذة لامعون في ذكائهم ، وكانوا يمنحونهم المعرفة في إشراقها الذي لم يُمسّ . أما معلماتنا المسنات ، فلم يكنّ يعطينها إيانا إلاّ مبتورة قد ذهب رونقها .. لقد كنّ أغنى بالفضائل منهن بالشهادات . وقد فكر أبي بان ينقلنا من معهد « ديزير » إلى معهد آخر ، وكنت أودّ ذلك أنا أيضاً. ولكني رفضته حين ذكرت اني بذلك سأنفصل عن « زازا » . وقد أيدتني أمي في ألاّ أتركه .

وظللت أعمل فيه بجدّ ، وبدأت أشارك زازا وبعض الرفاق في الاستهزاء بمعلماتنا . وكانت الناظرات يفشلن في إشاعة الهدوء بيننا ، لا سيما بعد أن أسست اختي مع بعض زميلاتها صحيفة يومية مدرسية كنا نشارك في تحريرها وننشر فيها انتقادات قاسية لهاتيك الآنسات السخيفات .

وكان من عادة معهد « ديزير » ان يمنح في شهر آذار من كل عام امتيازات وأوسمة مكافأة للمجليات في كل مادة . وكان هذا الاجتماع يقام في قاعة « واغرام » الفخمة . وقد ذكر اسمي ذلك العام بصفتي مجلية في الرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وبعد انتهاء الحفلة ، اقتربت معلمة التاريخ من أمي لتبلغها بأن تأثير زازا عليّ كان تأثيراً سيئاً طوال العام ، وانه ينبغي الا يتركوني أجلس إلى قربها أثناء الدرس .وطفرت الدموع إلى عيني ، وأحسستني أختنق من الغضب لرغبتهم في إبعادي عن زازا . ولكن حزني كان أعمق . فقد تحققت وأنا في ذلك الممر الكئيب ان طفولتي قد انتهت ...

ولم أعد اسيطر على العالم ، وكانت واجهات المباني تنفيني ، وكذلك أنظار المارة اللامبالية . من أجل هذا اتخذ حبّي للريف الواناً صوفية . فما ان أصل إلى « ميرينياك » حتى تنهار الجدران ويتراجع الأفق ، وكنت أضيق في اللانهاية فيما أظلّ أنا نفسي . وكنت أحسّ على جفني حرارة الشمس التي تشعّ من أجل الجميع والتي لا تداعب ، في تلك اللحظة ، الاّ ي . وكانت الريح تدور حول الصفصاف ، آتيةً من كل مكان ، تتدحرج في الفضاء ، فاذا أنا في دوامة تنقلني حتى آخر تخوم الأرض ، وأنا جامدة في مكاني . وحين كان القمر يرتفع في السماء، كنت أتواصل مع المدن البعيدة والصحارى والبحار والقرى التي كانت تستحمّ في نوره . ولم أكن بعد ، آنذاك ، ضميراً تائهاً أو نظراً مجرداً ، وانما كنت رائحة القمح الاسود ، ونكهة العشب الصميمية وحرارة الجنوب أو ارتعاشه الاصيل : كنت أحسّني ثقيلة، ومع ذلك

فقد كنت أتبختر في الأفق ، من غير ما حدود .

لقد كانت تجربتي البشرية قصيرة ، ولم أكن أدرك منه كل شيء بسبب ضعف الإنارة أو بسبب شرود الكلمات . كنت أعجب بوحدة السنديانة الرائعة وعزلتها وهي التي تشرف على الحديقة كلها، وكنت أحزن لعزلة اطراف العشب . ولقد عرفت الأصباح البكر ، والكآبة الغسقية ، والانتصارات والانحدارات والانبعاثات والاحتضارات ... وكانت تدمدم في البراري الجامدة ، منذ الصباح حتى الليل ، حياة متجددة ابداً . وكان يكفي ان أذهب ، حتى ينحل المشهد وينعدم وجوده للجميع ، بل ينعدم على الاطلاق .

ومع ذلك ، فقد كنت احس هناك وجود الله حولي أكثر مما كنت أحسه في باريس . وكنت كلما التصقت بالارض ازددت قرباً منه ، وكانت كل نزهة صلاة عبادة له . ولم تكن سيادته لتنزع مني سيادتي. كان يعرف كل الاشياء على طريقته . اي بصورة مطلقة : ولكن كان يخيل الي انه كان على نحوٍ ما بحاجة إلى عيني لتكون للأشجار ألوانها . وحرقة الشمس ، ورطوبة الندى ، أنى لذهن مجرد ان يحسها إلا عبر جسدي ؟ لقد جعل هذه الأرض للبشر ، وجعل البشر ليشهدوا بجمالاتها : وان المهمة التي شعرت ابداً اني مكلفة بها ، انما اعطاني هو إياها . وقد كان بذلك يؤكد سلطاني ، ولا يسقطني من عرشي . وحين كنت في الصباح اجتاز الحواجز عدواً لأوغل في الغابات فانما كان هو الذي يناديني . وكان ينظر الي بغبطة وانا انظر إلى هذا العالم الذي خلقه لأراه .

وكنت أنفر من العودة إلى المدى المغلق ، وإلى زمن الكبار ، حتى ولو كان الجوع يرهقني ، حتى ولو كنت منهوكة القوى من القراءة والاجترار . وحدث ان نسيت نفسي ذات مساء . وكان هذا في «الغريير» وكنت قد قرأت طويلاً ، عند ضفة مستنقع ، في قصة القديسة فرانسواز.

حتى إذا جاء الغسق ، أغلقت الكتاب ، وجعلت وأنا مضطجعة على العشب أتأمل القمر الذي كان يلمع على الجبل وقد بلّته أولى دموع الليل : ولقد كادت عذوبة تلك الساعة تخنقني من التأثر ، فوددت لو أتناولها بين يدي وأثبتها بالكلمات على الورق ، وكنت أقول في نفسي : ستكون هناك ساعات أخرى ، ثم أتعلّم ان احفظها . وحين عدت إلى البيت ودخلت قاعة الجلوس ، استقبلني أهلي بالاستنكار .وأصدرت أمي قراراً ، على سبيل العقاب ، بأني لن اتجاوز بعدُ باب الحديقة ، ولم أكن أجرؤ على العصيان بعد ذلك . وقد قضيت النهار جالسة في الحديقة ،أو كنت أذرع الممرات جيئة وذهاباً داخل حدوده ، والكتاب في يدي ، والعاصفة في صدري . وقد كانت مياه المستنقع هناك تتجعد وتنبسط ، وكان النور يشع مغتاظاً ثم يعذُب ،بدوني ، بدون شاهد ؛ وكان هذا لا يُحتمل ، وكنت أقول لنفسي : « لو كانت السماء قد أمطرت بالأمس ، لكانوا على حق في ان يغضبوا . » ولكني وجدت في صدري تلك الثورة التي كانت تشجعني في الماضي تعود إليّ الآن نابضة لم تُمسّ . لقد كانت كلمة واحدة تلقى على غير ما هدف كافية لتضع حداً لفرحة كبيرة ، لامتلاءة نفسية . ولم يكن هذا الكبت للعالم ، ولي أنا نفسي ، ليخدم احداً ، أو ليفيد شيئاً . ومن حسن الحظ أنّ هذا الحرمان لم يتكرّر . وأصبحت حرّة في أن اتمتّع بأوقاتي شريطة ان أدخل البيت باكراً في ساعة العشاء .

وقد وفّرت عليّ أوقات العطلة ان اخلط بين مباهج التأمل والملل . وقد كان يحدث لي في باريس ان أغشّ في المتاحف ،وكنت على الأقل أعرف الفرق بين الاعجاب المقتسر والانفعالات الصادقة . وقد تعلمت أيضاً ان على من يود ان ينفذ إلى سرّ الأشياء ان يهب نفسه لها أولاً . وقد كان فضولي ، في العادة ، شرهاً . وكنت أحسبني امتلك الشيء بمجرد ان أعرفه ، وأعرفه بمجرد ان أطير فوقه . أما في القرية ، فقد

كان التـآلف مع ركن من أركانها يقتضيني أن ارود يوماً بعد يوم في الدروب الجوفـاء ، وان ابقى ساعات طويلة مسمّرة عند قدم شجرة : وإذ ذاك تمسي ادنى ارتجافة للنسيم ، وكلّ لون من الوان الخريف .

وقد كان يسوءني أن أعود إلى باريس . وكنت اخرج إلى الشرفة ، فلا أرى غير السقوف ، وتتقلص السماء إلى مكان هندسي ، ويكفّ النسيم عن أن يكون عطراً أو ملامسة ، ويمتزج بالفضاء العاري . ولم أكن اتجاوب مع ضجيج الشارع ، وكنت أبقى هناك ، فارغة القلب ، وفي عيني الدموع .

٥

وكنت إذا ما عدت إلى باريس أقع من جديد تحت سطوة الكبار . وكنت أمضي في قبول نظرتهم للعالم من غير ان انتقدها . وليس فـي الامكان تصور تعليم أشدّ تعصباً من التعليم الذي كنت أتلقاه . فالكتب المدرسية والمؤلفات والصفوف والمحادثات ، كل ذلك كان يلتقي عنده . ولم يُترك لي قط ان استمع ولو من بعيد إلى صوت جرس آخر .

وتعلّمت التاريخ في مثل الوداعة التي تعلّمت بها الجغرافيا ، من غير أنّ أشك في انه قابلٌ مثلها للمناقشة . وقد انفعلت ، وأنا صغيرة ، في متحف « غريفين » أمام منظر الشهداء وقد دُفعوا إلى الأسود ، وأمام وجه ماري أنطوانيت النبيل . وبدا لي الأباطرة الذين عذّبوا المسيحيين يجسّدون « الشر » أبشع تجسيد . على اني كنت أكثر اهتماماً بمصـير بلادي : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وكان هذا كله يثير في البيت أحاديث ومناقشات ، وكان أبي واصدقاؤه مجمعين على ان وجود أيـة دولة أجنبية يعتبر خطراً داهماً ، وان فرنسا تسير نحو الهلاك بسبب انها ضحية مثالية ولسون المجرمة ، وانها مهددة في مستقبلها بواقعية الألمان

والبولشفيك .. بل ان الحضارة كلها في طريق الانهيار . والحق ان أبي الذي كان بسبيل ان يأكل رأسماله كان يرصد البشرية كلها للدمار ، وكانت أمي توافقه على ذلك . فقد كان هناك الخطر الأحمر ،والخطر الأصفر ، وبعد حين من الزمن ستتدفق من تخوم الأرض ومن أحط طبقات المجتمع بربرية جديدة ... وكان أبي يتنبأ بهذه المصائب في حماسة مندفعة كانت تؤلمني : فان هذا المستقبل الذي كان يرسمه بهذه الالوان الفظيعة انما هو مستقبلي ، وقد كنت أحب الحياة ولم أكن أطيق أن تتحول غداً إلى انتحاب بلا أمل . وذات يوم ، بدلاً ان أدع لتلك الموجة من الكلام الكاسح ان تمرّ فوق رأسي ، اخترعت هذا الجواب فقلت لنفسي : « مهما يكن من أمر ، انهم رجال سيربحون » . وان من يسمع أبي يحسب أن هناك شياطين تستعد لتحطيم البشرية . ولكن لا : فقد كان هناك ، في المعسكرين ، رجال يتجابهون ، وقد فكرت في أن الأكثرية هي التي ستتغلب في آخر المطاف ، وسيؤلف المستاءون الأقلية ، وليست هناك كارثة في أن تنتقل السعادة من يد إلى أخرى .

وهكذا اكتشفت ضد اليأس مخرجاً لأني بحثت عنه بحمية .

ثم اني لم أكن اقرّ ان يكون واقع خام ، كالثروة مثلاً ، كافياً لتأسيس حق أو اعطاء ميزة . إن الانجيل يمتدح الفقر . وقد كنت أشدّ احتراماً للويز مني لعدد كبير من السيدات الثريّات . وكان يغيظني أن ترفض ابنة عمي مادلين انّ تحيّي الخبازين الذين كانوا يأتون صباحاً في العربة ليسلموها خبزها ، وكانت تقول : « يجب أن يبدأوني هم بالسلام ! »

لقد كنت اؤمن بمساواة البشر المطلقة . وبدأت أشعر بالظلم الذي يتعرض له البؤساء من الناس . وقد ذهبت يوماً ، بصحبة امي لزيارة « لويز » التي كانت تسكن مع زوجها في غرفة ضيقة بالطابق السادس

من احدى البنايات . وكانت لويز قد وضعت ذلك اليوم طفلها الأول الذي رأيناه فوق سرير صغير في تلك الغرفة التي كانت لويز تنام فيها وتطبخ وتأكل وتعيش مع رجل ضمن اربعة جدران . وقد شعرت بان الحياة هناك تشبه أن تكون احتضاراً بطيئاً . وعلمت بعد فترة قصيرة ان لويز فقدت ابنها ، فبكيت طوال ساعات : لقد كانت هي المرة الأولى التي أواجه فيها الشقاء . وجعلت أتمثل لويز في غرفتها دون ما فرح محرومة من ابنها ، محرومة من كل شيء ، وأخذت أقول في نفسي : « ان هذا الظلم فظيع ! » ولم أكن أفكر فقط بالطفل الذي مات ، بل بالغرفة الصغيرة في الطابق السادس . وقد جففت دموعي من غير ان اتهم المجتمع بشيء .

وكان اهتمامي بالقضايا البعيدة ، سياسية كانت أم اجتماعية ، دون اهتمامي بالمشكلات التي تعنيني : الأخلاق ، حياتي الداخلية ، علاقاتي بالله .

وقد بدأ تفكيري حول هذه الموضوعات .

٦

كانت الطبيعة تحدثني عن الله ، ولكنه كان يبدو لي دون شك غريباً على العالم الذي يضطرب فيه البشر . فكما أن البابا في داخل الفاتيكان ليس له ان يهتم بما يجري في الدنيا ، فان الله ، في لا نهاية السماء ، لا ينبغي له أن يهتم بتفاصيل المغامرات الأرضية . وكانت تقواي تتطهر من سنة إلى سنة فيما هي تقوى ، وكنت أحتقر تفاهات الأخلاق لصالح الصوفية . وكنت أصلي وأتأمل واحاول أن ينفعل قلبي بحضور الله . ولكن في الواقع بينما كنت أرتفع فكرياً إلى المعرفة يوماً بعد يوم ، لم أكن أشعر بأني أقترب من الله . وكنت أتمنى ان يتجلى لي الرب ،

أو أن تأخذني نشوة أو أن يحدث فيّ أو خارجاً عني شيء ما : ولكن لم يحدث شيء .

وكنت قد اعتدت منذ السابعة ان اعترف مرتين في الشهر أمام الاب مارتان ، وكنت أحدثه عن حالاتي النفسية ، واتهم نفسي بأني قد تناولت القربان من غير حماس ، وصلّيت من أطراف شفتي ، ونادراً ما فكرت بالله . وكان يجيب على هذه النقائص بعظة ذات أسلوب رفيع . ولكنه ذات يوم أخذ يحدثني بلهجة مألوفة ، بدلاً من أن يتقيد بطقوسه المعهودة !

— لقد بلغ سمعي ان صغيرتي « سيمون » قد تغيّرت ، فغدت غير مطيعة ، عفريتة ، تجيب حين يوبّخها أهلها ... ولا بدّ من الانتباه لهذه القضايا بعد الآن !

والتهبت وجنتاي ، فأخذت أنظر بذعر إلى الدجّال الذي كنت اعتبره طوال سنوات ممثل الإله : فاذا ثوبه الكهنوتي ليس إلاّ لباساً تنكّرياً ... وتركت كرسيّ الاعتراف ، ورأسي من نار ، عازمةً على ألاّ أعود اليه أبداً . وحين كنت أرى في الممر جبته السوداء ، بعد ذلك ، كان قلبي يخفق فأفرّ منه . ومنذ ذلك اليوم تمت القطيعة بيننا.

ولكن الله خرج من هذه المغامرة دون أن يُمسّ ، إذ اني رحت أفتّش عن كاهن آخر لا يفسد بالكلمات البشرية المدنّسة الرسالاتالتي ترد من فوق . وجرّبت كاهناً أحمر الشعر ، ثم جرّبت آخر أسمر نجحت في ان أجعله يهتمّ بحالتي الروحية ... ولكن تبيّن لي آخر الأمر انه لم يكن هناك انسان واحد يجسّد الله حقاً ، واني كنت وحدي تجاهه ، وانه بقي في أعماق قلبي حيرة وقلق : من عساه يكون ؟ وما الذي يريده تماماً ؟ وفي أي معسكر هو ؟

لم يكن أبي من المؤمنين ، وكان خير المفكرين يشاطرونه تشكّكه ، وإن الذين يقصدون الكنائس هم بالاجمال من النساء . وبدأت أشعر ان

من المفارقة التي تبعث على الاضطراب ان تكون الحقيقة من امتيازات النساء ، في حين ان الرجال ، من غير مناقشة ممكنة ، يفوقونهن . وفي الوقت ذاته ، كنت أفكّر بأنه ليس ثمّة بلاء أكبر من أن يفقد المرء إيمانه ، وكنت أحاول غالباً أن أتفادى هذا الخطر . ومع هذا ، فقد أخذت أثق بأن القضايا الدينية لا تقنع إلاّ المقتنعين !

وذات مساء ، كنت مرتفقة نافذتي في بيتنا بـ « مارينياك » ، كعادتي كل مساء . وكنت قد قضيت النهار كلّه وأنا آكل التفاح المحرّم وأقرأ ، في كتاب ممنوع لبلزاك ، قصة غريبة لرجل ولبوءة ، وقبل أن أنام ، جعلت أروي لنفسي حكايات عجيبة احسستني منها في حالات غريبة ، وقلت لنفسي : « تلك هي آثام » . وكان مستحيلاً عليّ أن أمضي إلى أبعد من ذلك في غشّ نفسي : فانالعصيانالمستمر الموصول ، والكذب ، والاحلام غير الطاهرة ، كل ذلك لم يكن من التصرفات المسلكية البريئة . وغمست يديّ في الماء ورحت استمع إلى خريره ، وأدركت أنّ شيئاً لم يكن يستطيع ان يصرفني عن المباهج الأرضية ، وقلت في نفسي : «لم أعد اومن بالله . » قلت ذلك من غير دهشة كبيرة ، وكان هذا بديهياً . فلو كنت قد آمنت به ، لما ارتضيت بهذه السهولة أن أجرحه . لقد كنت فكرت دائماً بأن هذه الدنيا لا قيمة لها إزاء قيمة الآخرة الخالدة . ولكن ها هي ذي تَزِن الآن ، ما دمت أحبّها ، وها هو الله فجأة ليس له وزن . ومعنى ذلك ان اسمه لم يعد يدلّ إلاّ على سراب . كانت الفكرة التي كوّنتها عنه قد صفَت منذ وقت طويل وارتقت حتى فقد كلّ وجه ، وكلّ صلةٍ حسّية بالأرض ، وحتى الوجود ذاته . لقد كان كماله ينفي حقيقة وجوده . ومن أجل ذلك ، لم أحسّ بالمفاجأة حين لمست غيابه من قلبي ومن السماء . وأنا لم أنكره لأتخلّص من مضايق لي ، بل على العكس ، فلقد لاحظت أنه لم يعد يتدخل في حياتي ، وخرجت من ذلك بأنه كفّ عن أن يوجد

بالنسبة لي .

وكان تشكّك أبي قد فتح لي الطريق ، فلم انغمر وحدي في مغامرة خطرة ، بل لقد أحسست عزاءً كبيراً في أن أجدني ، وقد تحرّرت من طفولتي ومن جنسي ، متفقة مع الافكار الحرة التي كنت أعجب بها .

على أن وجه العالم قد تغيّر تحت ناظري . فقد شعرت في الأيام التي تلت ، إذ كنت جالسة تحت شجر الصفصاف الفضي ، فراغ السماء ، وانتابني من ذلك الضيق . لقد كنت في الماضي أعيش وسط لوحةٍ حية اختار الله نفسه ألوانها وأضواءها ، وكان كل شيء يدمدم لمجده وعظمته . وفجأة ، صمت كل شيء . وأي صمت ! لقد كانت الأرض تدور في حيّز لا تنفذ منه أي عين ، ووسط الاثير الأعمى ، كنت وحدي ضائعة على سطحها العظيم : وحيدة . لقد فهمت للمرة الأولى معنى هذه الكلمة القطيعة . وحيدة : بلا شاهد ، ولا محدّث ولا من ألجأ اليه . إنّ نَفَسي في صدري، ودمي في عروقي ، وهذا الخليط في رأسي ، إن ذلك كله غير موجود بالنسبة لأحد . ونهضت وأخذت أعدو نحو الحديقة لأجلس بين أمي وعمتي مرغريت لشدّة حاجتي إلى أن اسمع الأصوات .

ولم أفكّر في أن اطلع ابي على ما في صدري ، ولو قد فعلت لرميته في ارتباك عظيم . وإذن ، فقد حملت سرّي وحدي ووجدته ثقيلاً ؛ وللمرة الأولى في حياتي أخذني الشعور بأنّ الخير لا ينسجم مع الحقيقة . ولم أستطع ان امتنع عن ان ارى نفسي بعيون الآخرين — أمي ، زازا ، رفيقاتي ، وحتى الراهبات — وعيون هذه الأخرى التي كنتها من قبل . وكنت قد عرفت في السنة الماضية في صف الفلسفة فتاة طويلة كانوا يتهامسون بأنها « غير مؤمنة » . وكانت تدرس جيداً ، ولا تتكلم كلاماً في غير محلّه . ولم يطردوها من المدرسة ، ولكني كنت

أشعر بلون من الرعب حين كنت ألمح في الممرات وجهها الذي كان يزيده إقلاقاً ان احدى عينيه كانت من الزجاج. وها قد أتى دوري لكي أحسّني عنزة جرباء. وكان ما يزيد في حالتي خطورة اني كنت أتخفّى: كنت أذهب إلى القداس، وأتناول القربان، وألتهم خبز الذبيحة من غير اكتراث، وكنت مع ذلك أعلم اني كنت في نظر المؤمنين ارتكب خطيئة مميتة. والحق اني كنت إذ أخفي جرمتي أضاعفها ولكن كيف لي أن اعترف بها؟ لو فعلت ذلك لاشاروا إلي بالاصابع، ولطردوني من الصف، ولخسرت صداقة زازا، ولثارت في قلب أمي فضيحة وأية فضيحة! لقد حُكم عليّ بأن أكذب، ولم يكن هذا بالكذب البسيط: لقد كان يلطّخ حياتي كلها، وكان يثقل عليّ أحياناً كأنه عاهة، ولا سيما إزاء زازا التي كنت معجبةً باستقامتها وصدقها. وغدوت من جديد ضحية سحر لم أنجح في طرده عني: لم أفعل شيئاً رديئاً، وكنت مع ذلك أحسّني مجرمة.

وكان عليّ ان ارد للأب «رولان» كتاباً دينياً كان قد أعارنيه. وحين دخلت عليه في الكنيسة، جثوت أمام كرسي الاعتراف وصارحته بأني ابتعدت منذ بضعة أشهر عن تناول القربان لأني فقدت ايماني. وحين رأى الأب الكتاب الذي بين يديّ، قاس المسافة التي سقطت من أعاليها، فأخذه العجب وتساءل بقسوة:

— أي خطيئة فظيعة قد ارتكبت؟

فاحتججت على ذلك، ولم يصدّقني ثم نصحني بأن أصلي كثيراً. وعزمت على ان أعيش منفيّة.

وقرأت في تلك الفترة رواية عكست لي صورة منفاي: «الطاحونة على الفليس» لجورج اليوت. وقد قرأتها بالانكليزية في بيتنا بمارينياك وأنا مضطجعة على العشب. وكانت بطلة الرواية سمراء تحب الطبيعة والقراءة والحياة، وكانت من التلقائية والصدق بحيث لم تكن لتراعي

المواضعات التي كان وسطها يحترمها ، ولكنها مع ذلك كانت تتأثر كثيراً بما كان يوجهه لها من عتاب أخوها الذي كانت تعبده . وهكذا كـانت « ماغي توليفر » مقسّمة مثلي بين الآخرين وبين نفسها . : ولقد عرفتُني فيها . والذي أثّر فيّ كثيراً صداقتها لشاب أحدب كان يعيرها الكتب ، وتمنيت وأنا اقرأ الرواية لو تتزوجه . ولكنها وقعت في حبّ شاب كان خطيباً لابنة عمها « لوسي » وما لبث « ستيفان » — وهو اسمه — ان استباح شرفها فعرض عليها الزواج ، ولكنها مع ذلك رفضت ان تتزوجه وفاءً لابنة عمها لوسي . ولا شك في أن القرية كانت تغفر مثل هذه الخيانة لو ان عاقبتها كانت زواجاً مشروعاً ، ولكنها لم تغفر لماغي انها ضحت بالمظاهر إرضاءً لصوت ضميرها . ولقد أنكر عملها حتى أخوها نفسه . ولم أكن اومن إلاّ بالحب — الصداقة ، وقد كنت أعتقد ان كتباً يتبادلها فتى وفتاة ويناقشانها معاً كانت تخلق بينهما صلات خالدة ، ولم أفهم تماماً سبب الانجذاب الذي كانت تحسّ به ماغي لستيفان. ومع ذلك ، فقد كان عليها ما دامت تحبّه الاّ تعدل عنه... وعندما انسحبت في الطاحونة القديمة بعد ان انكرها الجميع ونالوها بألسنتهم وتركوها ، احسستني احترق حناناً لها . وقد بكيت ساعات طويلة لموتها . لقد كان الآخرون يشجبون عملها لأنها كانت خيراً منهم جميعاً ، ولقد كنت أشبهها ، وبدأت ارى في اعتزالي علامة تميّز ، لا علامة عار . ولم أفكر في أن أموت بسبب ذلك . واتحدت بمؤلفة الكتاب عبر بطـلة روايتها : ذات يوم ، ستبلّل فتاة مراهقة ، فتاةٌ نسخة عني — ستبلّل بدموعها رواية اروي فيها قصتي الخاصة .

وكنت قد عزمت منذ وقت طويل على ان اكرّس حياتي للأعمـال الفكرية . وقد أدهشتني زازا حين صرّحت بصوت مثير :

— إن ولادة تسعة أولاد أنجبتهم أمي شيء يضاهي ولا ريب تأليف الكتب .

فأنا لم أكن أجد مجالاً للمقارنة بين هذين المصيرين . ان يكون للمرء اولاد ، يكون لهم بدورهم اولاد : إن ذلك ترديد فارغ لنغمة واحدة مملّة . أما العالم والفنان والكاتب والمفكر فقد كانوا يخلقون عالماً آخر ، بهيجاً مضيئاً ، لكل شيء فيه سبب لوجوده . وهناك كنت اودّ ان أقضي أيامي ، ولقد عزمت عزماً أكيداً ان اتخذ مكاني في ذلك العالم. فحين عدلت عن السماء ، توكّدت مطامحي الأرضية ، وكان لا بدّ من البروز . لقد كنت اتمدّد على الارض فأتأمل الاعشاب متماثلة ، كل عشبة منها غارقة في الغاب الصغير الذي كان يخفي عنها كل الأخريات. وقد كان هذا التكرير الذي لا نهاية له للجهل واللامبالاة يضاهي الموت؛ وإذ كنت ارفع رأسي إلى شجرة السنديان ، كنت اراها تسيطر على المنظر ، ولم يكن لها من شبيه . لسوف أكون مثلها .

ولماذا تراني اخترت الكتابة ؟ انني في صغري لم أحمل ثرثراتي الكتابية على محمل الجدّ قط . لقد كان همّي الحقيقي ان أعرف . وكان يروق لي أن احرّر وظائفي الفرنسية ولكن اولئك الراهبات كنّ يأخذن عليّ اسلوبي المتكلّف ، فلا أشعر اني « موهوبة » . على اني اذ بلغت الخامسة عشرة سألتني احدى صديقاتي ان أكتب على دفتر مذكراتها ما كنت أطمح اليه ، فكتبت بلا تردد « ان اكون مؤلفة مشهورة » ، وكنت صادقة في هذا التمني .

وكان السبب الاول في ذلك إعجابي الذي كنت أكنّه للأدباء ؛ لقد كان أبي يضعهم فوق العلماء والباحثين والمعلمين . وكنت مقتنعة أنا أيضاً بتفوقهم . فان أثر أي اختصاصي ، مهما كان اسمه معروفاً ، لا ينفتح إلاّ لعدد ضئيل . أما الكتب فقد كان الناس كلهم يقرأونها ، لأنها تمسّ الخيال والقلب ، وهي تكسب مؤلفها أوسع مجد في العالم .

ثم انني كنت دائماً ما أحبّ وسائل الاتصال . وقد ذكرت على دفتر صديقتي ان تسليتي المفضلة هي القراءة والحديث . وقد كنت ثرثارة ،

فكنت اروي أو أحاول ان اروي كل شيء يكون قد لفت نظري في أثناء النهار . وكنت أخشى الليل والنسيان ، وقد كان يمزّقني ان أترك للصمت ما كنت قد رأيته وأحسسته وأحببته . وقد كنت أتمنّى إذ يهزّني ضوء القمر ان يكون معي قلم وورق وان احسن استعمالها . وكنت في الخامسة عشرة احبّ المراسلات والمذكرات التي تجهد في إمساك الزمن. وكنت قد فهمت كذلك ان الروايات والقصص والحكايات ليست بالاشياء الغريبة عن الحياة ، بل هي تعبّر عنها على طريقتها .

ولئن كنت قد تمنيت في الماضي ان أكون معلّمة ، فلأني كنت أحلم بأن أكون أنا نفسي سببي وغايتي ، واني لأفكر الآن بأن الأدب سيتيح لي ان أحقق هذه الرغبة . فهو سيضمن لي خلوداً يعوّض عن الخلود الضائع . إنه لم يكن هناك بعدُ إلـه يحبّني ، ولكني سأحترق في قلوب ملايين . واني إذ اكتب كتاباً يتغذّى من قصتي ، فاني سوف أخلق نفسي من جديد وسأبرّر وجودي . وسوف أخدم البشرية في الوقت نفسه : واي هدية تقدّم لها أجمل من الكتب ؟ وكنت اهتمّ بنفسي وبالآخرين في وقت واحد . كنت ارتضي « تجسيدي » ولكني لم أكن اريد ان أنصرف عن « الكوني » ، وكان هذا المشروع يوفق بين كل شيء ، وكان يدغدغ جميع الاماني التي كانت قد ترعرعت في نفسي طوال هذه الاعوام الخمسة عشر .

٧

كنت دائماً ما اعطي الحبّ قيمة رفيعة . وإذ كنت في الثالثة عشرة قرأت في المجلة الاسبوعية « الميلاد » التي كنت أتلقاها بعد مجلة « النجمة الميلادية » رواية صغيرة بعنوان « نينون روز » ، وكانت تحكي ان الفتاة التقية « نينون » كانت تحبّ « اندريه » الذي كان يبادلها الحب .ولكن ابنة

عمها تبريز صارحتها يوماً وهي تبكي وشعرها الجميل مسترسل فوق قميصها الليلي بأنها كانت تشتعل حباً لأندريه . وضحّت نينون بنفسها ، فرفضت أن تمنح يدها لأندريه الذي أغتاظ فتزوج تبريز . وكوفئت نينون فتزوجت فتى آخر ذا مزايا عظيمة اسمه برنارد . وقد أثارتني هذه القصة . لقد كان من حق بطل رواية ما ان يخطئ في اختيار شريكته أو في تقدير عواطفه الشخصية . وقد يمكن لحب حقيقي ان يعقب حباً مزيفاً أو غير كامل . ولكن هذا الحب الحقيقي يغدو غير قابل لأن يستبدل به حبّ آخر بمجرد ان يتفتح في قلب ما . وليس ثمة كرم أو كفر بالذات يسمحان برفض هذا الحب الحقيقي . ثم اني كنت قد قرأت مع زازا رواية أخرى هزّتنا بعنوان « دانيال كورتيس » ومؤلفها « فوغازارو » . وبطل الرواية دانيال كان رجلاً سياسياً هاماً وكاثوليكياً، وكانت المرأة التي يحبها وتحبه متزوجة ، وكان بينهما تفاهم عجيب، وكان قلباهما يخفقان خفقة واحدة ، وافكارهما منسجمة كل الانسجام ، فكأنما خُلق أحدهما للآخر . ومع ذلك فقد كانت مجرد صداقة افلاطونية جديرة بان تثير الأقاويل وتهدم مستقبل دانيال وتسيء إلى سمعة القضية التي كان يخدمها . وكان من أثر ذلك ان تعاهدا على الحب « حتى الموت وما بعد الموت » وافترقا إلى الابد .

وقد ثار غضبي لذلك وتمزّقت نفسي .. لقد كان المستقبل والقضية شيئاً مجرداً . وقد كنت أجد من السخف والاجرام تفضيلهما على السعادة، على الحياة . و لا شك في ان صداقتي لزازا هي التي تجعلني أعلّق مثل هذه الاهمية على اتحاد كائنين ، وكنت افكر بانهما إذ يكتشفان العالم معاً ويستسلم احدهما للآخر إنما كانا يمتلكان العالم بصورة ممتازة . ثم ان كلاً منهما كان يجد السبب النهائي لوجوده في حاجة الآخر إلى هذا الوجود . وقد كان التراجع عن الحب يبدو لي عملاً جنونياً لا يعادله الا أن يهمل المرء خلاصه حين يؤمن بالخلود .

ولم أكن أتصور ان يفوّت الانسان أي خير من خيرات هذا العالم : وحين انصرفت عن الدير ، أخذت أحلم بالحب لصالحي . وجعلت أفكر بالزواج من غير نفور . على ان فكرة الامومة ظلّت غريبة عليّ ، وكان يدهشني ان ارى زازا تأخذها الحماسة حين ترى المواليد في لفائفهم : ولكني كففت عن أن ارى من غير المعقول ان أعيش بالقرب من رجل اخترته أنا نفسي . إن البيت الابوي لم يكن سجناً ، ولوكان عليّ ان أغادره فوراً لأخذني الرعب ، ولكني انقطعت عن اعتبار رحيلي المنتظر عنه فطاماً قاسياً . لقد كنت اختنق بعض الشيء في محيط العائلة . من أجل هذا تأثرت بالغ التأثر من فيلم حضرته يوماً ، وهو مقتبس من رواية « البيت العائلي » لمؤلفها « باتاي » : كانت البطلة ضجرة من حياتها بين أولادها وبين زوج متجهم عبوس كالسيد « مابيل » . وكان في مرفقيها سلسلة ثقيلة ترمز إلى عبوديتها . واتى يوماً شاب جميل ينتزعها من بيتها ، ثم رأيناها ترتع عارية الذراعين عبر البراري ، ذراعها في ذراع حبيبها ، والريح تتطاير بشعرها . وكانا يتراشقان بالتبن ، وعيونهما ضاحكة . فأكاد أشمّ رائحة التبن : ولم يسبق لي ان استشعرت أو تأملت أو تصورت مثل هذا المرح الطاغي . ولا أدري اية حوادث طارئة أعادت إلى البيت العائلي مخلوقة نادمة استقبلها زوجها بكل لطف؛ ولقد رأت ، بعد أن تابت ، ان سلسلتها النحاسية تتبدل اكليلاً من الزهر . وهذه العجيبة تركتني متشككة . فلقد ظللت مبهورة باكتشاف لذائذ لم أكن أعرف لها اسماً ، ولكنها ستغمرني يوماً ولا شك : لقد كانت هي الحرية وكان هو الفرح . كان استعباد الكبار يخيفني ، ولم يكن يحدث لهم شيء غير منتظر ، وكانوا خاضعين لحياة قُرّر لهم فيها كل شيء مسبّقاً ، من غير ان يقرر احدهم شيئاً . ولقد جروئت بطلة « باتاي » على القيام بعمل ، والتمعت الشمس بعد ذلك . وحين اردّ نظري إلى سنوات نضجي السابقة ، ارى ان صورة رجل وامرأة يتسليان

في حقل من الحقول كانت ترعشني املاً .

وحين بلغت الخامسة عشرة ، أخذت في العطلة الصيفية اتردّد على غابة بولونيا مع زازا وبعض الرفيقات . وقد رأيت يوماً في احد الممرات شاباً وفتاة تمشيان أمامي ، وكان الشاب يضغط بيده قليلاً على كتف الفتاة . وقلت في نفسي فجأة ، وانا متأثرة ، بأن لا بدّ ان يكون لذيذاً ان يتقدّم الانسان عبر الحياة وهو يشعر ان على كتفه يداً مألوفة حتى لا يكاد يشعر بثقلها ، وحاضرة ابداً حتى لا يبقى للوحدة معها وجود . « كائنان متحدان » : كنت أحلم على هاتين الكلمتين . ان اختي القريبة جداً مني ، وزازا البعيدة جداً عني لم تشعراني بمعناهما الحقيقي . وقد حدث لي مراراً بعد ذلك ، حين كنت اقرأ في المكتب ، ان رفعت رأسي وتساءلت : « اتراني سألتقي برجل قد خُلق لي ؟ » ولم تكن مطالعاتي قد صوّرت لي أي نموذج لهذا الرجل ، ولم ارسم لزوجي القادم أي خط محدّد . على اني كوّنت فكرة واضحة عما عساها تكون العلاقة ما بيننا : سأشعر له باعجاب شديد . وفي هذا الميدان ، كما هو الشأن في الميادين الأخرى ، كنت عطشى إلى الحاجة فينبغي للشخص المختار ان يفرض نفسه عليّ ، كما فرضت زازا نفسها عليّ بطريقة بديهية . والاّ فسوف اتساءل : لماذا يكون هو ، وليس سواه ؟ وقد كان هذا الشك غير منسجم مع الحب الحقيقي . انني سوف احب ، يوم يستولي عليّ رجل بذكائه وثقافته وسلطانه .

ولم تكن زازا من رأيي في هذا الموضوع . فقد كان الحب يتطلب في رأيها أيضاً الاحترام والتفاهم ، ولكن المهم أن يكون ذا حساسية وخيال ، سواء أكان بعد ذلك فناناً ام شاعراً ام قليل الثقافة والذكاء. فاعترضت على ذلك بقولي :

— ولكنهما في هذه الحالة لا يستطيعان ان يتفاهما حول كل شيء ؟ فان رساماً أو موسيقياً قد لا يفهمني كليّة ، وسوف يظل آنذاك مغلقاً

عني جزئياً . وأنا اودّ ان يكون كل شيء مشتركاً بين الزوج والزوجة، وعلى كل منهما ان يقوم إزاء الآخر بدور الشاهد الحقيقي ،هذا الدور الذي كنت في الماضي أعزوه لله . وهـذا ينفي ان يحب المرء انساناً « مختلفاً » : انني لن أتزوج الا إذا التقيت شبيهاً لي ، نموذجاً عني أكمل مني .

لماذا أطلبه أن يكون متفوقاً عليّ ؟ لا أحسبني أبحث فيه عن بديل لأبي ، فقد كنت حريصة على استقلالي . ولسوف أمارس مهنة ، سأكتب ، وستكون لي حياتي الشخصية . ولم أكن اتصورني رفيقة رجل : بل سنكون رفيقين . ومع ذلك ، فقد كانت الفكرة التي تصورتها عن تزاوجنا متأثرة بالمشاعر التي حملتها لأبي . إن تربيتي وثقافتي ومفهومي للمجتمع كما كان — إن كل ذلك كان يقنعني بأن النساء ينتمين إلى طبقة دون طبقة الرجال . وكانت زازا تشكّ في ذلك لأنها كانت تؤثر أمها على أبيها ، أما أنا ، فقد أيّد النفوذ الابوي رأيي. فاذا كان الرجل ، وهو عضو من فئة ممتازة تتمتع منذ البدء بسبق كبير ، لا يفوقني في القيمة ، فسوف أحكم بأنه سيكون نسبياً دوني ، فلكي أعترف بأنه يساويني ، فينبغي ان يتجاوزني .

ومن جهة أخرى كنت أفكر بنفسي من الداخل ، كما لو كنت افكر بواحد يتكوّن ، وكنت أطمع بأن اتطوّر وأتقدّم إلى ما لا نهاية ، أما الرجل المختار ، فقد كنت أراه من الخارج على أنه شخص ناجز مكتمل . ومن أجل أن يبقى دائماً على مستواي ، فقد كنت أضمن له منذ البدء كمالات لم تكن موجودة بالنسبة لي إلاّ في حيّز الامل . لقد كان بالجملة نموذج ما كنت اودّ أن أصبحه : ولهذا كان متفوقاً عليّ .

ثم اني كنت أهتمّ بألاّ يفصلني عنه مدى أوسع من اللزوم ، فاني لن أقبل ان تكون فكرته وأعماله مستغلقة عليّ ، فان ذلك سيحملني على أن أتألّم من تقصيري . والصورة التي تحضرني حول ذلك هي

صورة عملية تسلّق يُساعدني شريكي الذي هو أقوى مني وأبرع على ان ارتفع فيها من درجة إلى درجة . لقد كنت أودّ ان اتلقّى ، لا أن أعطي . ولو قد وجب عليّ ان اردف خلفي رجلاً اجرّه ، فلا ريب في اني سأهلك من نفاد الصبر ، وفي هذه الحالة اوثر العزوبية على الزواج . إن على الحياة المشتركة ان تدفع مشروعي الأساسي ، وهو ان امتلك العالم ، لا أن تعرقله . وهكذا لن يكون الرجل المرصود دوني ولا مختلفاً عني ولا يفوقني بحيث أستشعر من تفوقه الإهانة ، وانما هو يضمن حياتي ، من غير ان انتزع سيادته .

وقد وجّهت هذه الصورة احلامي طوال سنتين أو ثلاث . وكنت أعلّق أهمية ما على هذه الأحلام ، وقد سألت اختي يوماً بشيء من القلق : هل كنت نهائياً قبيحة ؟ ام انه كان لي نصيب بان أصبح امرأة تملك من الجمال ما يكفي لأن تُحَبّ ؟ ولم تفهم « بوبيت » سؤالي ، وهي التي تعوّدت أن تسمع ابي يقول عني انني رجل . فقد كان حسبها انها تحبني ، وان زازا تحبني ، فعلامَ أقلق ؟ والحقيقة انني كنت اعذّب نفسي باعتدال ، فقد بقيت دروسي والأدب والشؤون التي تتعلق بي هي مركز همومي . وقد كنت اقل انشغالاً بمصيري كفتاة كبيرة مني بمستقبلي المباشر .

وكنت في الخامسة عشرة والنصف حين اصطحبت أهلي لقضاء عطلة ١٤ تموز في « شاتوفيلان » . وكانت العمة أليس قد ماتت ، فنزلنا في بيت العمة « جيرمين » والدة « تيتيت » و « جاك » . وكان جاك في باريس يقدم الامتحان الشفوي لشهادة البكالوريا . وكنت احب « تيتيت » كثيراً وكانت مشرقة بالنضارة ، وكان لها شفتان جميلتان ريانتان ، وكان يسهل على الانسان ان يحدس بخفق دمها في جسدها . وكانت قد خُطبت لصديق من أصدقاء طفولتها ، وهو شاب ساحر ذو أهداب طويلة ، وكانت تنتظر الزواج بنفاد صبر لم تكن لتخفيه . وكانت بعض العمّات يتهامسن

بأنها لم تكن رصينة في لقائها بخطيبها . وقد ذهبنا نحن الاثنتين ، عشية وصولنا ، إلى الحديقة المجاورة للبيت ، فجلسنا على مقعد حجري صامتتين : والحق انه لم يكن لدينا شيء كثير نقوله . ثم سألتني تيتيت بفضول :

— أتكفيك حقاً دروسك ؟ وهل انت سعيدة بهذا الشكل ؟ اولا تتمنين ابداً شيئاً آخر ؟

فهززت رأسي وقلت :

— هذا يكفيني .

وكان هذا صحيحاً ، ففي نهاية ذلك العام الدراسي لم أكن أنظر إلى أبعد من السنة القادمة وإلى شهادة البكالوريا التي ينبغي ان أفوز بها . وتنهّدت تيتيت وسقطت من جديد في أحلام ، أحلام الفتاة المخطوبة التي كنت أحكم بأنها ، أحلام ساذجة بعض الشيء ، بالرغم من حبّي لها . ووصل جاك في اليوم التالي وهو يشعّ سعادة ورضا ، فأخبرنا بأنه قد نجح . وصحبني إلى ملعب التنس وعرض عليّ ان نتبادل الكرة بعض الوقت ، فهزمني واعتذر بأنه استخدمني ليجرّب قوته في اللعبة . وكنت أعلم اني لا أثير اهتمامه كثيراً . وكنت قد سمعته يتحدث بلهجة احترام عن الفتيات اللواتي يلعبن التنس ويخرجن ويرقصن ويلبسن الثياب الجميلة ، فيما كنّ يُعددن شهادة الليسانس . وقد شعرت إذ ذاك بان احتقاره ينسحب عليّ ، ولكني لم أشكُ يوماً من تقصيري في تلك اللعبة ، ولم أخجل من ثوبي المتواضع . فقد كنت خيراً من التلميذات الناعمات اللواتي كان جاك يفضلهنّ عليّ ، وسيأتي يوم يقتنع فيه هو نفسه بذلك .

كنت خارجة من سنّ العقوق . وبدل ان اتحسّر على طفولتي ، اتجهت نحو المستقبل ، الذي كان لا يزال من البعد بحيث لم يكن يخيفني ، ومع ذلك فقد كان يبهرني .

٨

في أواخر أيلول ، دُعيت أنا وأختي إلى « مولان » حيث كان لاسرة أفضل صديقة لها بيت ، وكانت هذه الصديقة ، واسمها « آن ماري جاندرون » تنتمي إلى اسرة عديدة الافراد ، غنية ومنسجمة ، بحيث لا ينشب فيها يوماً نزاع ، ولا يرتفع صوت ، وانما تشيع البسمات والرضى على كل الوجوه . ووجدتني في جنّة نسيت حتى ذكراها . وقد أخذنا الصبيان في نزهة بالقارب في « السين » ، كما حملتنا كبرى الفتيات ، وعمرها عشرون سنة ، إلى « فرنون » بالسيارة .وقد تأثرت لسحر المناظر ولكني كنت أكثر تأثراً بجمال « كلوتيلد » التي دعتني في المساء إلى غرفتها حيث سمرنا إلى ساعة متأخرة . وكانت قد فازت بشهادتيْ البكالوريا ، وكانت تطالع قليلاً وتتعلّم العزف على البيانو . وقد حدّثتني عن حبها للموسيقى ولأسرتها . وكان درجها ممتلئاً بالذكريات : رزم الرسائل والدفاتر – وهي دون ريب مذكراتها – وبرامج الحفلات والصور ... وحسدتها على ان تمتلك ماضياً غنياً كهذا . وأعارتني بعض الكتب ، وكانت تنظر إليّ على قدم المساواة وتقدّم لي النصائح كأخت كبيرة . وقد كلفت بها ، ولكني لم أكن أقدرها كما أقدر زازا ،وانما كانت توحي لي صورة جذّابة للفتاة التي سأكونها غداً . وحين عدنا إلى البيت ، كانت هي التي اوصلتنا بالسيارة . وقبل ان تغلق الباب خلفها ،وقعت حادثة عندنا : لقد نسينا في « مولان » فرشاة اسنان ، فاغتاظت أمي وأخذت تصيح . وبدا لي اني لن أطيق هذا الجو الذي عدت اليه بعد هذه الايام الصافية التي قضيناها هناك . وأسندت رأسي إلى الطاولة وأخذت أبكي ، فقلّدتني اختي ... وزاد غيظ امي وابي فقالا :

– شيء جميل ان تنخرطا في البكاء فور وصولكما !

والحق ان جميع الدموع التي تجمعت في مآقيّ طوال أشهر وأسابيع

بسبب التوبيخ والعقاب والصراخ ، كانت آنذاك تخنقني . ولم أعلم إذا كانت أمي أدركت اني بدأت اتملّص من سلطانها ، ولكني كنت أثير حنقها فتغضب مني ، ولهذا وجدت في « كلوتيلد » اختاً كبيرة تعزّيني ، فأخذت أزورها كلما سنحت لي الفرصة. كنت مأخوذة بتسريحة شعرها ، وديكور غرفتها الأنيقة ولطفها واستقلالها . وحين كانت تصحبني إلى بعض الحفلات ، كان يبهرني ان تستقل سيارة اجرة — وكان هذا في نظري منتهى البذخ — وقد دهشت زازا من حديثي عن « كلوتيلد » فقد كانت العادة تقضي بأن لا تعاشر الفتاة الا من كانت في مثل سنها؛ وحدث ان كنت آخذ الشاي يوماً في بيت « كلوتيلد » مع عدد من الفتيات « الكبيرات » ، فأحسستني في غير وسطي ، وخيبت الأحـاديث ظني . ثم ان كلوتيلد كانت شديدة التقوى ، فلم تكن تستطيع أن تكون لي مرشدة ، أنا التي فقدت الايمان . وحدست بأنها كانت تراني مـن جهتها أصغر من ان تعاشرني طويلاً . فكان ان باعدت ما بين لقاءاتنا ، ولم ألحّ في ذلك . ولم تمض أسابيع حتى انقطعنا عن اللقاء . وبعـد وقت قصير ، عقدَتْ زواجاً « مدبّراً » ..

وجعلت بعد ذلك أعمل بنشاط لم أعرفه من قبل .وكان يثير حماستي قرب الامتحانات وأملي في أن أصبح طالبة بكالوريا . وكان وجهي يتّسق وينصلح ، ولم يعد جسمي يزعجني ،وأخذت اسراري يخفّ عليّ حملها ، وكفّت صداقتي لزازا عن أن تؤلمني . وكنت قد استعدت ثقتي بنفسي ، ومن جهة أخرى تغيّرت زازا ، فأصبحت حالمة ، بعد أن كانت ساخرة ، وبدأت تحبّ « موسيه » و « شوبان » وظلّت تأخذ على وسطها فرّيسيته ، ولكن من غير ان تحكم على البشرية كلها . وهكذا وفّرت عليّ سخرياتها .

وكانت زازا تروي لي كل شيء عن اسرتها وبيتها . وكانت اختها الكبيرة تعيش في انتظار من يتزوجها ، وفي هذه الاثناء كانت تطبخ وترقص

وتساعد والدها واخواتها . وكانت أمها تجرّها معها في زياراتها . وقد روت لي زازا ان احدى عمّاتها كانت تتحدث دائماً عن نظرية « ضربة الحب المقدسة » : فحين يتبادل الخطيبان امام الكاهن كلمة « نعم » التي توحّدهما ، تهبط عليهما الرحمة ويتحابان . ولكن هذه الفكرة كانت تغيظ زازا ، وقد صرّحت يوماً بأنها لا ترى فرقاً بين امرأة تتزوج زواج مصلحة وبين بغيّ . وكانوا قد علّموها أنّ على المرأة المسيحية ان تحترم جسمها : وهي لا تحترمه إذا استسلمت من غير حب ، بدافع من مال أو من استنساب . وقد أدهشتني جرأتها ، فكأنها كانت تستشعر في جسمها نفسه خزي هذه التجارة . أما أنا ، فلم يكن الموضوع وارداً بالنسبة لي : فسوف أكسب حياتي ، وسأصبح حرّة . ولكن كان لا بدّ في وسط زازا من أن تتزوج الفتاة أو تدخل الدير ، وكان يقال هناك « إن العزوبية ليست رسالة » . وقد بدأت هي تخشى المستقبل، ولعل هذا كان سبب سهدها في الليل . وكانت غالباً ما تنهض في الليل وتغتسل بماء الكولونيا من رأسها إلى أخمص قدميها ، وكانت تبتلع في الصباح مزيجاً من القهوة والخمر الابيض لتمتلك الشجاعة على مواجهة النهار . وحين كانت تروي لي هذه المبالغات، كنت احدس باني لم أكن أدرك من شؤونها أشياء كثيرة . ولكنني كنت أشجّعها على مقاومتها ، وكانت تسرّ بذلك : لقد كنت حليفتها الوحيدة . كنا ننفر معاً من أشياء عديدة ، وكانت لنا رغبة مشتركة في السعادة .

وقد ساعدني تفاهمي مع زازا وتقديرها لي على ان أتحرّر من الكبار وان اراني بعيني نفسي . وفي أثناء الأسابيع التي سبقت البكالوريا ، عرفت مباهج لم تكدّر بشيء . فقد سمحت لي أمي بان أقصد حديقة اللكسمبورغ لأدرس فيها ، وهناك كانت تستخفّ بي نشوة غريبة لم أكد أعرفها من قبل . وقد سمحت لي أمي أيضاً بأن أسهر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بينما يكون أبي في سهرة لدى بعض أصدقائه ،

وتكون هي وأختي نائمتين ، فكنت أظل وحدي في المكتب . وكنت أنحني على النافذة فيحمل لي النسيم نفحات من عطر الحشائش الخضراء. وكانت هناك ، في البعيد ، نوافذ مشعّة . وكنت أحياناً ما أتناول منظار أبي وأترصّد به حيوات مجهولة هناك ، مسرورة بأن أرى من بعيد هذا المسرح من الظلال السوداء ، وسط غرفة مضاءة في الليل . وكان نظري يتيه من واجهة إلى واجهة فأقول لنفسي ، وأنا منفعلة بدفء المساء « سوف أعيش قريباً كما اريد » .

وحين قصدت السوربون لأجري فيه امتحاني أدركت اني أواجه حقيقة العالم وأهرب من معهد « ديزير » .وقد نجحت في الامتحان بدرجة « جيدة » ففرح أهلي كثيراً بذلك . وكان جاك قد قال يوماً : « يجب أن يفوز الطالب بدرجة « جيدة » او لا يفوز بأية درجة على الاطلاق» وقد هنأني بحرارة ، وقد نجحت زازا كذلك .

وأرسلت لي كلوتيلد ومرغريت رسالتين ودودتين ،وقد أفسدت عليّ أمي بعض فرحتي حين حملتهما إليّ مفضوضتين وقرأت عليّ محتواهما بحرارة ، ولكن العادة كانت قد استقرّت بصورة لم أفكّر معها بأن أحتجّ . وذهبنا يوماً في نزهة إلى « روان » فانقضى بعد الظهر في زيارة الكنائس ، وظللت طوال الوقت صامتة ..

كنت أجد عزائي في درس الفلسفة بعد ذلك . وما كان يجذبني في الفلسفة خصوصاً هو ما كنت أفكر به من انها تمضي مستقيمة إلى الجوهري . ولم أمِل يوماً إلى التفصيليات ، وكنت أدرك المعنى العام للاشياء أكثر مما أدرك تفرّداتها ، وكنت أفضّل الفهم على النظر ، وقد تمنيت ابداً لو اعرف « كل شيء » ، ولسوف تتيح لي الفلسفة ان اروي هذه الرغبة ، لأنها تقصد كليّة الحقيقة ، فتقيم فيها وتكشف لي نظاماً وسبباً وضرورة ، بدلاً من دوامة من الأحداث والقوانين الاعتباطية : وقد بدت لي العلوم والأدب وجميع الانظمة الاخرى اقرباء فقراء

للفلسفة .

على اننا لم نتعلم شيئاً كثيراً كل يوم بيومه . ولكنا كنا نتفادى الضجر بالحرارة والحماسة اللتين كانتا تتخللان مناقشاتنا ، أنا وزازا . وقد قامت مناقشة عنيفة حول الحب الذي يسمى افلاطونياً وحول الحب الآخر الذي لم يكن له اسم .

كانت حياتي كطالبة توشك على الانتهاء ، وكان شيء آخر يبدأ ، ولكن ما هو على التحقيق ؟ لقد كنت أخشى ذلك الحظّ من الاعتباط الذي يحتمله كل اختيار . وكان أبي يريد لي عملاً هادئاً مثمراً ويرصدني لوظيفة حكومية تؤمن لي راتباً معيناً . ونصحه أحدهم بأن اشتغل أمينة مكتبة من المكتبات . أما ما كان يروق لي فهو أن أتابع دراستي الفلسفية فأصبح دكتورة كهذه التي رأيت يوماً صورتها في جريدة بعد فوزها بشهادة الدكتوراه في الفلسفة ، وكانت النساء اللواتي يحملن مثل هذه الشهادة يعدون على الاصابع ، وكم كنت أودّ لو أكون من هؤلاء الرائدات . وقد كانت المهنة الوحيدة التي تفتحها لي هذه الشهادات هي التعليم ، ولم أكن اعارض ذلك . وفي تموز التالي تقدمت لشهادة الفلسفة ونجحت فيها فاستولت عليّ السعادة لانتهائي من معهد « ديزير » . ولكن حدث بعد يومين أو ثلاثة ان وجدتني وحيدة في المنزل . فأخذني ضيق غريب . وظللت مزروعة في الغرفة ، ضائعة كما لو انني نقلت إلى كوكب آخر : بلا عائلة ولا صديقات ولا علاقات ولا أمل . لقد مات قلبي وأصبح العالم فارغاً . اترى ممكناً ان يمتلئ هذا الفراغ يوماً ؟ ثم عاد الزمن إلى جريانه .

٩

ظللت فتاة بريئة سليمة الطوية بالرغم من مطالعاتي الكثيرة . فقد

كنت في السادسة عشرة حين صحبتنا امرأة عمي أنا وأختي إلى قاعة « بلايل » لمشاهدة فيلم من أفلام الرحلات . وكانت جميع المقاعد مشغولة ، فظللنا واقفين في الرواق . وما لبثت ان شعرت مندهشة بأيد تجسّني عبر معطفي الصوفي ، فحسبت انهم يحاولون ان يسرقوا محفظتي فشددتها تحت ذراعي ، ولكن الأيدي استمرت في معالجتي بصورة مزعجة . ولم أدر ما أفعل ولا ما أقول ، فظللت جامدة لا أتحرّك، حتى إذا انتهى الفيلم ، رأيت رجلاً يضحك وهو يومئ إليّ مشيراً إلى صديق له أخذ هو الآخر يضحك . كانا يسخران مني : ولكن لماذا ؟ انني لم أفهم شيئاً من ذلك .

وبعد ذلك بأيام كلفني احدهم ، ولم أعد أذكر من هو ، بأن اشتري له قطعة من مكتبة قريبة من كنيسة سان سولبيس . واتى إلى خدمتي في المكتبة شاب أشقر خجول يرتدي ثوباً طويلاً أسود . وتوجه إلى داخل المكتبة وهو يشير إليّ ان أتبعه . وحين كنت قريبة منه ، فتح ثوبه كاشفاً عن شيء وردي اللون ، ولم يكن وجهه يعبّر عن شيء ، وقد ظللت لحظة مشدوهة ، ثم استدرت على عقبيّ ومضيت . وقد ابرمتني حركته واعطتني الشعور بان من الممكن ان تحدث أشياء غريبة على غير ما رغبة من الانسان . وحين كنت اجدني وحيدة بعد ذلك في حانوت أو عند محطة مترو ، كنت أشعر بشيء من الخوف .

وفي مطلع السنة التي درست فيها الفلسفة ، كانت السيدة « مابيل » قد اقنعت أمي بأن آخذ دروساً في الرقص . فكنت التقي بزازا ، مرة كل أسبوع ، في صالة كان بعض الفتيات والشبان يتدربون فيها على الرقص بادارة سيدة ناضجة . وكنت ارتدي في تلك الايام ثوباً ازرق من « الجرسي » الحريري كانت قد وهبته لي ابنة عمي « آني » وكان يتفق وجسمي بالمصادفة . وكانت كل زينة محظورة عليّ ، ولم يكن في الاسرة كلها الا ابنة عمي مادلين تخالف عن هذا الأمر . فكانت تمسح وجهها

بالمسحوق الابيض ، ثم تنكر انها فعلت حتى بلغت الثامنة عشرة ،فلم يعد من همها أن تنكر ذلك . اما أنا ، فلم أكن ازين وجهي ، وعلى هذا النحو كنت أصل إلى دروس الرقص ، ملتمعة الوجنتين ، كالحة الشعر . ولم أكن أعرف ان أعمل شيئاً بجسمي ، حتى ولا أن أسبح أو أستقلّ الدراجة . على اني بدأت أكره دروس الرقص هذه لسبب آخر . فحين كان الفارس الذي يراقصني يضمني بين ذراعيه ويشدني إلى صدره كنت أستشعر عاطفة غريبة تشبه دواراً في المعدة ولم اكن لأنساه بسهولة . فاني كنت اذ أعود إلى البيت ، ارتمي على المقعد الجلدي ، وقد أذهلني فتور كان يمنحني الرغبة في البكاء . وقد تعللت بدروسي لأقطع هذه التمارين بعد قليل .

وكانت زازا أكثر وعياً مني ، وقد قالت لي مرة :

– حين أفكر بأن امهاتنا ينظرن الينا نرقص بكل هدوء في أرواحهن فاني ارثي لبراءتهن !

وكانت تجادل اختها ليلي أو بنات عمها وتقول لهنّ :

– اوه ! لا تروي لي اننا اذا رقصنا فيما بيننا او مع اشقائنا فاننا سنتسلى بالدرجة نفسها !

وحسبت انها تربط بين لذة الرقص ولذة أخرى كانت مجهولة عندي ، هي لذة المداعبة الغزلية . لقد استشعر جهلي ، وانا في الثانية عشرة ، الرغبة والدعابة . وإذ بلغت السابعة عشرة ، وأصبحت أكثر معرفة نظرياً ، لم أعد اعرف حتى ما هو الاضطراب الجنسي .

لقد كانت « الجنسية » تخيفني . وكانت فتاة واحدة ، هي تيتيت ، قد جعلتني أفكر بان بالامكان ان يعيش المرء الحب الجسدي بصورة طبيعية ، وفي الفرح . لم يكن جسمها المتفتح يعرف الخجل ، وحين كانت تتحدث عن عرسها كانت الشهوة التي تلمع في عينيها تزيدها جمالاً . وكانت الخالة سيمون تلمّح بأنها قد « تجاوزت الحد » في علاقتها مع خطيبها ،

غير ان أمي كانت تدافع عنها . أما أنا فكنت أرى أن لا فائدة من هذا النقاش ، فان عناق هذين الزوجين الجميلين ، سواء كانا خطيبين أو زوجين ، لم يكن ليصدمني : فيكفي أن أحدهما كان يحب الآخر . غير ان هذه التجربة الوحيدة لم تكن كافية لتحطيم أصنام التقاليد التي كانت منصوبة حولي . فانا لم أذهب الى البحر قط ، حتى أن العري كان يمتزج في نظري بالفجور ... وأذكر أني حين كنت في صف الفلسفة ، أتت « مرغريت دوتيريكور » تبلغ الراهبة في معهد « ديزير » انها ستتزوج عما قريب شريك والدها ، وهو رجل يكبرها كثيراً في السن ، ولكنه غني وذو مركز ، وهي تعرفه منذ صغرها . وقد هنأها الجميع وكانت تشعّ من السعادة . أما أنا ، فقد انفجرت في رأسي « كلمة » زواج انفجاراً ... فكيف كان لي أن أطابق صورة هذه الآنسة الرصينة ذات القبعة والبسمات الرزينة على صورة جسد وردي ناعم ينام بين ذراعي رجل ؟ وأنا لم يبلغ بي التصوّر أن أعرّي مرغريت : ولكني تخيلت جسدها يُمنح ، وهو تحت قميصها الطويل وشعرها المنسرح ، وقد اعتبرت هذا الفجور من قبيل الجنون . فاما ان تكون الرغبة الجنسية أزمة جنون قصيرة ، وإما ان تكون مرغريت لا تتلاءم مع الفتاة الرصينة التي ربيت تربية رفيعة وكانت وصيفتها تواكبها كيف اتجهت . لقد كانت الظواهر تخدعني ، وكان العالم الذي لقنوني اياه مغشوشاً كلّه ومزيفاً . كانت مرغريت الحقيقة تلبس قبعة وقفازين بكل عناد . أما حين كنت أتصورها نصف عارية ، معرّضة لعيني رجل ، كنت أحسّني محمولة في ريح سموم كانت تذرو جميع قواعد الاخلاق والعقل .

وفي أواخر تموز قصدت « لاغريار » لقضاء العطلة الصيفية ، فاكتشفت هناك مظهراً جديداً من مظاهر الحياة الجنسية .

كان عمي موريس قد تناول طوال سنتين أو ثلاث ألواناً من الخضار

لم يذق سواها . فأصيب بسرطان في المعدة مات على أثره بعد آلام فظيعة . وقد بكته امرأة عمي ومادلين طويلاً . ولكن حين وجدتا العزاء أصبحت الحياة في « لاغريار » أوفر مرحاً من الماضي . وقد استطاع روبير أن يدعو أصدقاءه الى القصر بكل حرية ، وكانوا يجتمعون شباناً وفتيات ليصطادوا ويرقصوا . وكان روبير في تلك السنة يغازل فتاة جميلة تناهز الخامسة والعشرين ، وكانت تقضي عطلتها في البيت المجاور ، وكانت غايتها أن تجد لها عريساً . وكانت ايفون تقصد كل يوم تقريباً قصر « لاغريار » وعلى شفتيها بسمة لا تمحي حتى اني أخذت أتساءل عما اذا كانت صماء أو بلهاء . وقد جلست أمها بعد ظهر أحد الايام تعزف على البيانو في القاعة المفرغة من اثاثها ، وأخذت أيفون وهي بثوب الاندلسية ترقص رقصات اسبانية وسط دائرة من الشباب الضاحك. وبمناسبة هذا « الغرام » تكررت الحفلات والدعوات ،في القصر وفي الخارج ، وكنت أجد فيها تسلية كبيرة . ولم يكن الأهل ليتدخلوا فيها ، بحيث كان يمكن للجميع أن يضحكوا ويتحركوا من غير ضغط أو رقابة . وقد أصبح الرقص ، بعد حين من الزمن ، لعبة من الالعاب ولم يعد يضايقني . بل لقد وجدت أحد الذين راقصوني ، وهو شاب على وشك ان ينهي دراسة الطب ، وجدته لطيفاً جداً .وقد سهرنا ذات مرة ، في بيت مجاور حتى الصباح ، وطبخنا حساء البصل في المطبخ ، وركبنا السيارة الى سفح جبل « غارغان » الذي تسلقناه لنرقب منه اشراق الشمس ، ثم شربنا القهوة بالحليب في أحد الفنادق . وكانت هذه أول ليلة بيضاء لي . وقد رويت لزازا هذه الاعمال الطائشة التي عجبت لها كثيراً ودهشت أن أجد فيها لذة وان تتساهل أمنا معنا بشأنها. ولكن الواقع أنه لم يكن ثمة أي خطر على فضيلتي أو فضيلة أختي ، فقد كان الجميع يدعوننا بـ « الصغيرتين » وكأنهم يعنون بذلك أننا لم نبلغ بعدُ مبلغهم ، وان « الجاذبية الجنسية » ليست من ميزاتنا ... غير أن المحادثات كانت تطفح بالتلميحات والتوريات التي كانت تزعجني .

وأخبرتني مادلين أن أشياء كثيرة كانت تحدث في تلك الامسيات في الأحراج والسيارات . وكانت الفتيات يحرصن على أن يبقين عذراوات. أما ايفون فقد أهملت هذا التحفظ ، وانتهى الامر باصدقاء روبير الذين استفادوا منها ، كل بدوره ، الى أن يطلعوه على الواقع فعدل عن زواجه بها : أما الفتيات الأخريات ، فقد كن يعرفن « قاعدة اللعب » وكن يحافظن عليها .ولكن هذا التحفظ لم يكن ليحرمهن التسلية والمرح. ومن كانت منهن شديدة الوسواس ، كانت تذهب لتعترف في اليوم التالي ، ثم تعود نقية الضمير ... وكم وددت لو أعرف كيف يمكن للقاء فمين أن يخلق الشهوة ، وكنت غالباً ما أدهش حين أنظر الى شفتي شاب أو فتاة ... وقد شرحت لي مادلين ان اللذة تتوقف على الاذواق : فقد كانت صديقتها « نيني » مثلاً تطالب من صاحبها ان يقبل أو يداعب باطن قدمها . وكنت أتساءل بفضول واستياء عما اذا كان جسمي بالذات يخفي ينابيع خبيئة ستتدفق منها يوماً لذائذ غير منظورة ولا منتظرة .

غير أني لم أكن مستعدة على الاطلاق للقيام بأية تجربة . لقد كانت الاخلاق التي تصفها لي مادلين تثيرني . إن الحب ، كما أتصوره ، لا يعني الجسم على الاطلاق ، ولكني كنت أرفض أن يبحث الجسم عن الارتواء خارج الحب . ولم أكن من التصلب بالمبلغ الذي يذهب اليه « انطوان ريديه » مدير « المجلة الفرنسية » التي كان أبي يعمل فيها ، والذي صور في رواية له صورة مؤثرة لفتاة حقيقية : لقد سمحت مرة لرجل أن يقبلها ... وبدلاً من أن تعترف لخطيبها بهذه الدناءة ، عدلت عن الزواج به ، لقد رأيت هذه القصة المضحكة . على أني حين روت لي احدى صديقاتي وهي ابنة جنرال أن كل شاب يراقصها كان يقبلها لدى عودتها الى البيت ، وبختها على أن تقر ذلك . فقد كان يخيل لي من المحزن بل من الإجرام ان يعطي المرء شفتيه لآخر

غير مكترث . ولا شك في أن أحد أسباب احتراسي نفوري الممزوج بالخوف الذي يوحيه الذكر عادة للعذراوات ، لقد كنت أخشى خصوصاً حواسي نفسها وما قد ينتابها من نزعات . وانما كان الاستياء الذي كنت أشعر به في أثناء دروس الرقص يغيظني لأني كنت أتلقاه بالرغم مني . ولم أكن أقبل ان يتمكّن أول قادم من ان يجعلني أتهاوى لمجرد لمسة أو ضمّة أو ضغط . لا بد أن يأتي اليوم الذي يغمى عليّ فيه وأنا بين ذراعي رجل : سأختار ساعتي ، وسيبرر عزمي نفسه بعنف الحبّ الذي أكون واقعة فيه . إن اللذة تبقى قذرة اذا لم تصهر بنار العاطفة . ثم اني كنت متطرفة : كنت أريد إما كل شيء ، وإما لا شيء . واذا أحببت فسأحبّ الى الابد ، وسأنخرط بكليّتي ، بجسمي وقلبي وفكري وماضيّ . كنت أرفض أن اقتطع الانفعالات والشهوات الغريبة على هذه القضية . والحق اني لم يتح لي أن امتحن صلابة هذه المبادىء ، لانه لم يحاول أي ساحر أن يهزّها أو يهدمها .

كان مسلكي ينسجم والاخلاق القائمة في وسطي ، ولكني لم أكن أقر هذه الاخلاق دونما تحفّظ هام ، كنت أود أن أخضع الرجال للقوانين نفسها التي تخضع لها النساء . لقد كانت عمتي « جرمين »تشكو من ان « جاك » كان عاقلاً أكثر من اللزوم ، وكان أبي ومعظم الكتّاب والاجماع العام يشجعون الشبان على ان يغامروا ، حتى اذا آن الاوان ، فانهم سيتزوجون الفتاة التي تنتمي الى عالمهم ، وفي الانتظار لا بأس من التسلية مع فتيات عابرات ... وكان هذا المسلك يثير اشمئزازي . وكانوا قد كرروا لي القول ان الطبقات الدنيا لا تملك مناقب ، فلا بأس من قضاء الوقت مع فتياتها ، وكنت أثور ضد هذه الفكرة ، لاني كنت أثور مع تلك الفتاة المخطوبة البيضاء التي قد أصبحها ذات يوم ، فلم أكن أجد أي سبب يحملني على أن أقرّ لصاحبي من الحقوق ما لا أقرّه لنفسي . إن حبنا لن يكون

ضرورياً وكلياً إلا اذا احتفظ بنفسه لي كما أحتفظ بنفسي له . ثم انه يجب ان تكون الحياة الجنسية في جوهرها بالذات ، ولجميع الناس، قضية رصينة . .. وهكذا كنت أصرّ ، رغم الرأي العام على أن أطلب من الجنسين طهارة مماثلة .

١٠

وقضيت في أواخر شهر أيلول أسبوعاً ضيفة على احدى صديقاتي؛ وكانت زازا قد دعتني مراراً الى مصيفها في « لوباردون » ، ولكن صعوبات السفر وحداثة سني جعلت هذا المشروع يجهض . أما في تلك الفترة ، فكنت قد بلغت السابعة عشرة ، وقد وافقت أمي على ان تضعني في قطار يقودني تواً من باريس الى محطة المصيف حيث يأتون لاصطحابي، وكانت هذه أول مرة أسافر فيها وحدي ، وكنت قد رفعت شعري ، وأحسستني فخورة بحريتي ، وقلقة بعض الشيء : فقد كنت أترصّد المسافرين على المحطات ، ولم أكن أحب أن أجدني مغلقاً علي في حافلة مع غريب وجهاً لوجه . وكانت تيريز تنتظرني على المحطة ، وهي فتاة مراهقة حزينة يتيمة الأب تعيش حياة أسى بين أمها وبين ست من أخواتها الكبيرات . وكانت قد زيّنت غرفتها ، وهي التقية العاطفية ، بأردية من الموسلين الابيض كانت تدعو زازا الى الابتسام؛ وكانت تحسدني على حريتي النسبية ، وأحسب انني كنت أجسد في نظرها كل مرح الحياة . وكانت تقضي الصيف في قصر كبير جميل تحيط به غابات كثيفة . وقد اكتشفت هناك خريفاً جديداً : بنفسجياً برتقالياً أحمر ملطخاً بالذهب . وكنا نتحدث عن العودة الى المدرسة فيما كنا نتنزه . وكانت تيريز قد سمح لها بان تتابع معي بعض دروس

الأدب و اللغة اللاتينية . وكنت أستعدّ لأعمل بجد ، وكان بود أبي لو أجمع بين الادب والحقوق « التي يمكن أن تنفع يوماً » ، ولكني لم أوافق على ذلك بعد أن طالعت مطالعة سريعة « القانون المدني » فنفرت منه. وكان استاذي ، مقابل ذلك ، قد أغراني بان أتابع دراسة الرياضيات العامة ، فراقت لي الفكرة وصممت أن أدرسها في المعهد الكاثوليكي ، وأما الأدب فقد قررنا أنا وزازا ، بناء على اقتراح ابيها ، ان ندرسه في معهد خاص بـ « نويبي » .

وهكذا كانت جميع رغباتي تتحقق : هذه الحياة التي تتفتح والتي سأتقاسمها مع زازا .

حياة جديدة ، حياة أخرى ، تجعلني أكثر انفعالاً مما كنت يوم دخلت المدرسة لاول مرة . واضطجعت على أوراق الشجر الميتة ، وشرد نظري خلال ألوان الكرمة الرائعة ، وجعلت أحلم بكلمات : الليسانس والاغريغاسيون ... فاذا بجميع الحواجز وجميع الجدران تتطاير .. لقد كنت أتقدم في وضح النهار نحو حقيقة العالم . ولم يعد المستقبل أملاً بعد : فهأنذا ألمسه . أربع سنوات أو خمس من الدراسة ، ثم تأتي حياة بكاملها أصنعها أنا بيدي . وستكون حياتي قصة جميلة تتحقق شيئاً فشيئاً كلما مضيت أرويها لنفسي .

القسم الثالث

١

افتتحت حياتي الجديدة بأن صعدت درج مكتبة « سانت جنفياف ». وجلست في القطاع المخصص للقارئات ، واستغرقت في قراءة « المهزلة البشرية » . وكانت تجلس قبالتي ، في ظل قبّعة كبيرة محمّلة بصور العصافير ، آنسة ناضجة السن كانت تقلب أوراق اجزاء قديمة من « الجريدة الرسمية » ، وكانت تحدث نفسها بصوت منخفض وتضحك. وكان دخول المكتبة في ذلك العهد مباحاً للجميع ، فكان يلجأ اليها غالباً بعض الحمقى والمشرّدين ، وكانوا يحدثون انفسهم ويغنّون ويقضمون الخبز . وكان فيهم رجل يذرع المكتبة جيئة وذهاباً ، وعلى رأسه قبعة من الورق . ولقد أحسستني بعيدة جداً عن قاعة درس المعهد : لقد ارتميت أخيراً في الجماعة البشرية ، وجعلت أقول لنفسي بفرح : « هاأنذا ! لقد أصبحت طالبة حقيقية ! » وكنت أرتدي ثوباً اسكتلندياً جديداً ، وأتردد على أدراج المجموعات ، وأروح وأجيء فيخيّل إليّ اني كنت جذّابة .

وكان في برنامج ذلك العام دراسة « لوكريس » و« ديدرو » وسواهما، ولو أني كنت قد بقيت جاهلة كما كان يتمنى لي أهلي لكانت الصدمة شديدة . والظاهر أنهم تنبهوا لذلك . فقد كنت جالسة ذات مساء في المكتب تجاه أمي ، حين رأيتها تتململ قليلاً ثم يحمر وجهها وتقول لي :

– هناك أشياء يجب أن تعرفيها .

واحمر وجهي أنا أيضاً فقلت لها :

– انني أعرفها .

ولم يأخذها الفضول للاطلاع على مصادري ، فتوقفت محادثتنا عند هذا الحد ، وكان في هذا عزاء لنا كلتينا . وبعد بضعة أيام استدعتني الى غرفتها ، وسألتني بشيء من الارتباك أين أصبحت من وجهة النظر الدينية ، فاذا بقلبي يخفق ثم قلت :

– لم أعد أؤمن منذ بعض الوقت .

فتحلل وجهها وقالت :

– يا صغيرتي المسكينة !

ثم أغلقت بابها حتى لا تسمع أختي بقية حديثنا ، وأخذت تسرد لي دليلاً على وجود الله بصوت مبتهل ، ثم صدرت عنها حركة عجز وتوقفت والدموع في عينيها وأسفت أن أكون قد سببت لها ضيقاً . ولكن شعرت بعزاء : سيتاح لي أخيراً أن أعيش بوجه مكشوف .

وذات مساء رأيت حين نزلت من الاوتوبيس سيارة « جاك » التي اشتراها منذ مدة . فرقيت السلم قفزاً ، وكانت زيارات جاك لنا أقل مما كانت في السابق ، ولم يكن أهلي يغفرون له آراءه الادبية ، ولا شك في ان سخريتهم كانت تزعجه . لقد كان ابي يجعل ميزة الموهبة حكراً للادباء الذين كان يحبهم في شبابه ،وكان يرى ان شهرة المؤلفين الاجانب أو المؤلفين المحدثين ليست الا من قبيل « السنوبيسم » . وكان يضع ألفونس دوديه فوق ديكنز بمراحل ، وحين كان يحدثه أحدهم عن الرواية الروسية ، كان يهز كتفيه لامبالياً ، وكانت جميع الآثار الانكليزية والسلافية والشمالية تبدو له مزعجة تافهة . أما كتاب الطليعة وفنانوها ، فقد كانوا يقامرون على البلاهة البشرية بوقاحة . وكان يصف الذين يخالفون آراءه بأنهم « فرنسيون أردياء » والحق أن جاك

كان يتفادى مناقشته ، ويفضّل أن يمازح أبي وأمي ويحاذر أن يعالج أي موضوع . وقد آلمني ذلك ، لأني كنت أراه ، حين يبدي بعض آرائه بالمصادفة ، يقول أشياء كانت تشغل فكري وتثير اهتمامي ، ولم أكن أجده مدّعياً على الاطلاق ، وكان يعرف عن العالم والناس والرسم والادب أكثر مما كنت أعرف ، وقد وددت لو انه يفيدني من تجربته. وقد جعل يناديني ذلك المساء كعادته ، بابنة عمه الصغيرة ، ولكن كان في صوته من اللطف ، وكذلك في بسماته ، ما ملأني سعادة لمجرد انني رأيته من جديد . وحين أويت الى فراشي ، ووضعت رأسي على الوسادة ، نفرت الى عيني الدموع ، فقلت لنفسي بافتتان :

– انني أبكي ، فأنا اذن أحب .

وقد كانت سن السابعة عشرة هي سن الحب .

وفكرت بوسيلة اجتذب بها احترام جاك . وكان يعرف « روبير غاريك » الذي كان يقدم في معهد « سانت ماري » درس الأدب الفرنسي . وكان غاريك قد أسس حركة « الفرق الاجتماعية » التي أخذت على عاتقها نشر الثقافة في الطبقات الشعبية : وكان جاك رئيس احدى الفرق ، وكان يقدره . فاذا نجحت في أن اتميّز في نظر استاذي الجديد ، واذا حدّث جاك عن مزاياي ، فقد يكفّ جاك عن ان يعتبرني كطالبة لا شأن لها . وكان غاريك يتجاوز الثلاثين ، وكان أشقر خفيف الشعر يتحدث بصوت مرح ، وكانت تبهرني دروسه عن « رونسار » . وقد عنيت العناية كلها بفرضي الانشائي الأول ، ولكن الوحيدة التي تلقت التهاني على فرضها فتاة دينية كانت تتبع الدروس بثياب مدنية . ولم نكد ، زازا وأنا ، نأخذ اكثر من احدى عشرة علامة ، وكانت تيريز تتبعنا من بعيد .

وكان المستوى الفكري لمعهد سانت ماري أرفع من مستوى معهد « ديزير » . وقد أوحت لي الآنسة لامبير التي كانت تشرف على القسم

العالي ثقة كبيرة . أما زميلاتي الجديدات ، فلم يظهرن لي أكثر مرحاً من القديمات ، وكن يتعلمن بالمجان ، ومقابل ذلك كنّ يؤمّن التدريس والنظام في الصفوف الثانوية. وكان معظمهن يعتقدن بمرارة أنهن لن يتزوّجن أبداً ، وكان حظهن الوحيد في أن تكون لهن يوماً حياة رصينة هـو أن ينجحن في امتحاناتهنّ : وكان هذا الهم يستولي عليهنّ . وقد حاولت أن اتحدّث مع بعضهن ، ولكن لم يكن عندهنّ شيء يقلنه لي .

وفي تشرين الثاني بدأت أعدّ الرياضيات العامة في المعهد الكاثوليكي ، وكانت الفتيات يجلسن في الصفوف الأولى ، والفتيان في الصفوف الأخيرة وكنت أجد وجوههم جميعاً محدودة . وأما في السوربون ، فكانت محاضرات الأدب تبعث فيّ الملل . وكان الاساتذة يكتفون بأن يرددوا بصوت مائع ما سبق لهم أن كتبوه في رسائلهم للدكتوراه . ولكـي أتسلى كنت أراقب الطلاب والطالبات الجالسين حولي على المقاعد ، وكان بعضهم يجذبني ويثير اهتمامي . وكان يتفق لي عند الخروج أن أتابع بعيني مدة طويلة فتاة مجهولة كانت اناقتها أو جمالها يدهشني . من ذا الذي ستمنحه تلك البسمة المرسومة على شفتيها ؟ وعدت أذكر ، وأنا أساير هذه الحيوات الغريبة ، السعادة التي كنت أجدها طفلة اذ كنت أجلس على شرفة جادة « راسباي » . غير اني لم أكن أجرؤ على أن أحدث أحداً ، ولم يكن أحد يحدثني .

ومات جدي في أواخر الخريف بعد احتضار طويل ، فاكتست أمي بالسواد ، وكستني به . فانعزلت عن الناس وخيّل إلي اني مرصودة لوحدة بدأت تثقل عليّ . وكان الفتيان والفتيات ، في جادة سان ميشال يتنزهون جماعات ويتضاحكون . وكانوا يذهبون الى المقاهي والمسارح ودور السينما . أما أنا ، فكنت أقضي النهار كله في قراءة الأطروحات ، وكنت في المساء انصرف الى حل المسائل الرياضية . وكان أهلي يخالفون العادات إذ يوجهونني نحو عمل أكسب منه عيشي ، لا نحـو

الزواج . ولم يكن وارداً عندهم أن يتركوني أخرج بدونهم ، ولا أن يوفّروا عليّ الشكليات العائلية .

وكانت تسليتي الرئيسية طوال السنة هي في لقائي بصديقاتي . ولكنهن بدأن يبعثن في نفسي الملل ، باستثناء زازا . والواقع اني بدأت أشعر بأن حياة كل منهما أخذت تحيد عن حياتي : فبينما مضيت أنا الى أمام أنمّي معارفي وإدراكي ، ظللن هنّ في أمكنتهنّ بعد أن توجّهن نحو الزواج .

وقد اعترف بعد قليل أن تلك السنة لم تحمل لي ما كنت أصبو اليه: فبالرغم من ان جذوري قد انبتّت عن ماضي ، فاني لم أكتشف أي أفق جديد حقاً . وكنت من قبل قد عوّدت نفسي أن أعيش في القفص لاني كنت أعلم أن يوماً سيأتي ينفتح فيه الباب ، ولكن هاأنذا أجتازه ، ولا أراني الا سجينة بعد . فأية خيبة ! لم يكن هناك أي أمل واضح يملكني : لم يكن لذلك السجن من قضبان ، ولذلك لم أكن أستطيع أن أعرف مخارج له . لعلّه أن يكون له مخرج ، ولكن أين ومتى أبلغه ؟ كنت كل مساء أحمل قمامة الاقذار وأهبط بها لافرغ في الصندوق القشور والرماد والورق الممزق ، وكنت دائماً أنظر الى السماء وأسائلها . وكنت أقف عند مدخل البناية ، فأرى واجهات مضيئة ، وسيارات تجري في الشارع ، وسابلة يمرّون . وكان الليل في الخارج يتنفس ، فكنت أصعد الدرج وأنا أضغط بنفور على قبضة القمامة اللزجة وحين كان أهلي يخرجون للعشاء في المدينة ، كنت أسارع مع أختي الى الطريق ، فنذرعه بلا غاية ، ونحاول ان نلتقط صدى أو شعاعاً من الحفلات الكبيرة التي كنا منفيّتين عنها ...

وبدأت أضيق بأسري في البيت ، وكانت أمي تصلّي من أجلي نحو السماء . وكانت هنا في الأرض تئن أسفاً على ضلالي . وكانت كل صلة قد انقطعت ما بيننا . وكنت على الاقل أعرف أسباب ذلك . أما

أبي ، فكان جفاؤه يثير دهشتي ، فقد كان عليه ان يهتم بجهودي وتقدمي وأن يحدثني بصداقة عن المؤلفين الذين كنت أدرسهم ، ولكنه في الواقع لم يكن يظهر لي الا اللامبالاة ، بل نوعاً من العداء الغامض؛ وكانت ابنة عمي جان قليلة الصبر على الدراسة ، ولكنها كانت كثيرة الابتسام وشديدة التأدب . فكان أبي يردد أمام الجميع أنه كان لأخيه فتاة لذيذة ، ثم يتنهد ... وكان ذلك يغيظني ، ولم أكن أدري سبب سوء التفاهم هذا الذي كان يفصل بيننا والذي ثقل كثيراً على حداثتي ؛

٢

كانوا ، في وسطي ، يعتبرون غير مناسب أن تدرس الفتاة دراسة عالية ، أما أبي فكان يقول لي ولأختي أحياناً ، والمرارة في صوته :

— انكما لن تتزوجا يا صغيرتي ، فيجب أن تعملا .

وكانت خير ساعات الأسبوع عندي محاضرة « غاريك » الذي كان يزداد اعجابي له . وكان قد أهمل انجاز أطروحته وكرس نفسه لفرقه الاجتماعية . وكان يعيش عيشة زهد في بناية شعبية ، وغالباً ما يلقي محاضرات للدعاوة لفكرته . وقد حضرنا ، أمي وأنا ، احدى هذه المحاضرات بواسطة جاك . وحين ظهر غاريك نسيت كل شيء ، وسحرني صوته القوي . وقد شرح لنا يومذاك أنه كان وهو في العشرين قد اكتشف في الخنادق مباهج صداقة تنسف جميع الحواجز الاجتماعية ، ولم يقبل أن يحرم نفسه هذه المباهج بعد أن وضعت الحرب أوزارها ؛ وكان يعتقد بأن لجميع الناس الحق بالثقافة ، وان بين الناس جميعاً ، بالرغم من فروقهم قاسماً مشتركاً . وهذا ما دفعه الى ان يخلق بين الطلاب وبين أبناء الشعب نظاماً من المبادلات ينتزع الاولين من وحدتهم والآخرين من جهلهم . فاذا تعلموا ان يتعارفوا وان يتحابوا ،

فهم سيعملون جميعاً لإشاعة الصلح بين الطبقات . وأكد غاريك ، وسط التصفيق ، أنه ليس من الممكن أن يخرج التقدم الاجتماعي من صراع تكوّن بذرته الكراهية والحقد ، وانما هو يتم عبر الصداقة . وكان قد جمع حول برنامجه رفاقاً أعانوه على تنظيم مركز ثقافي في « روبيي » ، وما لبثوا أن تلقوا الاعانات فاتسعت الحركة ، حتى شملت عشرة آلاف عضو ما بين فتيان وفتيات مع الف ومئتي مدرب . وكان غاريك نفسه كاثوليكياً مؤمناً ، ولكن لم يكن يفرض اي اتجاه ديني ، وقد كان بين مساعديه عدد من الذين فقدوا ايمانهم ، وكان يؤمن بأن على البشر أن يتعاونوا على الصعيد الانساني ، وانهى حديثه بصوت مرتعش قائلاً ان الشعب يكون حسناً ما أن يُعامَل معاملة حسنة ، فاذا رفضت البورجوازية أن تمد له يدها ، فسترتكب خطأ فادحاً لا بدّ ان ترتدّ عليها عواقبه الوخيمة .

وكنت أشرب كلماته التي لم تكن تفسد عليّ عالمي ، ولا تجلب عليّ الشك في نفسي . صحيح أنهم كانوا يدعون حولي الى التفاني والاخلاص ولكن ذلك كان يقتصر على المحيط العائلي . أما خارج ذلك ، فالآخرون ليسوا أقرباء . وكان العمال خصوصاً ، في رأي هذا المحيط ، نوعاً غريباً لا يقل خطره عن الألمان والبولشفيك . وكان غاريك قد كنس الحدود حتى لم يبق في رأيه على الارض الا مجتمع عظيم كان جميع أفراده أخوة لي . ولقد كهربني هذا الشعار : أن أنكر جميع الحدود وجميع الفوارق ، وأن أخرج من طبقتي ، وأن أخرج من جلدي : ولم أتصور أن بامكاننا أن نخدم الانسانية خدمة أجدى من أن ننشر عليها النور والجمال . ووعدت نفسي بأن أتسجل في « الفرق » ، ورحت أتأمل باعجاب المثال الذي قدمه لي غاريك : لقد التقيت أخيراً برجل اختار حياته بدل ان يخضع للقدر . لقد كانت حياته – بعد اذ رُسم له هدف ومعنى – تجسد فكرة . وذلك الوجه المتواضع ذو البسمة الحية ، انما كان

وجه بطل ، وجه انسان أعلى .

وعدت الى البيت منتشية متحمسة ، ونزعت معطفي وقبعتي الأسودين حين تسمّرت فجأة ، اذ سمعت صوتاً آمراً يقول « يجب أن أضع حياتي في خدمة الناس ! يجب أن أضع حياتي كلها في الخدمة ! » كانت هناك مهمات غير محدودة تنتظرني ، كنت مطلوبةً كلي . فاذا سمحت لنفسي بأي تبذير أو اسراف ، فاني أخون مهمتي وأسيء الى الانسانية . وقلت لنفسي ، وفي حلقي غصّة : « ان حياتي كلها ستخدم » وكان هذا قسماً نطقت به في انفعال شديد كما لو أنه يلزم مستقبلي كله ازاء السماء والارض .

ولم أكن أطيق اضاعة الوقت ، وكنت مع ذلك آخذ على نفسي اني قضيت حياتي السابقة في طيش ، ورحت بعد ذلك استغل وقتي كله ، فأصبحت أنام أقل من قبل ، وأتزيّن بسرعة حتى اني لا أفعل أكثر من أن أنظّف أسناني ، وانقطعت عن ان أنظر الى المرآة ، وحرّمت على نفسي القراءات الخفيفة والثرثرات التافهة وجميع ألوان التسلية . ولولا اعتراض أمي لعدلت كذلك عن تمرينات التنس . وكنت إذا ما جلسنا للطعام ، أحمل معي كتاباً فأتعلّم الافعال اللاتينية وألتمس حلاً لمسألة حسابية . وقد اغتاظ أبي من ذلك ، فأصررت ، فتركني وشأني مشمئزاً . وحين كانت أمي تستقبل بعض صديقاتها ، كنت أرفض أن أدخل الصالة ، وكانت أحياناً تغضب ، فأرضخ لها ، ولكني أظل جالسة على طرف الكرسي ، أشدّ على أسناني ، وأبدو بهيئة نفور شديد حتى أنها كانت تفضل أن تطلق سراحي . وكان الجميع يستغربون صمتي وقلة أدبي ، حتى أصبحوا يعتبرونني نوعاً من الشياطين .

ولا شك في اني اتخذت هذا الموقف بدافع التحدّي ، ان أهلي لم يكونوا يجدونني على ذوقهم ، فلم يكن لي مفر من ان أبدو كريهة . كانت أمي تلبسني ثياباً رديئة ، وينعى عليّ أبي أن أرتدي ثياباً

رديئة . ولم يحاولا أن يفهماني ، فاستغرقت في الصمت والانغلاق . وفي الوقت نفسه كنت أدافع عني الضجر . لقد حُرمت من الملذات ، فاخترت الزهد ، وقسوت على نفسي في الدراسة وكان التعب يمنحني شعوراً غامراً من الاكتفاء . وكنت قد واعدت نفسي على ان أتجنب التفاهة اليومية الفظيعة ، فحوّل مثال « غاريك » هذا الامل الى ارادة. ورفضت أن أصبر أكثر من ذلك . فسلكت من غير انتظار أطول طريق البطولة .

وكنت كلما رأيت غاريك جدّدت عزمي وارادتي . وكنت أنتظر مجيئه ، والجنماف في حلقي ، وأنا جالسة بين زازا وتبريز . وكان يزعج زازا ان يأتي غاريك متأخراً دائماً . وكم وددت أنا لو أعرف عنه كل شيء ، ولا سيما حياته النفسية . وقد كسفت مزايا غاريك في تلك الفترة سحر جاك : أتراني قد التقيت بقدري ؟ الواقع أن غاريك كان متزوجاً ، وكان هذا صدمة لي وأصبح همي أن أكون حاضرة فقط في حياته ، وقد بلغت ذلك ، اذ ما لبثت ان انتزعت تهانئه على فروضي ودروسي . وكانت زازا تجد اعجابي به مبالغاً فيه ، وكانت في هذه الاثناء تخرج قليلاً وتخصص معظم وقتها لعائلتها ، غير مبتعدة عن العادات القديمة . وأحسستني أنفصل عنها قليلاً . وبعد عطلة عيد الميلاد التي قضتها في الريف سقطت في جمود عجيب ، فكانت تحضر الدروس ميتة النظر ، ولا تضحك قط ولا تكاد تتكلم . ولم يكن الاهتمام الذي كنت أوليه حياتها ، تلك التي أصبحت هي نفسها لا تكترث بها ، ليجد في نفسها أي صدى .

— إن كل ما أرغب فيه هو أن أنام حتى لا أستيقظ بعد أبداً .

هذا ما قالته لي يوماً ، فلم أعلق عليه أية أهمية . كنت أعرف أنها تجتاز بين فترة وفترة أزمات يائسة ، فكنت أعزو ذلك الى الخوف الذي كان المستقبل يوحيه لها . ولم يكن ذلك العام الدراسي إلا فترة تأجيل:

فان القدر الذي كانت تخافه كان يقترب ، ولربما لم تكن تجد القوة لا على الخضوع له ولا على المقاومة ، فكانت اذ ذاك تنشد انتفاء الهمّ في الغيبة والغفلة . وكنت آخذ عليها انهزاميتها ، وكانت هي تجد في تفاؤلي دليلاً على أني كنت أنسجم مع الوضع القائم . وبالرغم من أننا كنا مقطوعتين عن العالم ، هي بيأسها ، وأنا بأملي المجنون ، فان وحدتنا لم تكن لتوحدنا ، بل على العكس كانت إحدانا تحذر الأخرى بغموض وكان الصمت يكثف ما بيننا .

وأما أختي فكانت سعيدة ذلك العام ، وكانت تعد شهادتها للبكالوريا وكانوا يبتسمون لها في معهد « ديزير » ، وكانت لها صديقة جديدة تحبها وقد قلّ اهتمامها بي ، وكنت افترض انها ستصبح عما قليل بورجوازية صغيرة هادئة ، وكان أهلي يقولون « بوبيت ... سوف نزوجها » .. ومهما يكن من أمر ، فانها لم تكن إلا طفلة بعد ، ولم أكن أحدثها بشيء .

كان بوسع انسان آخر ان يساعدني : جاك . وقد أنكرت الدموع التي ذرفتها ذات ليلة بسرعة . كلا .. انني لم أكن أحبه ، واذا كنت أحب حقاً ، فليس هو ، ولكني كنت أطمع في صداقته . وقد كنا ذات مساء نتناول العشاء لديهم ، وحين حان وقت الجلوس الى الطاولة تأخرنا قليلاً ، أنا وجاك ، في الصالة ونحن نتحدث . فما كان من أمي إلا ان نادتني بلهجة جافة . فقال لها جاك بابتسامة يسيرة : المعذرة .. لقد كنا نتكلم عن « الموسيقى الداخلية » لـ « شارل موراس » وأكلت ذلك المساء بحزن . كيف كان لي أن أعلمه أني لم أعد أسخر من الأشياء التي لم أكن أفهمها ؟ فلو أنه شرح القصائد والكتب التي يحبها لاستمعت اليه . « كنا نتكلم عن الموسيقى الداخلية » .. لقد رددت كثيراً هذه العبارة ، متذوقة مرارتها التي كانت تنفذ منها نكهة أمل .

ونجحت في شباط في شهادة الأدب ، فهنأني غاريك . وبعد

أيام ، تناول جاك العشاء عندنا . وقرب نهاية السهرة ، انتحى بي جانباً وقال لي :

– لقد رأيت غاريك أول أمس ، وقد تحدثنا عنك طويلاً .

ثم طرح عليّ عدة أسئلة عن دروسي ومشاريعي بلهجة اهتمام ، وانتهى إلى القول :

– سأصحبك صباح الغد لنقوم بنزهة بالسيارة في الغابة .

وشعرت بقلبي يخفق . لقد نجحت ضربتي ، وها هو جاك يهتم بي . وكان ذلك في صباح ربيعي جميل ، وهأنذا وحدي مع جاك في سيارة نطوف بالبحيرات . وكان يضحك في وجهي . وقد سألني لحظة :

– أتحبين التوقف المفاجئ ؟

ثم توقف فجأة بالسيارة فاصطدم أنفي بالواجهة ، وانفجرنا ضاحكين . إن بوسع من كان في عمري إذن ان يستبقي مرح الاطفال ! وأخذنا نتحدث عن طفولتنا . وقال لي بفرح :

– كم جعلتك تمشين يا مسكينتي سيم !

وحاولت أيضاً ان أحدثه عن متاعبي ومشاكلي . وحوالى الحادية عشرة وضعني أمام ملعب التنس وابتسم لي بخبث وهو يقول :

– تستطيعين ، كما ترين ، ان تمرحي وتتسلي ، ولو كنت حاملة ليسانس !

وعبرت ملعب التنس بخطوة منتصرة : لقد حدث شيء ما ، لقد بدأ شيء ما . واعلنت أمام رفيقاتي : « انني آتية من غابة بولونيا » . وتحدثت عن نزهتي باندفاع وخفة حتى ان زازا أخذت تتفحصني بعين مرتابة :

– ماذا بك هذا الصباح ؟

– لقد كنت سعيدة .

وحين دق جاك بابنا في الاسبوع التالي ، كان أهلي قد خرجوا ، وكان في مثل هذه الحالات يمازحنا ، أنا وأختي، فترة من الوقت ثم يمضي . ولكنه بقي يومذاك . وأنشدنا قصيدة من شعر « كوكتو » ، وأعطي بعض نصائح للمطالعة ، ثم عدّد مجموعة من الاسماء لم يسبق لي أن سمعتها قط ، وأوصاني خصوصاً بقراءة رواية عنوانها « مولن الكبير » . وحين غادرنا ، قال لي :

— مرّي غداً بعد الظهر ببيتنا ، فأعيرك بعض الكتب .

وقد استقبلتني في اليوم التالي الخادمة العجوز « اليز » وقالت لي :

— إن جاك غير موجود ، ولكنه ترك لك في الغرفة بعض الأشياء .

وكان قد كتب كلمة صغيرة : « اعذريني يا سيم ، وخذي الكتب »، ووجدت على طاولته زهاء عشرة كتب من مؤلفات مونترلان وكوكتو وباريس وكلوديل وفاليري . وكانت كتب كثيرة قد مرت بين يدي ، ولكن هذه لم تكن تنتمي للنوع العادي : كنت انتظر منها اكتشافات عجيبة . وقد دهشت حين فتحتها إذ وقعت فيها على كلمات مألوفة ، غير أنها لم تخيب أملي ، وانما بهرتني واستخفّت بي . والواقع انـي كنت من قبل أعتبر الكتب الادبية مباني كنت انقّب فيهاباهتمام ، وكنت أعجب بها أحياناً ، ولكنها لم تكن تعنيني . وفجـأة إذا برجال من لحم ودم يحدثونني فماً لأذن ، عن أنفسهم وعنّي . كانوا يعبرون عن امانيّ ، وعن ثورات لم أعرف ان اعبر عنها ولكني أعرفها . وجعلت أقصد مكتبة سانت جانفياف فأقرأ « جيد » و « كلوديل » و « جامس » وفي رأسي نار ، وفي صدغي خفقات وأكاد اختنق من الانفعال والتأثر . واستنفدت مكتبة « جاك » ، واشتركت في «دار أصدقاء الكتب » . فلم أكن أكتفي بأخذ الكتابين اللذين كان يحق لي أن آخذهما ، بل كنت أخفي في محفظتي اربعة أو خمسة أخرى ، وكانت الصعوبة هي في أن اردّها إلى مكانها من الرفوف ، وكنت أخشى ان يفوتني ارجاع أحدها .

وحين كان الجو يصفو ، كنت أقصد « اللكسمبورغ » فأسير تحت الشمس منتشية ، وأنا أردد عبارات كانت تروق لي . وكنت غالباً ما أجلس في « قاعة العمل » بالمعهد الكاثوليكي الذي كان يمنحني ملجأ صامتاً ، على بعد خطوات من بيتي . وهناك ، قرأت والدموع في عيني رواية « مولن الكبير » . واستغرقت في القراءة كما استغرقت بالماضي في الصلاة . واحتل الادب في حياتي ما كان يحتله الدين سابقاً ، فملأها كلها وغيّرهـا ؛ وأصبحت الكتب توراة كنت أستمدّ منها النصائح والعون ، وانقـل مقاطع طويلة ، وأحفظ عن ظهر قلب أناشيد جديدة وامثالاً ونبوءات؛ وكانت انفعالاتي ودموعي وآمالي صادقة ، ولم تكن الكلمات والأشعار والآيات تفيدني في التصنع ، وانما كانت تنقذ من الصمت جميع هذه المغامرات الحميمة التي لم أكن أستطيع ان أحدث بها أحداً ، فكانت تخلق بيني وبين الارواح الشقيقة التي توجد في مكانما نوعاً من التواصل والتواجد ، فكنت أشارك في ملحمة روحية كبيرة بدلاً من أن أعيش قصتي الخاصة . وطوال أشهر ، رحت أتغذى بالأدب ، وكان ذلك هو الواقع الوحيد الذي كان ممكناً لي أن اباشره .

واستاء أبي وأمي من ذلك . وكانت أمي تصنّف الكتب إلى فئتين : الكتب الرصينة والروايات . وكانت تعتبر الروايات تسلية عابثة ، وتنعي عليّ ان ابذر وقتي مع مورياك وجيرودو وبروست . وأما أبي فقد حكم على مؤلفي هذه الكتب ، بعد أن قلبها بأنهم مدّعون منحلّون لا أخلاقيون . وعاتب جاك لأنه أعارني هذه الكتب . وهكذا فقد ابي وأمي وسائل مراقبة مطالعاتي ، وان كان ذلك لم يمنعهما من التعبير عن الغيظ والحنق ، وكنت أغضب لهذا الهجوم . وهكذا استشرى النزاع الذي كان يستكنّ فيما بيننا .

٣

خيّل إليّ ذات لحظة أن انقطاعاً حاسماً قد جرى في حياتي ، إذ بدأت اهتم بحالاتي النفسية أكثر من اهتمامي بالعالم الخارجي . وأخذت أكتب مذكراتي ، وسجلت على الصفحة الاولى : « إذا قرأ أحد هذه الصفحات ، أياً كان ، فاني لن أغفر له ذلك ابداً . الرجاء احترام هذا التنبيه ! » واهتممت بالغ الاهتمام بأن أخفيه عن جميع العيون، ونقلت اليه مقاطع من الكتب الأثيرة عندي ، ورحت اسائل نفسي وأحلّلها واهنئها بما طرأ عليّ من تغيّر . ولكن ما هو هذا التغير على الضبط ؟ إن مذكراتي لا تعبّر الا تعبيراً رديئاً . فقد صمتّ عن أشياء كثيرة ، ومع ذلك ، فهناك بعض الوقائع التي تقفز إلى عيني حين أعيد تلاوتها .

« انني وحيدة . إن الانسان وحيد دائماً . وسأبقى وحيدة دائماً .» اني أجد هذا الشعار في كل صفحة من المذكرات . وأنا لم أفكّر في هذا قط . وكنت أقول أحياناً بفخر : « انبي فتاة حرة أخرى» ولكني كنت أرى في مفارقاتي علامة التفوق التي سيعترف بها الناس جميعاً ذات يوم . لم يكن عندي أي شيء من الفتاة الثائرة . كنت أود أن أصبح أحداً ، وان أعمل شيئاً ، وان أتابع بلا انقطاع ما بدأته من تصعيد منذ ولادتي ، فان عليّ ان أنزع نفسي من الروتين . وبدأت أصارح من حولي بآرائي . وكنت أرفض وجهة نظر أبي في الزواج ، فلن أكن أقرّ ان يخدع احد الزوجين الآخر : فاذا لم يكونا متلائمين فينبغي ان يفترقا . وكان الرجال والنساء في نظري على مستوى واحد وينبغي أن يقوم بينهما تبادل كامل . وكنت انفر من موقف أبي تجاه «الجنس الضعيف » وبالاجمال كنت أنفر من طيش العلاقات ومن الغراميات ومن الخيانات البورجوازية . وقرأت ذات يوم مشدوهةً بأن الاجهاض

يعتبر جنحة ؛ إن ما يجري في جسمي لا يعني احداً سواي ، وليست هناك حجة تغيّر رأيي في هذا . وكنت أرفض التمييزات والدرجات والقيم التي تتميز بها النخبة ، ولم يكن نقدي يهدف، كما كنت أحسب، إلاّ إلى تحريرها من الرواسب التافهة . وكان هذا النقد في الواقع يرمي إلى تصفيتها . فقد كان الفرد وحده يبدو لي حقيقياً ، هاماً ، وكان هذا يفضي بي بالضرورة إلى تفضيل المجتمع في مجموعه على طبقتي الخاصة، ومهما يكن من أمر ، فيبدو انني أنا التي بدأت العدوان على محيطي وكنت أجهل ذلك ، ولهذا لم أكن أفهم لماذا كان أبي ومحيطي يحكمان عليّ . لقد سبق للبورجوازية ان أقنعتني ان مصالحها تمتزج مع مصالح الانسانية ، وكنت أحسب ان باستطاعتي بالاتفاق معها ان أبلغ حقائق تصحّ على الجميع . ولكن كان يكفي ان أقترب من هذه الحقائق ، حتى كانت البورجوازية تنتصب ضدي ، فأحسّتني مروّعة مضلّلة . وهكذا وجدتني ضحية ظلم شديد ، وبدأت ضغينتي تنقلب إلى ثورة .

لم يكن هناك من يقبلني كما كنت ، ولم يكن هناك من يحبني : ولقد عزمت على ان أحبّ نفسي لأعوّض هذا الترك . سوف ازدوج ،وانظر إلى نفسي وارصد ذاتي . وقد تحاورت مع نفسي في « مذكراتي » ، وتعلمت الشكوك والتردّد وتمتمة الامل الخفية . وكنت المنظر والنظر ، ولم أكن موجودة إلاّ بي ومن أجلي . وقد سعدت بمنفى أبعدني إلى مثل هذه المباهج الرفيعة ، وكنت أحتقر اولئك الذين كانوا يجهلون هذه المباهج وتأخذني الدهشة ان أكون قد قضيت هذا الوقت الطويل دونها .

على اني ظللت على غايتي : ان أخدم . ورأيتني أحتجّ في دفتري على « رينان » وارى ان الانسان العظيم نفسه ليس غايةً في ذاته : إنه لا يبرّر نفسه إلا إذا شارك في رفع مستوى البشرية العامة الفكري والمعنوي . وكانت الكاثوليكية قد أقنعتني بالاّ اعتبر أي فرد ، مهما انحطّت منزلته ، شيئاً مهملاً :فالجميع يتمتعون بحق ان يحققوا ما كنت

اسميه جوهرهم الخالد . لقد رسم طريقي بوضوح : ان اكمّل نفسي وأغنيها وأعبّر عن نفسي في عملٍ يعين الآخرين على الحياة .

وبدا لي انّ عليّ ان انقل إلى الآخرين التجربة المتوحّدة التي كنت أجتازها ، فكتبت في نيسان الصفحات الاولى من رواية . وكانت هذه الصفحات تروي أنني ، تحت اسم « إليان »، كنت أتنزه مع بعض أقربائي في حديقة ، وانحنيت فجأة فتناولت علبة على الأرض . وقالوا لي إنها « ساعة » فأغلقت يدي باحكام وحرص ، وزحموني فقاومتهم وفررت ، فاذا هم يلحقون بي ، فدلفت إلى الغابة لاهثة خافقة القلب حتّى غبت عنهم ، فأخذت أبكي على مهل . وما لبثت ان جففت دموعي وأنا أتمتم : « لن يعرف أحدٌ أبداً» ثم عدت رويداً إلى البيت. « وكانت تحس بأنها تملك من القوة ما يكفيها للدفاع عن ثروتها الوحيدة ضد الضربات وضد الملاطفات ، ولأن تبقي يدها مغلقةً دائماً . »

كانت هذه المقدمة تترجم أعمق همومي : ان أحمي نفسي من الآخرين ، وحتّى من أهلي . لقد كنت في نظر أمي روحاً ضالة ، روحاً للانقاذ . وحين كانت تطرح عليّ سؤالاً ، كنت أشعر بأنها تنظر من ثقب قفل . وكان يغيظها ان أظلّ صامتة دائماً وتقول في ذلك : « إن سيمون تفضل ان تقف عارية تماماً على ان تقول ما في رأسها . » وحتّى مع أبي ، انقطعت عن المناقشة ، لأن حججي معه كانت تصطدم بجدار ، وكانا لا ينفكان يتهمانني بالعقوق . وكنت غالباً ما أبكي حين آوى مساءً إلى سريري ، وفكرت لحظة في ان أكذب ولكني عجزت عن ذلك ، وأدركت أخيراً انه لا مفر لي ، إذا اردت ان أفهم العالم ، وان أجد نفسي ، من ان اهرب منهما .

وكان مؤلماً ان أدرك فجأة انني أخوض الصراع حين كنت أحسبني أتقدم على طريق منتصرة ، واستشعرت من ذلك صدمة قضيت وقتاً طويلاً حتّى زالت عني آثارها . وقد ساعدني الأدب على ان انتقل من

الضيق إلى الكبرياء . « ايتها العائلة ! انني اكرهك ! » وجعلت اقاسم كتّاب الجيل الجديد من أمثال باريس وجيد وفاليري وكلوديل آراءهم ، وأقرأ بحماسة جميع الروايات والدراسات التي تقع تحت يدي عن آثارهم . ومن الطبيعي ان أجد نفسي عبر كلّ منهم ، لاننا كنا من الشاطئ نفسه . لقد كانوا يشعرون مثلي ، وهم البورجوازيون مثلي ، أنهم غير مستقرّين في جلودهم . وكانت الحرب قد هدمت أمنهم من غير ان تنزعهم من طبقتهم ، فثاروا ولكن ضد ذويهم واسرتهم وتقاليدهم فحسب . وكانوا قد اشمأزوا من « حشو الرأس » الذي أخضعوا له أثناء الحرب ، فأخذوا يطالبون بحقهم في ان ينظروا إلى الاشياء وجهاً لوجه وان يسموها باسمائها ، ولما لم يكن قصدهم على الاطلاق ان يقلبوا المجتمع ، فقد اكتفوا بأن يدرسوا حالاتهم النفسية درساً دقيقاً ، وان يدعوا إلى « الصراحة تجاه النفس » وطرحوا الكليشيهات والاشياء العامة المألوفة ، ورفضوا الحِكَم القديمة التي أدركوا إفلاسها ، ولكنهم لم يحاولوا ان يبنوا بديلاً عنها ، وكانوا يؤثرون ان يؤكدوا بأنه ينبغي ان لا يكتفي المرء بشيء ، وكانوا بذلك يمجّدون القلق .

وكنت في مثل وضع هؤلاء : كنت أنفصل عن الطبقة التي أنتمي اليها ، ولكن إلى أين أذهب ؟ لم يكن وارداً أن أهبط إلى « الطبقات الدنيا » ، وكان بالامكان بل من الواجب مساعدة هذه الطبقات على الارتفاع .. ولما لم أكن أرى في العالم أي مكان يناسبني ، فقد كان يسعدني ان أفكر بألاّ استقرّ في أي مكان . كنت أرصد نفسي للقلق . وأما الصراحة ، فكنت أنشدها منذ طفولتي . لقد كان مَن حولي يشجب الكذب ، ولكنهم كانوا يتملصون بعناية من الحقيقة . وإذا كنت اليوم أجد هذه الصعوبات الكثيرة في أن أتكلم ، فلأني كنت أنفر من أن استعمل العملة المزيّفة المتداولة في محيطي . ولقد عجّلت كذلك في اعتناق اللاأخلاقية . لم أكن أوافق طبعاً على أن يسرق المرء بدافع الفائدة

أو أن يرتمي على سرير من أجل اللذة ، ولكن إذا كانت الآثام والعيوب مجانية ، يائسة ، ثائرة — وخيالية بالطبع — فقد كنت أتقبّلها دون تردد ، كما أتقبّل الاغتصابات وأعمال القتل . لقد كان ارتكاب الشرّ أحسم طريقة لرفض أية مشاركة مع رجال الخير . وهكذا ، فـان اللاأخلاقية لم تكن فقط تحدياً للمجتمع ، وانما كانت تتيح أيضاً بلوغ الله . وقد كان المؤمنون والملحدون يستعملون هذا الاسم الذي كان يعني في نظر الاولين حضوراً لا يمكن إدراكه ، وفي نظر الآخرين غياباً مدوخاً : ولم يكن في ذلك أي فرق ، ولم أجد مشقة في أن أخلط بين « جيد » و « كلوديل » ، فان الله لديهما كليهما كان يحدّد بالنسبة للعـالم البورجوازي على أنّه « الآخر » ، وكل ما كان « آخر » كان يكشف عن شيء ما إلهـي . فليس هناك من مسافة كبيرة بين تضحية تفوق قـدرة البشر وبين جريمة مجانية . المهم هو ان ينتزع المرء نفسه من الأرض ، وإذ ذاك يلمس الخالد السرمدي .

٤

لم أنقطع عن حضور دروس « غاريك » ، ولم أكفّ عن التفكير بهذا الرجل الذي يختلف عن سائر الرجال . انه لم يكن « قلقاً » ولكنه لم يكن ينام : لقد وجد طريقه . ليست له اسرة ولا مهنة ولا روتين ، وليس في أيامه أية حثالة : لقد كان وحيداً ، وكان حرّاً ، وكان يعمل من الصباح حتّى المساء فيضيء ويحترق . وكم وددت لو أحتذي بـه ! وأيقظت في قلبي « روح الفرق » فكنت انظر بحبّ إلى جميع المارّة . وحين كنت أقرأ في « اللكسمبورغ » ، ويجلس إلى جانبي على المقعد أحد الناس ويبادرني الحديث ، كنت أسرع في الاجابة عليه . وكنت أشعر بسرور خاص حين ألتقي « بأشخاص من الشعب » ، فيخيّل إليّ

أحياناً أنّي أطبّق تعليمات « غاريك » . لقد كان وجوده يضيء أيامي ؛ على اني ما لبثت أن شعرت بأني كففت عن أن أخصّ حياته ، وكنت أقول لنفسي انني عما قليل سأنقطع عن رؤيته . وفيما كنت أعمل جاهدة على ان احتفظ به في حياتي ، كنت اتركه ينتقل إلى المكان الثاني من اهتمامي : ذلك ان جاك عاد يحتل المركز الاول . لقد كان غاريك معبوداً بعيداً ، وأما جاك فقد كان يهتم بشؤوني ، وكان عذباً لي ان أحدّثه .

وفي تلك الفترة ، كنت أفضّل أن أدهش على أن أفهم ، فلم احاول ان أمَوْضع جاك ولا أن أشرحه .

وكان جاك يكره العمل ودراسة الحقوق ، ويحبّ الرسم والنقش على الخشب . ولكنه لم يكن يفكر بأن يتخذ من ذلك مهنةً له ، وانما كانت له مطامح كثيرة في الزجاجيات التي ورث أعمالها عن جده وأبيه بالرغم من أن خاله كان يتولى ادارة المصنع بمهارة . وكان اقرباؤنا يفضلون له أن يترك هذا العمل لخاله ، وكان أبي يقول :

– إذا تدخل في إدارة المصنع فسيخرب البيت .

أما أنا ، فكنت أرى انه يبحث عن قدره. لقد كان يحب « مولن الكبير » وقد جعلني احبّه . وكنت أشبهه به دائماً .ولقد رأيت في جاك تجسيداً مرهفاً للقلق والحيرة .

وكنت غالباً ما أقصد بيتهم للعشاء عندهم مع اسرتي . وبخلاف كثيرين حولي ، لم تكن الخالة جرين ولا تيتيت تعتبرانني قبيحة ، وبالقرب منهما كانت خيوط حياتي تنعقد من جديد ، فلم أكن أشعر بأني بعدُ منفيّة . وكنت قد عقدت مع جاك بعض الأحاديث الخاصّة التي تأكّدت فيها مشاركتنا الروحية . ولم يكن أهلي ينظرون اليها نظرة سيئة . وكانت لهم تجاه جاك عواطف ملتبسة : فقد كانوا يعتبون عليه ان ينقطع عن المجيء إلى البيت ، وان يهتمّ بي أكثر مما يهتم بهم ؛

على انهم كانوا واثقين من اني سأغنم غنيمة منتظرة إذا تزوجني جاك !
وكلما كانت أمي تلفظ اسمه ، كانت ترسم على شفتيها بسمة خفيّة ، فيثور غضبي لمحاولتهم تحويل تفاهم قائم على رفض مشترك للآفاق البورجوازية إلى صفقة بورجوازية. غير اني وجدت من المناسب أن تكون صداقتنا بعيدة عن الإثم وان يُسمح لي برؤية جاك وحيدين.

وكنت أدق باب بيتهم بصورة عامة قبيل الغروب ، وكان جاك يستقبلني بابتسامة فأسأله :

— هل تراني ازعجك ؟

— انكِ لا تزعجيني ابداً.

— كيف الحال ؟

— انه دائماً على ما يرام حين اراك.

وكان لطفه يبثّ الدفء في قلبي. وكان يصحبني إلى الرواق الطويل الذي أقام فيه طاولة عمله ، فأجلس على أريكة يغطيها القطيف ، وأتأمله وهو يذرع الرواق جيئة وذهاباً ، وبين شفتيه سيكارة ، يغمز بعينه عبر دخانها عن فكرته. وكنت ارد له الكتب التي اعارني اياها فيعيرني غيرها ، ويقرأ لي مقاطع من « ملارميه » و « فرانسيس جامس » و « ماكس جاكوب »...وقد سأله ابي يوماً بصوت لا يخلو من سخرية :

— أراك تحبّها بالأدب ؟

فأجابه جاك :

— كم يسعدني ان تحبّه فعلاً.

وكان يهتم بهذه المهمة اهتماماً كبيراً ، ويقول لي بفخر احياناً :

— مهما يكن من أمر ، فقد علمتك أشياء جميلة.

وكنت إذا سألته إيضاحاً لبعض ما غمض عليّ يجيبني مستشهداً بكلمة لكوكتو : « ان هذا يشبه حوادث القطر الحديدية : انه يُحسّ ولا يُشرح ». على انه احياناً كان يصوّر لي بدقة بعض تفاصيل لوحة : ضوءاً أصفر في زاوية ، أو يداً تتفتّح على شاشة ، وكان صوته يوحي

باللانهاية . وقد قدم لي ذات يوم اشارات ثمينة عن الطريقة التي يحسن بها النظر إلى لوحة لبيكاسو . وكان يدهشني إذ يعرف لوحة لماتيس أو لبراك من غير ان يقرأ التوقيع .

ولكن ما الذي كان يفعله حقاً ؟ ما كانت مشاريعه وهمومه ؟ إنه لم يكن يعمل كثيراً وكان يحب ان يتوغل بسيارته عبر باريس في الليل. وكان يتردد إلى مطاعم الحي اللاتيني ومشارب مونبارناس . وكان يصف لي المشارب كأمكنة اسطورية يحدث فيها دائماً شيء ما . ولكنه لم يكن مسروراً جداً من حياته . وكان يقول لي وهو يبتسم :

– انني معقّد بصورة مريعة .. وأنا نفسي أضيق في تعقيداتي !

وقال لي مرة من غير مرح :

– اترين ؟ إن ما احتاج اليه هو ان اؤمن بشيء ما !

فسألته :

– ألا يكفي الانسان ان يعيش ؟

ذلك انني كنت أنا اؤمن بالحياة . فهزّ رأسه وقال :

– ليس من السهل ان يعيش الانسان إذا لم يكن مؤمناً بشيء .

ثم انحرف بالحديث إلى جهة أخرى.ولم يكن يكشف عن ذاته إلاّ بقدر ، ولم أكن لألحّ عليه في ذلك . ولم يكن حديثي مع زازا يمسّ الجوهري من الامور . أما مع جاك ، فكان يخيّل إليّ من الطبيعي ، حين نقترب من ذلك ، ان يكون هذا بطريقة متحفظة جداً . وكنت أعرف ان له صديقاً يدعى « لوسيان ريوكور » وهو ابن مصرفيّ كبير من ليون ، كان يقضي معه ليالي بطولها في الحديث . وكان احدهما يصحب الآخر ، وكان « ريوكور » ينام أحياناً عند جاك، على الاريكة الحمراء . وكان هذا الشاب قد قابل كوكتو وعرض على ممثل مشهور تمثيل مسرحية من تأليفه ، ونشر مجموعة من الشعر زيّنها جاك بصورة حفرها على الخشب . وكنت أنحني امام هذا التفوق . وأعتبرني محظوظة ان يخصص

لي جاك مكاناً على هامش حياته . وكان يقول لي إنه لا يودّ النساء على الاطلاق ، وكان يحب اخته ولكنه يرى انها عاطفية إلى حدٍّ مبالغ فيه . وكان من النادر حقاً ان يستطيع شاب وفتاة ان يتحدثا كما كنا نفعل ، وكنت احدثه بين وقت وآخر عن نفسي ، فيعطيني بعض النصائح ، ويقول لي :

– حاولي ان تظهري صافية .

وكان يؤكد لي أنّ علينا ان نقبل ما تحمله الحياة من يوميّ مألوف ، فلم أكن من رأيه تماماً . ولكن المهم انه كان يصغي اليّ ويفهمني ويشجعني وينقذني فترة من الزمن من الوحدة .

وأحسب أنه لم يكن يطلب أفضل من أن يشركني في حياته اشراكاً أكثر ألفة . وكان يطلعني على رسائل اصدقائه ، ويودّ لو يعرّفني بهم . وقد صحبته بعد ظهر أحد الايام إلى ميدان السباق في «لونشان» . وعرض مرة أن يصحبني لمشاهدة فرقة « الباليه » الروسية ،فرفضت امي بصراحة وقالت : « إن سيمون لن تخرج وحدها في الليل » ولم يكن ذلك بسبب انها تشكّ في فضيلتي ، فقد كان بوسعي أن أقضي ساعات طويلة إلى جانب جاك ، وحدنا في المنزل ، قبل ان ننهض إلى العشاء . ولكن بعد ذلك ، كان كل مكان يصبح مشبوهاً إذا لم يوجد فيه أهلي . وهكذا اقتصرت صداقتنا على تبادل عبارات غير منجزة ، تقطعها فترات طويلة من الصمت ، وعلى قراءة بعض الفصول من الكتب بصوت مرتفع .

٥

وتقدمت لشهادتي الرياضيات واللغة اللاتينية . وكان لذيذاً ان أنجح وان أمضي بسرعة . ولكني لم أكن أحب العلوم المجردة ولا اللغات الميتة . ونصحتني الآنسة لامبير ان أعود إلى مشروعي الاول ،وكانت هي التي

تقدم دروس الفلسفة في معهد « سانت ماري » وكان يسعدها ان أكون تلميذتها ، وقد أكّدت لي أنه سيكون يسراً عليّ ان أحصل على « الاغريغاسيون » بلا جهد . فلم يعارض أهلي في ذلك، وكنت راضية كل الرضى بهذا القرار .

وبالرغم من ان وجه غاريك قد امّحى قليلاً في الاسابيع الاخيرة، فقد تألمت أشدّ الألم حين ودّعته في ممر كئيب من ممرات معهد سانت ماري . وذهبت للاستماع اليه مرة أخرى ، حين اشترك في القاء محاضرة مع هنري ماسيس والسيد مابيل . وكان هذا آخر المتكلمين ، وكانت الكلمات تسيل من لحيته بارتباك ، وكانت وجنتا زازا ، طوال حديثه ، ملتهبتين من الضيق . وكنت ألتهم غاريك بعيني ، وكنت أشعر بنظر أمي يتجه إليّ مضطرباً ، ولكني لم أحاول ان أملك نفسي . كنت أحفظ عن ظهر قلب هذا الوجه الذي سينطفئ إلى الأبد . كم هو كلّي حضور الانسان ، وكم هو جذريّ غيابه.ويبدو انأي ممر مستحيل بينهما :

على اني ظللت متعلقة به . وقد استقللت المترو ذات صباح ، ثم نزلت في ارضٍ مجهولة بلغ من بعدها اني ظننتني اجتاز حدوداً محرّمة خلسةً . ومشيت في الطريق التي كان غاريك يسكنها ، وكنت أعرف رقم منزله ، فاقتربت منه وانا ألامس الجدران . وكنت على استعداد لأن يغمى عليّ خجلاً إذا ما التقى بي . وتوقفت لحظة ازاء بيته أتأمل واجهة القرميد الكئيبة ، وهذا الباب الذي كان يجتازه صباح مساء : وتابعت طريقي وأنا أنظر إلى الحوانيت والمقاهي والارصفة . عمّ تراني أتيت أبحث ؟ وعلى اي حال ، قفلتُ حزينة .

أما جاك فقد ودّعته بدون حزن لأني كنت واثقة اني سألقاه في تشرين . وكان قد سقط في امتحان الحقوق فبدا محطماً بعض الشيء : وقد حمّل مصافحته الأخيرة لي ، وبسمته قدراً من الحرارة اضطربت له . وتساءلت بقلق ، بعد أن فارقته ، إذا لم يكن قد فسّر هدوئي

باللامبالاة . وأحزنتني هذه الفكرة . لقد منحني كثيراً ، وكنت أقلّ تفكيراً بالكتب واللوحات والأفلام مني بذلك الاشراق الودّي في عينيه حين كنت احدّثه عن نفسي . وشعرت بحاجة فجائية لأن أشكره ... فكتبت له رسالة صغيرة على عجل ، ولكن قلمي ظلّ معلقاً فوق المغلّف . لقد كان جاك يقدّر الحشمة تقديراً عظيماً ، وكان قد ذكر لي ، في احدى بسماته الغامضة ذات المغزى ،عبارة غوته: « اني احبك، فهل هذا يعنيك ؟» أتراه قد اعتبر بعض عباراتي التلقائية قليلة الرصانة؟ أو تراه قد تمتم بينه وبين نفسه : « هل هذا يعنيني ؟» ومع ذلك ، فاذا كان من شأن رسالتي ان ترفع معنوياته ، فمن الجبن الاّ ارسلها . وترددت ، يمسكني ذلك الخوف من ان اثير الضحك — ذلك الخوف الذي شلّ طفولتي . ولكني لم أعد اريد ان اتصرف كالأطفال . ولقد أضفت إلى آخر الرسالة ملاحظة : « قد تجدني مضحكة ، ولكنني كنت سأحتقر نفسي لو لم أكن كذلك . » ثم مضيت ألقي الرسالة في صندوق البريد .

ودعتني امرأة الخال مرغريت والخال غاستون إلى قضاء فترة عندهم في الريف ، أنا واختي . ولو اتتني الدعوة في العام السابق لكنت انطلقت أكتشف الجبل بافتتان . أما الآن ، فاني قد استغرقت في ذاتي حتى ان العالم الخارجي لم يكن ليؤثّر بي بعد . ثم اني كنت قد عقدت مع الطبيعة علاقات بلغ من صميميتها اني لم اعد ارتاح هنا اليها بعد أن هبطت إلى مستوى التسلية العابرة . وكانوا يمنحونني هذه الطبيعة قطعاً قطعاً من غير أن يدعوا لي الفرصة أو الوحدة الضرورية لأتغلغل فيها . ولأني لم أستسلم لها ، لم تعطني شيئاً من نفسها . وهكذا لم أجد فيها اية تسلية .

ذلك اني كنت شقية . كان غاريك قد اختفى إلى الأبد. واين تراني وصلت مع جاك ؟ لقد كتبت له عنواني في الريف حين ارسلت له

الرسالة . ولما كان يتمنى بالطبع الا تقع رسالته في غير يديه ، فلا بد ان يكتب لي إلى هذا العنوان أو لا يكتب على الاطلاق .ولم يكتب بالفعل . وكنت أنظر إلى صندوقي في لوحة الفندق عشر مرات في اليوم ، لا شيء . لماذا ؟ لقد عشت صداقتنا في الثقة ، وهأنذا أتساءل الآن : ماذا عساني أكون في نظره ، هل وجد رسالتي طفولية ؟ أو في غير محلها ؟ أم تراه قد نسيني بكل بساطة ؟ أي عذاب ! وكم وددت لو أتحمله في صمت وسلام ! ولكني في الواقع لم تكن لي لحظة هدوء . وكنت انتظر الليل حتى أبكي . وفي اليوم التالي لم تصل الرسالة المنتظرة . ومن جديد جعلت أنتظر المساء ، ثائرة الاعصاب ، مليئة القلب بالاشواك . وانفجرت ذات صباح باكية ، ولم أدر كيف أعيد الطمأنينة إلى نفس امرأة خالي المفزعة .

ولم تهدأ نفسي حين عدت إلى « ميرنياك » لقضاءالعطلة الصيفية. وكانت عطلة شاقة : لقد كنت أتمشى عبر أشجار الكستناء وأبكي . وكنت أشعر اني وحدي تماماً في هذا العالم . وحتى أختي ، كانت غريبة علي ذلك العام : وكنت قد أغظت أهلي بمسلكي القاسي ، وكانوا يراقبونني على حذر : وحين تراني امي مكفهرة الوجه ، كانت تهز رأسها وتقول:

— الامور سيئة من غير ريب .

فأغضب لذلك . ولكن إذا نجحت في أن اظهر قليلاً من اللطف كانت تقول :

— تحسنت الامور !

فأغتاظ لذلك أيضاً . ثم اني كنت شبه عاطلة عن العمل ، ولم أستطع ان أحصل الا على عدد قليل من الكتب . وقد رأيتني ، خلال دراسة عن « كانت » ، أتحمس للمثالية النقدية التي كانت تدعمني في رفضي لفكرة الله . وعرفت في نظرية « برغسون » حول « الانا الاجتماعية والانا العميقة » تجربتي بالذات . على ان ملجئي الوحيد ظل دفتر

مذكراتي ، فاذا أفرغت فيه ضجري وحزني ، استولى عليّ الضجر بحزن مرة أخرى .

وقد حدث ذات ليلة ، في « غريير »ان اويت إلى سرير جبلي كبير ، فشعرت بقلق شديد يغمرني ، وكان قد اتفق لي ان أخاف الموت حتى تنهمر دموعي وتنبعث صيحاتي . ولكن الأمر كان اسوأ ، تلك المرة: فقد كان كل شيء رعباً وذعراً ، حتى ترددت في أن أذهب فأطرق باب أمي وأزعم لها اني مريضة ، لا لشيء الا لأسمع الاصوات . وقد تمكنت أخيراً من النوم ، ولكني احتفظت من هذه الازمة بذكرى مروّعة .

وإذ عدت إلى « ميرنياك» فكّرت في ان اكتب . وكنت أفضّل الأدب على الفلسفة ، ولم أكن لأرضى قط لو تنبأوا لي بأني سأصبح شبيهة ببرغسون ، فقد كنت أكره ان أتحدّث بذلك الصوت المجرّد الذي لم يكن يمسّني حين كنت أسمعه . إنما كنت أحلم بكتابة « رواية للحياة الداخلية » ، وكنت أريد ان افصّل فيها تجربتي . وخيّل إلي اني أشعر في داخلي بكثير « من الاشياء التي ينبغي أن تقال » ، ولكني أدركت أيضاً انّ الكتابة فنّ ، واني لم أكن اخصائية فيه . غير اني سجّلت مع ذلك عدة موضوعات روائية ، ثم عزمت على الكتابة ، فألّفت أثري الأول . وكان قصة فرار خائب . كانت البطلة في مثل سني: ثمانية عشر عاماً . وكانت تقضي عطلتها مع اسرتها في بيت ريفي كانت تنتظر ان يوافيها اليه خطيب كانت تحبّه بصورة اتفاقية . وكانت حتى ذلك الحين قد ارتضت تفاهة الحياة . ثم اكتشفت فجأة شيئاً آخر ، حين حسر لها موسيقي عبقري عن القيم الحقيقية : الفن والاخلاص والقلق . وأدركت انها كانت تعيش في الزيف ، وتولّدت في نفسها حمّى ، رغبة مجهولة . وذهب الموسيقي ، ووصل الخطيب . وقد سمعت من غرفتها في الطابق الأول أصوات الترحيب به ، فترددت : أترى الذي فكرت

بعمله لحظة سينقذه أم سيهلكه ؟ وخانتها الشجاعة . فهبطت السلّم ودخلت باسمة إلى قاعة الاستقبال حيث كانوا ينتظرونها . ولم أكن مخدوعة بقيمة هذه القصة ، ولكنها كانت المرة الأولى التي اجتهد فيها لأصبّ تجربتي الخاصة في عبارات ، وسررت بكتابتها .

وكنت قد ارسلت لغاريك رسالة صغيرة ، من طالب إلى أستاذه ، فأجابني ببطاقة صغيرة من أستاذ إلى طالبه . ولم أعد أفكر فيه كثيراً . وكنت قد أخذت منه عبرة بأن انتزع نفسي من محيطي ومن ماضيّ : لقد حكم عليّ بالوحدة ، فلأدخل عالم البطولة . ولكنه كان درباً صعباً ، وكنت اوثر دون شك لو أنّ الحكم تأجّل ،وكانت صداقة جاك تتيح لي هذا الأمل . انها صورته تلك التي كنت أبتعثها إذ أضطجع على الحشائش وأذرع الدروب الجوفاء . ولم يكن قد أجاب على رسالتي ، ولكن خيبتي كانت قد تقلّصت مع الزمن ، وكانت تغطيها ذكريات من ابتساماته عند اللقاء ، ومن اني كنت ضالعةً معه ، ومن الساعات المخملية التي قضيتها قربه . وكنت من شدة ضجري من البكاء قد سمحت لنفسي بأن أحلم . سوف أضيء المصباح ، وسأجلس على الاريكة الحمراء : سأكون في بيتي . وسأنظر إلى جاك: سوف يكون لي. ليس هناك أي شك في اني كنت أحبّه : فلا شيء يمنع من أن يحبني . وأخذت ارسم مشاريع سعادة . ولئن سبق لي أن عدلت عن ذلك ، فلظنّي ان السعادة محرّمة عليّ . ولكن كان حسبي ان تبدو لي ممكنة حتى أعود إلى الطمع بها . كان جاك فتى جميلاً جمالاً طفولياً وشهوانياً . ومع ذلك فهو لم يوح لي يوماً بأي اضطراب أو أي ظلّ لشهوة ، ولعلني كنت مخطئة حين سجّلت على دفتري بشيء من الدهشة انه لو اتفق له ان يرسم حركة ملاطفة لانقبض في شيء ما : وهذا يعني اني كنت ، في الخيال على الأقل ، أحتفظ معه بمسافاتي . كنت أعتبر جاك دائماً كأخ كبير بعيد بعض الشيء . ولم تكفّ الاسرة عن محاصرتنا ، سواء أكان

ذلك بدافع الاستنكار أو المراعاة . ولا شك في أن هذا هو السبب في ان العواطف التي اكنّها له كانت تتوجّه نحو ملاك .

كنت أعتقد بانني إذ احبّ جاك انما أنجز قدري . وكنت احكي لنفسي خطبتنا القديمة ، والبناء الزجاجي الذي اهداني اياه . وكنت سعيدة بأن تكون فترة المراهقة قد فصلت بيننا ، فاتيح لي بذلك ان اوهب فرحة اللقاء من جديد . وكان ظاهراً ان هذا الحب قد كتب في السماء .

والحق اني إذا آمنت بقدرية هذا الحب ، فذلك لأني كنت ارى فيه من غير أن أعبر عن ذلك صراحة ، الحلّ الأمثل لجميع مصاعبي ٥ ففيما كنت احتقر العادات البورجوازية ، كنت احتفظ بحنيني إلى تلك الأمسيات في المكتب الاسود والأحمر ، وفي الاوقات التي لم أكن أتصور أن باستطاعتي فيها ان أفارق أهلي . انني سأقرأ إلى جانب جاك ، وسأفكر « نحن الاثنين » كما كنت أتمتم في الماضي « نحن الاربعة » ، وستحيطني امه وأخته بحنانهما ، وسيرق لي أهلي من جديد : وبذلك أصبح مرة أخرى تلك التي كان الجميع يحبونها ، وسوف أستعيد مكاني في هذا المجتمع الذي لم أكن أواجه في خارجه إلاّ النفي . ولكنني لن أتنازل عن شيء : فلن تكون السعادة بالقرب من جاك نوماً ، وانما ستدور ايامنا بحنان ، من غير ان نكفّ عن ملاحقة هدفنا . سوف نتيه جنباً إلى جنب دون أن يضيع أحدنا الآخر ، يوحّد بيننا قلقنا . وهكذا أنجز سعادتي في سلام القلب لا في تمزّقه . وقد رصدت حياتي كلّها على هذا الحظّ وقد بلغ بي الضجر والدمع مداهما . وجعلت انتظر العودة إلى المدرسة وأنا محمومة ، وكان قلبي يثب في القطار .

وحين وجدتني ثانية في البيت استيقظت بقسوة حين ذكرت اني سأقضي العام بين الجدران ، وعانقت بنظرة بقية الايام والأشهر : أية صحراء ! لقد كنت محوت الصداقات القديمة والزمالات والتسليات :

وكان « غاريك » قد مضى عني ، ولن أرى جاك الا مرتين أو ثلاثاً في الشهر ، ولا شيء يسمح لي بأن انتظر منه أكثر مما أعطاني . لسوف أعرف ثانية خيبة اليقظات التي لا تحمل الفرحة.. وفي المساء ، ستنتظرني القمامة التي ينبغي أن أفرغها ، والتعب والضجر .

وبلغ بي الذعر مما ينتظرني اني وددت لو أسارع إلى لقاء جاك ، فهو وحده يستطيع ان يساعدني . ولقد قلت إن مشاعر أهلي كانت مبهمة تجاهه . وفي ذلك الصباح منعتني امي ان أهب لرؤيته ، وهاجمت تأثيره عليّ . ولم أكن أجرؤ حتى ذلك الحين على ان أعصي أوامرها ولا أن أكذب برصانة ،فخضعت لها ولكني كنت أختنق غضباً وحزنا . لقد انتظرت أسابيع طويلة مثل هذا اللقاء ، ثم كانت نزوة من نزوات امي كافية لتحرمني منه . وهكذا تحققت بذعر من تبعيتي لها . انهم لم يكتفوا بأن يحكموا عليّ بالنفي ، ولكنهم لم يكونوا يتركون لي الحرية ان أقاوم قسوة مصيري . لقد كانت أعمالي وحركاتي وكلماتي مراقبة كلها ، وكانوا يرصدون أفكاري وكان بوسعهم ان يجهضوا بكلمة واحدة آثر المشاريع إلى قلبي ، وهكذا وجدتني جامدة ، وكان هذا الجمود يزرع في قلبي اليأس . ولم يبق لي إلا أن انتظر .لا ولكن إلى متى ؟ ثلاثة أعوام ، اربعة ؟ انني إذا قضيت هذه الاعوام داخل السجن ، فاني إذ أخرج أجدني وحيدة كما كنت ، بلا حب ولا حرارة ولا شيء . وإذا درست الفلسفة في الريف ، فما الذي يجديني في ذلك ؟ وإذا كتبت ؟ إن محاولاتي في « ميرنياك » لا تعادل شيئاً . وإذا ظللت كما أنا ، فريسة العادات نفسها والضجر نفسه فانني لن أتقدم أبداً ولن أنجح في أي عمل . لا ، لم يكن ثمة نور في أي مكان . وللمرة الاولى في حياتي ، رأيت ان من الافضل لي ان أموت .

وبعد أسبوع ، سُمح لي بأن أذهب فأرى جاك . وحين وصلت إلى باب بيته ، أخذني الضيق : لقد كان أملي الوحيد ، ولم أعد أعرف

منه إلا أنه لم يجب على رسالتي . اتراه قد تأثر منها أم اغتاظ ؟ وكيف تراه سيلقاني ؟ وطفت حول البيت مرة ومرتين لاحيّةً ولا ميتة . وكان الجرس يرعبني : كان له نفس الثقب المزيّف الذي ادخلت فيه اصبعي يوماً وأنا صغيرة . وضغطت على الزر ، فانفتح البـاب آلياً كالعادة ، ورقيت الدرج . وابتسم لي جاك ، فجلست على الاريكة متقلصة . وبسط لي مغلفاً باسمي وقال :

ــ خذي ، انني لم أرسله لك لأني كنت افضل ان يبقى هذا بيننا .

وكان يهنئني فيه بأني لم أخش ان أكون مضحكة . ويقول إنه غالباً ما فكر بي في الامسيات الحارة الوحيدة ، وكان يعطيني بعض النصائح :

ــ انك ستكونين أقلّ صدماً لمجتمعك حين تكونين أكثر انسانية .. إن سر السعادة ونهاية الفن ان يعيش المرء كجميع الناس ولا يكون كأحد .

وكانت رسالته تنتهي بهذه العبارة : « اتريدين أن تعتبريني كصديق؟» وأشرقت شمس عظيمة في قلبي . ثم مضى جاك يتكلم بعبارات قصيرة متقطعة ، فاذا بالظلام يهبط من جديد . فقد قال لي إن الامور سيئة وانه متضايق جداً ، وانه كان يحسب انه انسان طيب ، ولكنه لم يعد يؤمن بذلك ، وانه يحتقر نفسه ولا يدري ما عساه يفعل بجلده . واستمعت اليه وقد استرقتني مذلّته واستخفت بي ثقته ، فتركته والقلب يشتعل ناراً . وجلست على مقعد لألمس الهدية التي قدمها إلي : ورقة جميلة سميكة تغطيها اشارات بنفسجية . وقد أدهشتني بعض نصائحه : فانني لم أكن أشعر بأني غير انسانية ولم أكن أتقصّد ان أصدم من حولي : أما ان أعيش كجميع الناس ، فان ذلك لم يكن يغريني على الاطلاق ، ولكني كنت متأثّرة لكونه قد جعلني موضوع هذه النصائح . وقرأت عشر مرات الكلمات الاولى : « هل هذا يعنيك ؟ » وكانت هذه الكلمات تعني بوضوح ان جاك كان متعلقاً بي أكثر مما كان يُظهر ، ولكن

حقيقة ثانية كانت تفرض نفسها أيضاً : انه لم يكن يحبني : وإلاّ لما سقط في مثل ذلك اليأس ، فمن المستحيل التوفيق بين الحب والحيرة. وهكذا ردّني جاك إلى الحقيقة . لقد كنا واعيين أكثر مما ينبغي فلم نسقط في أمان الحب المزيف . إن جاك لن يوقف سيره القلق أبداً ، لقد بلغ غاية اليأس وكان عليّ ان أتبعه في دوربه الصعبة .. وعزمت بيني وبين نفسي ان لا أحب احداً سواه ، وان الحب بيننا كان مع ذلك مستحيلاً . ولم أنكر الاعتقاد الذي استقر في نفسي في أثناء العطلة من أن جاك كان قَدَري ، ولكن الاسباب التي جعلتني اربط مصيري بمصيره كانت تنفي أن يكون بوسعه إسعادي . لقد كان لي في حياته دور : ولكن ليس هو ان أدعوه إلى النوم ، كان يجب ان يكافح يأسه وان اعينه على ان يتابع بحثه . ولقد باشرت العمل على الفور ، فكتبت له رسالة جديدة اقترحت عليه فيها اسباباً للحياة مستمدة من أفضل المؤلفين .

وكان طبيعياً ألاّ يجيبني لاننا كنا نرغب نحن الاثنين بأن « تبقى صداقتنا بيننا » . ومع ذلك فقد كان هذا يؤلمني . وقد حاولت ان اكتشف في عينيه ، ذات مساء تناولنا فيه العشاء عندهم ، بريق مشاركة ، ولكن لا شيء . كان يبدو من اللامبالاة تجاهي بحيث تيقنت من انه قد أسقط في يدي هذه المرة . ولقد كتبت في اليوم التالي .. « امسية مؤلمة كان فيها قناعه يخفي وجهه إخفاءً محكماً . اودّ لو اتقيأ قلبي »وعزمت على ان أنساه . ولكن بعد أسبوع أخبرتني امي ان جاك قد سقط في امتحانه مرة أخرى كما علمت من ذويه . فهرعت على الفور بعد أن أعددت ضماداتي وعقاقيري ... والواقع انه كان منهاراً ، وان البسمة لم تكن تطل على شفتيه . وشكرني على رسالتي ، في غير ما حماسة ، وكرر لي انه لم يكن يصلح لشيء .. وكان قد قضى طوال الصيف عيشة بليدة ، وكان يفسد كل شيء ويشمئز من نفسه . وحاولت ان ارفع

معنوياته ، ولكنه لم يستجب لذلك . وحين فارقته همس قائلاً :

ـ شكراً لمجيئك .

فتأثرت لذلك ، غير اني أخذت أتخيّل انه قضى الصيف في المقامرة والشرب وما اسميه الفسق . ولا شك انه كانت له أعذاره ، ولكني كنت اجد مخيّباً لي أن اعذره . وتذكرت حلمي الكبير بالحب ـ الاعجاب الذي كنت قد صنعته لنفسي وانا في الخامسة عشرة ، وقارنته وأنا حزينة بحبي لجاك : كلا ، لم أكن معجبة به . ولعل كل اعجاب كان خديعة ، ولعل الانسان لا يجد في القلوب كلّها إلاّ حفلة مشكوكاً فيها ، ولعلّ الصلة الوحيدة الممكنة بين قلبين هي التعاطف . على ان هذا التشاؤم لم يكن كافياً لتعزيتي .

وقذفتني مقابلتنا التالية في تبرّم جديد . لقد استعاد مزاجه وضحكه وأخذ يرسم مشاريع معقولة . وقد سمعته يقول :

ـ لا بد ان اتزوج يوماً .

فاكتسحتني هذه العبارة . أتراه قد نطق بها عرضاً أم عن قصد ؟ وفي هذه الحالة ، أتكون وعداً ام تحذيراً ؟ لقد كان مستحيلاً عليّ ان اتحمل أن تكون زوجته امرأة غيري : ومع ذلك فقد اكتشفت أن فكرة الزواج به كانت تنفّرني . ولقد داعبت هذه الفكرة طوال الصيف ، أما الآن ، فاني إذ أواجه هذا الزواج الذي كان يتمناه أهلي بحرارة تأخذني الرغبة في الفرار . ولم اكن أجد فيه خلاصي بل هلاكي . وقد عشت طوال أيام في ذعر شديد .

وحين عدت بعد ذلك لزيارة جاك ، كان مع أصدقائه ، فقدّمهم لي واستمروا في حديثهم عن المقاهي والملاهي والصعوبات المادية والدسائس الغامضة ، وراقني الاّ يعكر وجودي جوهم ، ومع ذلك فقد استأت من هذا الحديث ، وطلب مني جاك ان انتظره ريثما يوصل اصدقاءه في السيارة ، فأخذت أنشج وانا مستلقية على الأريكة الحمراء، ثائرة الاعصاب .

وحين عاد كنت قد استعدت هدوئي . وكان وجهه قد تغيّر ونفذ إلى كلماته من جديد عطف متنبّه . وقال : « ارى ان صداقة مثل صداقتنا هي أمر استثنائي . » وهبط معي ، وتوقفنا لحظة طويلة أمام إحدى الواجهات . وغادر باريس في اليوم التالي إلى « شاتوفيلين » حيث كان سيقضي ثلاثة أسابيع . وفكرت وأنا اعزّي نفسي بأن عذوبة ذلك الشفق ستبقى ذكراي الاخيرة ردحاً من الزمن .

غير ان اضطرابي لم يهدأ : ذلك اني لم أعد أفهم نفسي . لقد كان جاك في بعض الاحيان كل شيء بالنسبة لي ، ولم يكن شيئاً على الاطلاق في أحيان أخرى . ودهشت لاحساسي بالكراهية له احياناً . وكنت أتساءل : « لماذا لا تأخذني اندفاعات العطف الكبيرة الا في الانتظار والحسرة والشفقة ؟ » لقد كان يثلج اطرافي التفكير بحبّ مشترك بيننا . ولكني كتبت في مذكراتي « اني بحاجة اليه ، لا إلى رؤيته . » والواقع اني كنت افضل ان افكر فيه ، وهو بعيد ، على ان أجدني معه وجهاً لوجه.

وبعد ثلاثة أسابيع ، لحظت سيارته بالقرب من السوربون . اية مفاجأة ! لقد كنت أعلم ان حياته لم تكن معي ، وقد تكاشفنا بذلك . فانني بقيت على هامش حياته . ولكني كنت أودّ ان أعتقد انه كان يضع في حديثه معي أخلص ما في نفسه وأصرحه . وقد كانت تلك السيارة الواقفة عند رصيف غير بعيد تؤكد لي العكس . في تلك اللحظة كان جاك موجوداً بلحمه ودمه بالنسبة لآخرين ، لا لي . فكم كانت تزن لقاءاتنا الخجولة في كثافة الأسابيع والأشهر ؟

وذات مساء زارنا جاك في البيت ، وكان لطيفاً ، ولكني شعرت بخيبة مريرة . لماذا ؟ لقد بدأت الامور تختلط عليّ . اكنت احبه ام لا ؟ أكان يحبني ؟ لقد رددت لي أمي انه قال لأمه :

— ان سيمون جميلة جداً ، ولكن من المؤسف ألاّ تحسن امرأة العم فرانسواز اختيار الثياب لها .

ولم يكن النقد يتعلق بي ، فحفظت من كلامه اني اروق له . وكان لم يتجاوز التاسعة عشرة ، وكان عليه ان يستكمل دراسته ويؤدي خدمته العسكرية ، فمن الطبيعي الاّ يتكلم عن الزواج إلاّ باشارات مبهمة . ولم يكن هذا التحفظ ليكذّب حرارة لقائنا وبسماته وضغطات يده . لقد كتب لي : « هل هذا يعنيك ؟ »

وفي منتصف نوفمبر ، تناولنا العشاء ذات مساء ، اسرته واسرتي ، في أحد المطاعم ، ولقد ثرثر جاك طويلاً ومزح ، ولكن حضوره كان لا يخفي أكثر من غيابه . ولقد بكيت طويلاً تلك الليلة .

وبعد أيام ، رأيت للمرة الأولى في حياتي انساناً يموت : انه خالي غاستون الذي ظلّ ليلة بطولها يحتضر . ولقد أخذت أهلي الدهشة ان يروني حزينة يائسة إلى ذلك الحدّ طوال يومين . والواقع اني لم احتمل تلك النظرة الغريقة التي ألقاها خالي إلى زوجته قبيل موته، والتي قرأت فيها انه قد تمّ ما لا يمكن تعويضه ، ما لا يمكن علاجه .. كانت هذه الكلمات تدق رأسي حتى ليكاد ينفجر .. ما لا يمكن تفاديه . لعلّي أنا أيضاً ارى ذات يوم مثل هذه النظرة في عيني الرجل الذي اكون قد أحببته مدة طويلة ...

وكان جاك هو الذي عزّاني . وبدا من شدّة تأثره لعينيّ الباكيتين ان شعرت بحب عميق في صدره حتى اني جففت دموعي. ثم حدث ان قالت لي يوماً جدّته ، وكنت أتناول عندها الغداء :

— انك لن تكوني انت نفسك إذا لم تشتغلي .

فنظر إليّ جاك بحنان وقال :

— ارجو ان تظلّ هي نفسها مع ذلك .

وفكرت : « كنت على خطأ : انه يحبني ، وتناولت العشاء في بيته بعد أسبوع ، فصارحني في خلوة قصيرة انه تخلص مما كان يزعجه ، ولكنه بات يخشى ان يصبح بورجوازياً . ثم رأيته فجأة بعد العشاء

يغادر المنزل ، فاختلقت له المعاذير ولكن واحداً منها لم يقنعني : لو انه كان يحبني لما تركني وذهب . ولكن اتراه يحب شيئاً ما حباً ثابتاً ؟

لقد كان يبدو لي متوزعاً غير مستقر ، كان يضيع في صداقات صغيرة وفي هموم صغيرة ، ولا يهتم بمشكلات كانت تعذبني ، وكان بحاجة إلى الاقتناع الفكري . وسقطت مجدداً في القلق : « الا أستطيع ان انتزع نفسي منه ، هو الذي اثور عليه احياناً ؟ انني احبه ، أحبه حباً جنونياً ولا أدري إذا كان قد خلق لي » . والواقع انه كان بيني وبين جاك كثير من الاختلاف . لقد رسمت صورتي في الخريف الماضي ، فكتبت ان اولى ميزاتي رصانتي : « رصانة قاسية لا تلين ، ولست أفهم سببها ، ولكني أخضع لضرورة ساحقة . » ولقد بدوت منذ طفولتي ذات شخصية متطرفة وكنت بذلك فخورة . ولقد كان الاخرون يقفون في منتصف الطريق بين الايمان والشك ، وبالنسبة لرغباتهم ومشاريعهم ، فكنت احتقر فتورهم لأني كنت انطلق مع مشاعري إلى نهايتها ومع أفكاري ومع مشاعري . ولم أكن أستخف بشيء كما لو كنت اريد ان يبرر كل شيء في حياتي بنوع من الضرورة . وكان هذا العناد يحرمني بعض المزايا ، ولكن لم يكن وارداً ان اتخلص منه ، لأن هذه الرصانة كانت « إياي » كلي ، وكنت شديدة الحرص على شخصيتي .

ولم أكن آخذ على جاك قلة اهتمامه ولا تناقضاته ، فقد كنت أعتقد انه أكثر فناً وحساسية وتلقائية وموهبة مني . على ان بعض المظاهر كانت تزعجني فيه : « حبه للنظريات وحماسته لموضوعاتها » . لقد كان يعوزه العمق والثبات وأحياناً الاخلاص والصراحة ، وهذا ما كان يبدو لي شديد الخطورة . وكان يتفق لي ان اغتاظ من أساليبه الفرارية ، فأتهمه أحياناً بأنه يتعلل بتشككه ليوفر على نفسه أي جهد . وكان يشكو انه لا يؤمن بشيء ، وكنت شديدة الحماسة لأن أقترح عليه بعض الأهداف ، وكان يخيل إلي انه جدير بالانسان ان يعمل على تنمية

نفسه وإغناء ذاته ، وعلى هذا النحو كنت أفهم فكرة « جيد » : «المهم أن يجعل المرء من نفسه شخصاً غير قابل لأن يُستبدل » ولكن حين كنت اذكره أمام جاك ، كان يهزّ كتفيه ويقول : « ولذلك ليس امام المرء إلاّ ان يضطجع وينام » . وكنت أحثّه على الكتابة ، وكان على ثقة من انه سيكتب آثاراً جميلة إذا شاء ، فكان يجيبني « وما فائدة ذلك ؟ » وكان يواجهني بهذه الكلمات الثلاث في كل مناسبة . وقد كتبت أقول عنه : « إن جاك يصرّ على ان يبني في المطلق ، وهو لن يصل إلى أي شيء في هذا الاتجاه » . ومع ذلك ، فقد كنت لا أشك قط في ان مسلك جاك لم يكن ذا صلة بالميتافيزيقا ، فكنت احكم عليه بقسوة ، ذلك اني لم أكن أحبّ الكسل ولا الشرور ولا الخفّة والطيش . وكنت شعر أنه غالباً ما كان يغتاظ من ايماني ويقيني . وقد كان يمكن لصداقة ما ان توفّق بين هذه الاختلافات ، ولكن هذه الاختلافات كانت تجعل منظور الحياة المشتركة شيئاً مخيفاً .

وما كان لي ان اقلق قلقاً شديداً لو اني لاحظت معارضة بين مزاجينا. ولكني كنت أشعر بان في الأمر شيئاً آخر : توجيه حياتنا . وحين لفظ كلمة « زواج » استعرضت لائحة الاختلافات فيما بيننا : « كان يكفيه ان يستمتع بالاشياء الجميلة ، وكان يرضى الترف والحياة السهلة ويحب السعادة . أما أنا فقد كنت بحاجة إلى حياة ملتهمة ، وإلى ان أعمل وان أنفق نفسي وان أحقّق . كنت بحاجة إلى هدف أبلغه وصعوبات أقهرها ، وعمل انجزه . انني لم أخلق للترف ، ولهذا فلن يرضيني أبداً ما يرضيه » .

ولم يكن في ترف آل « ليغيون » شيء منفّر ، ولكن ما كنت أرفضه وآخذه على جاك هو قبوله الوضع البورجوازي . لقد كان تفاهمنا يقوم على لبس يوضح عدم اتزان عواطفي القلبية . وكان جاك يفلت من طبقته ، على ما أرى ، لأنه كان قلقاً : ولم اكن أفكر بان القلق هو الطريقة التي كان هذا الجيل القلق يحاول بها أن يستدرك نفسه ، ومع

ذلك ، فقد كنت أشعر بان الزواج ، حين يحرّره من هذا ، فانه سينسجم تماماً مع شخصيته كربّ بيت وأسرة . وكل ما كان يتمناه في الواقع هو ان يضطلع بالدور الذي رصده له مولده ، وكان يعوّل على الزواج ليحصل على الايمان الذي كان ينقصه . لقد أدركت انه كان يعتبر الزواج حلاً لا نقطة انطلاق . ولم يكن وارداً ان نرتفع معاً إلى القمم : فلئن أصبحت يوماً « السيدة ليغيون » فسأراني مرصودةً للعناية « ببيت مغلق ». ولعلّ هذا لم يكن شديد التناقض مع امنياتي الشخصية ، ولكني كنت أكره هذه التسويات ، فانني حين أشارك جاك حيّاته ، فسأجد عناءً كبيراً في أن أدافع عن نفسي تجاهه لأن عدميته تكون قد أعدتني . الم اكن اترك نفسي ، كيما اروق له ، أقبل أن أضحّي بكل ما كان يشكّل « قيمتي » ؟ لقد كنت أثور على هذا التشويه لشخصي ، ومن أجل ذلك كان حبّي لجاك طوال هذا الشتاء مؤلماً إلى هذا الحد . فإما ان يستهلك نفسه بعيداً عني ، فأتعذّب بذلك ، واما ان يبحث عن التوازن في الارتماء في « بورجوازية » كان بامكانها ان تقرّبه مني ولكني كنت ارى فيها مع ذلك سقوطاً . لم أكن أستطيع ان أتبعه في شذوذه ، ولم أكن اريد ان أقيم معه في نظام أحتقره . فاننا لم نكن نؤمن بالقيم التقليدية ، ولكني كنت عازمة على ان اكتشف أو اخترع قيماً جديدة ، اما هو فلم يكن يجد شيئاً وراء ذلك ، ولم يكن يفكر بتغيير حياته . وكنت أنا أسعى إلى ان اتجاوز نفسي .

غير ان ذلك كله لم يكن يدفعني إلى أن أنزع جاك من قلبي . وقد ذهب في رحلة تستغرق شهراً عبر فرنسا لأعمال تخصّ تجارة الزجاج . وكان الزمن شتاء ، والبرد قارساً ، ورأيتني أعود إلى تمنّي حرارة حضوره وإلى حب هادئ ، وإلى بيت لنا ، بيت لي . وانقطعت عن طرح الاسئلة ، وأخذت أقرأ « وداعاً ايتها المراهقة » لمورياك واحفظ منه مقاطع حزينة كنت انشدها في الطرقات .

ولئن ظللت حريصة على هذا الحب ، فلأني حفظت دائماً لجاك تعلقاً عميقاً عبر شكوكي كلّها . لقد كان جذاباً ، وقد ترك في نفوس كثيرة آثاراً بعيدة . ولقد أحسستني مرتبطة به بميثاق يشعرني بأن « سعادته وخلاصه » كانا شيئاً أكثر ضرورة من سعادتي وخلاصي . وإذا كان جاك لم يخلق لي ، فان احداً لم يخلق لي ، ولا بدّ من العودة إلى وحدة مريرة قاتلة !

لقد كان تشكّكه ينمّ عن تبصّره . كان يجرؤ على أن يصارح نفسه بأنه ليس ثمة غاية تستحق اي جهد . هل كان يضيع وقته في المشارب ؟ لقد كان يفرّ فيها من يأسه ، وكان يتفق له ان يلتقي فيها بالشعر.

ولقد كان سبب تعلقي الشديد به ان حياتي كانت تبدو لي فارغة عابثة خارج إطار ذلك الحب . إن جاك لم يكن إلاّه ، ولكنه كان يصبح كل شيء مع الزمن : كل ما لم أكن أملكه . لقد كنت مدينةً له بمباهج ومتاعب كان عنفها وحده ينقذني من الضجر القاسي الذي كنت غارقة فيه.

٦

عادت زازا إلى باريس في أوائل اكتوبر . وكانت قد قصّت شعرها الجميل الاسود بحيث برز وجهها الهزيل بروزاً جميلاً . وفي اليوم الذي لقيتها فيه ، قضينا بعد الظهر على شاطئ السين وفي حديقة التويلري ، وكانت تحتفظ بذلك المظهر الرصين الحزين الذي أصبح مألوفاً لديها ، وأخبرتني ان أباها قد تسلّم عملاً هاماً في مصانع سيارات « سيتروين » وسيربح أموالاً طائلة وانهم سينتقلون إلى منزل فخم بشارع « بيري » وانهم اشتروا سيارة وسيكونون مدعوين إلى الخروج كثيراً وإلى استقبال الناس أكثر من ذي قبل. ولم يكن ذلك ليفتن زازا على ما يبدو ، فقد أخذت تحدثني بنفاد صبر عن هذه الحياة الاجتماعية الواسعة التي بدأوا

يفرضونها عليها ، وأدركت انها إذا كانت تتردد إلى الأعراس و إلى حفلات الدفن والعمادة ودعوات الشاي والعشاءوالاسواقالخيرية والامسيات الراقصة ، فان ذلك لم يكن بداعي المرح أو الرضى ، فلقد كانت تحكم على مجتمعها بأقسى مما كانت تحكم عليه في السابق ، بل هو أصبح أثقل عليها من قبل . وكنت قد أعرتها بعض الكتب قبل العطلة ، فقالت لي أنها حملتها على التفكير الطويل ، وانها أعادت قراءة « مولن الكبير » ثلاث مرات ، وانها لم تقرأ من قبل رواية خلّفت لديها ما خلفته هذه من تأثير وانفعال . وخيّل إليّ فجأة انها شديدة القرب مني ، وحدثتها قليلاً عن نفسي ، فاذا هي توافقني على كثير من الافكار . وقلت لنفسي حين تركتها ذلك المساء « ها قد لقيت زازا من جديد ! »

وتعودنا أن نخرج إلى النزهة كل صباح أحد . ولم يكن ممكناً لنا ان نجتمع رأساً إلى رأس تحت سقف بيتها أو تحت سقف بيتي ، وكنا نجهل تماماً عادة ارتياد المقاهي ، فكنا نذرع ممرات حديقة اللكسمبورغ أو شارع الشانزليزه ، وكنا في أوقات الصحو نجلس على الكراسي الحديدية بجانب العشب . وكنا نستعير الكتب نفسها من احدى المكتبات ونقرأ مراسلات الين فورنيه وجاك ريفير ، ونتناقش ونعلّق على حياتنا اليومية . وكانت زازا تعاني مع أمها صعوبات جمّة ، وكانت أمها تأخذ عليها ان تكرّس أكثر مما ينبغي من وقتها للدرس والمطالعة والموسيقى وان تهمل «واجباتها الاجتماعية» .وكانت الكتب التي تقرأها زازا تبدو لها مشبوهة فتقلق عليها ، وكانت زازا تكنّ لامها الاحترام نفسه الذي كانت تكنّه في الماضي ، ولم تكن تحتمل ان تسيء اليها « ولكنّ هناك أشياء لا أريد ان أتراجع عنها » ، هذا ما قالته لي بصوت مضطرب . وكانت تخشى ان تقوم بينها وبين أمها في المستقبل الوان اعنف من النزاع . لسوف ينتهي الامر بأختها « ليلي » إلى الزواج من فرط تعدد زياراتها ومقابلاتها لا سيما وانها قد جاوزت الآن الثالثة والعشرين . وعند ذاك سيفكرون في تزويجها هي ،

وقد قالت لي في ذلك « انني لن أدعهم يفعلون ، وسوف أجدني مضطرة إلى أن أتخاصم مع أمي . » وقلت لها أشياء كثيرة من غير ان احدثها عن جاك وعن تطوري الديني . وفي صبيحة تلك الليلة التي قضيتها وأنا أبكي ، بعد أن تناولت العشاء مع جاك ، أحسستني غير قادرة على أن أعيش وحدي حتى المساء ، فذهبت أطرق باب زازا ، وما إن جلست تجاهها ، حتى انفجرت باكية ، فبلغ من إشفاقها عليّ اني وجدتني أروي لها كل شيء .

وكنت أقضي معظم ساعات نهاري أعمل على عادتي في الكتب . وكانت الآنسة لامبير تعطي ذلك العام دروساً في المنطق وتاريخ الفلسفة، وبدأت باعداد هاتين الشهادتين ، وكنت مسرورة بعودتي إلى الفلسفة . فلقد ظللت شديدة التأثر لغرابة حضوري على هذه الارض ، ما هو مصدره ، وإلى أين اتجاهه؟وكنت أفكر طويلاً بذلك وأنا شبه مذعورة ، لقد سجلت في مذكراتي انه يخيل إليّ اني كنت « ضحية لعبة سحرية لا تكاد تفهم . » وبدأت اتلمّس الفهم عبر أنظمة ديكارت وسبينوزا ، وكانا احياناً يحملانني إلى مكان مرتفع جداً ، في اللانهاية، فأرى الارض تحت قدمي كأنها بيت نمل ، ولا أرى احياناً الا مجموعة من التركيبات لا علاقة لها بالواقع . ودرست « كانت » فأقنعني بأن ليس هناك من يستطيع أن يكشف لي باطن الأمور . وبدا لي نقده من العمق والحكمة بحيث أزال من نفسي الحزن ، ولكنه أخفق في أن يشرح لي العالم نفسه ، فلم أعد أدري ما عساي التمس من الفلسفة .. وكانت الآنسة لامبير قد عزمت على ان تهتم بي وهذا ما سرّني . وكنت أتسلّى في أثناء دروس المنطق بأن اتأملها . وكانت ترتدي دائماً اثواباً زرقاء بسيطة ، وكنت اجد حيوية نظرها الدائمة رتيبةً بعض الشيء ، ولكن كانت تدهشني دائماً بسماتها التي كانت تحوّل قناعها القاسي إلى وجه من لحمٍ ودم . وكان يقال إنها فقدت خطيبها في أثناء الحرب وأنها على أثر هذا الحداد

انعزلت عن الحياة العامة . ولكنها كانت تجذب اليها الفتيات اللواتي كان عدد منهن يلتحق بدروسها حباً فيها. وكان هذا سواء لديّ . فقد كنت أرى انه لا يكفي المرء أن يفكر فقط ، ولا أن يعيش فقط ، ولم اكن أحترم تماماً إلاّ الأشخاص الذين « يفكرون حياتهم » وكانت الآنسة لامبير « لا تعيش » . كانت تعطي دروساً وتعدّ رسالة ، وكنت أعتبر حياتها جافة جداً . على انه كان يروق لي أن أجلس في مكتبها الأزرق استمع اليها ترشدني إلى بعض الكتب وتسألني عن نفسي بالحاح من غير ان تحرجني ، وأقرتني على ان افقد الايمان ، وكنت احدثها عن أشياء كثيرة وعن قلبي . وقد سألتها عما إذا كان من الواجب ان يخضع الانسان للحب أم للسعادة ؟ فنظرت إليّ بضيق وقالت :

– أتعتقدين يا سيمون ان بوسع امرأة ان تحقق نفسها خارج الحب والزواج ؟

لا شك في أن لها هي أيضاً مشكلاتها ، ولكنها كانت المرة الاولى التي تشير إلى ذلك وانما كان دورها ان تساعدني على حلّ مشكلاتي : وكنت أستمع اليها من غير حماس لأني لم أكن أستطيع ان أنسى انها تعلّق كل شيء على السماء ، ولكن ثقتها كانت تشجعني .

وكنت قد سجّلت اسمي في تموز في « الفرق الاجتماعية » ، فوضعتني المديرة على رأس فرقة « بيلفيل » ، واستدعت الرؤساء المسؤولين في اكتوبر لتوزع عليهم النصائح والارشادات ، وكانت الفتيات اللواتي التقيت بهن في هذا الاجتماع يشبهن بصورة مؤسفة زميلاتي القديمات في معهد « ديزير » . وكانت لي مساعدتان وُكِلَ إلى احداهما تدريسي الانكليزية وإلى الأخرى الرياضة ، وكانتا تقتربان من الثلاثين ولا تخرجان قط إلاّ بصحبة ذويهما في المساء . وكانت فرقتنا تقيم في مركز للمساعدة الاجتماعية تديره فتاة طويلة جميلة في حوالى الخامسة والعشرين وتدعى « سوزان بواغ » وقد أحببتها . ولكن نشاطي الجديد لم يمنحني إلا قدراً يسيراً من

الرضى . وكنت مرة في الاسبوع أشرح طوال ساعتين بلزاك أو فيكتور هوغو امام عاملات صغيرات كنت أعيرهن الكتب واحدثهن طويلاً ؛ على انهن كنّ يقصدن المركز ليلتقين فيما بينهن . وكان المركز يضم كذلك فرقة من الشباب ، فكانت الحفلات الراقصة تجمع بين الفريقين غالباً ؛ فاذا الذي يجذبهم هو الرقص والمغازلة وما يتبع ذلك أكثر من الدروس والمحاضرات .. وكنت أجد هذا طبيعياً . كانت تلميذاتي يشتغلن طوال النهار في مخازن للخياطة أو للموضة ، ولم تكن للمعارف التي تعطي لهنّ اية صلة بتجربتهن ولم تكن تفيدهن في شيء .

والحق ان ما كنت أحبّه في هذه الفرق هو انها كانت تتيح لي أن أقضي أمسية بعيدة عن البيت . وكنت قد استعدت مع أختي علاقة حميمة ، وكنت احدثها عن الحب والصداقة وعن السعادةواشراكها وعن مباهج الحياة الداخلية . وعلى العكس ، لم تتحسن علاقاتي مع أهلي، وكان ابي يلومني على ان افقد حسّ الأسرة وأفضل عليه الاجانب ، وكانت أمي تجد عواطفي نحو زازا مبالغاً فيها . وكانت مطالعاتي موضوعاً آخر لتزاعنا ، ولقد امتقع وجه أمي حين قلّبت صفحات « الليل الكردي » لجان ريشار بلوك ، وكانت تشكوني للجميع . وكم كانت الامسيات تبدو لي طويلة حزينة ! وكانت أمي لا تني تسألني :

— بمَ تفكرين ؟ ما بالك ؟ لماذا تظهرين بهذه الهيئة ؟ طبعاً ، انك لا تريدين ان تصارحي امك بشيء !

وكنت لا ألجأ إلى النوم الا مرهقة ثائرة الاعصاب . وهكذا كانت ايامي تمضي بحزن . وكنت قد مللت الكتب لأني قرأت عدداً كبيراً منها، كانت كلّها تردّد اللازمة نفسها ولم تكن لتحمل لي أملاً جديداً . وكنت اوثر ان أقتل الوقت في أروقة الرسم أتأمل بعض اللوحات . على ان الملل كان يعاودني ، ومعه اليأس . وكنت انتظر ان امتزج بالعالم ولكنهم سجنوني في القفص ثم نفوني . ولقد تحررت من ذلك بأن قطعت صلتي

بماضيّ ، بوسطي ، ولكن أية خيبة الآن ! كان عليّ أن أخدم : ولكن أخدم ماذا ؟ ومن ؟ لقد قرأت كثيراً وفكرت وتعلمت ، وكنت أقول لنفسي انني أصبحت غنية ، وبدت لي الحياة من الامتلاء بحيث سعيت إلى أن استعمل كل شيء فيّ لاستجيب لنداءاتها ، ولكنها كانت فارغة في الحقيقة . كنت احسّ اني املك من القوى ما يمكنني من أن أقلب الأرض ، ولكنني لم أكن اجد حصاة واحدة أحركها . كانت خيبتي شديدة : « انني أكثر جداً مما أستطيع عمله » . ولم يكن يكفي ان اعدل عن المجد والسعادة ، بل لم أعد أطلب ان تكون حياتي خصبة ، ولم أكن أطلب شيئاً ، وتعلّمت بألم « عقم الوجود » . كنت أعمل لتكون لي مهنة ، ولكن المهنة وسيلة : نحو اية غاية ؟ الزواج ؟ ما الفائدة منه ؟ تربية الأولاد أو تصحيح الوظائف : انها نفس المهنة المملّة . لقد كان جاك على صواب : ما الفائدة؟ كان الناس يستسلمون لأن يوجدوا عبثاً ، أما أنا فلا . لقد كنت اريد مطلباً لا يترك لي أن اهتم بأي شيء آخر ولكني لم ألق مثل هذا المطلب ، حتى انني عمّمت حالتي الخاصة وانا في نفاد الصبر ذلك : « لا شيء يحتاجني ، لا شيء يحتاج احداً ، لأنه لا شيء بحاجة لأن يوجد ! »

ولكن لماذا تراني كنت اردّد بحزن بأن كل شيء كان عبثاً ؟ الحق ان الألم الذي كنت أشكوه هو اني طردت من جنة الطفولة ولم أجد لي مكاناً بين الكبار . لقد أقمت في المطلق ليمكنني ان انظر من أعلى هذا العالم الذي كان يقذفني . الحب ، العمل ، التأليف الأدبي : لقد كنت اكتفي بتحريك الافكار في رأسي وأنتهي إلى لا معنى الحقيقة . لقد كنت تائهة عبر ضباب كثيف وكنت أظنه شفافاً ، ولم أكن أفكر بوجود الاشياء التي كانت تفلت من نظري .

كان كل شيء يعمل على ان يقنعني بأن الأشياء الانسانية كانت قاصرة : وضعي الخاص ، تأثير جاك ، الايديولوجيات التي كانوا

يلقنوني اياها ، أدب ذلك العهد . كان معظم الكتّاب يفصّلون « قلقنا وحيرتنا » ويدعونني إلى يأس بصبر . ولقد دفعت هذه العدمية إلى ذروتها . كان كل دين وكل أخلاق خدعة، بما في ذلك « فكرة الأنا »، وكان أفضل موقف يتخذه المرء هو ان يحذف نفسه . ولقد كنت في الحق معجبة بتلك الانتحارات المتيافيزيقية ، ولكني لم أفكر بأن ألجأ اليها ، لأني كنت أخشى الموت أكثر مما ينبغي .

ومع ذلك فقد كان الموت يتأكلني ، وكنت استفظعه لا سيما واني لم أكن اجد أسباباً وجيهة للحياة . غير اني كنت احب الحياة حباً محموماً ، وكان يكفيني شيء يسير ليعيد إليّ ثقتي بها : رسالة من تلميذة ، أو ابتسامة ، أو نظرة من زازا أو كلمة لطيفة . لقد كان الافق يضيء أمامي ما ان أشعر بأني محبوبة أو نافعة وأعود إلى التعهد بان أكون محبوبة وضرورية ولازمة . ويوم بلغت التاسعة عشرة ، كتبت في مكتبة السوربون حواراً كان يتجاوب فيه صوتان كلاهما كان لي : كان أحدهما يتحدث عن عبث الأشياء كلها ، والثاني يؤكّد ان الحياة جميلة . على ان الشعور الذي طغى عليّ طوال الخريف والشتاء هو القلق من أن أجدني يوماً وقد « قهرتني الحياة » .

كانت هذه الشكوك والذبذبات تثير جنوني ، وكان الضجر يخنقني وأنا أسير في شوارع باريس وقد غشّى نظري الدمع ، ولكني كنت اردد عبارة « هاين » في سخرية : « مهما كانت الدموع التي يذرفها المرء ، فسينتهي به الأمر إلى أن يتمخّط . » وكنت إحبّ ان أشعر بحرقة الدمع في عيني ، ولكن جميع أسلحتي كانت أحياناً تسقط من يدي ، فألتجئ إلى ركن من كنيسة لأستطيع ان أبكي في سلام ، فأظلّ منحنية ورأسي بن يدي ، تخنقني ظلمات مريرة .

٧

عاد جاك إلى باريس في أواخر كانون الثاني . وفي اليوم التالي أقبل يطرق بابنا . وكان أهلي قد أخرجوا صوراً لي بمناسبة بلوغي التاسعة عشرة فطلب مني جاك احداها ، وكان في صوته رعشة ودّ لم أعرفها من قبل . وكنت ارتجف ، بعد ثمانية أيام حين طرقت باب بيتهم ، وكنت أخشى انتكاسة لودّه . ولكن مقابلتنا سحرتني ، وكان جاك قد بدأ كتابة رواية بعنوان « البورجوازيون الشبان » وقال لي :

– انما اكتبها من أجلكِ انتِ .

وقال انه سيهديني إيّاها . وقد عشت في نشوة كبيرة بضعة أيام ؛ وحدثته عن نفسي في الاسبوع التالي ، ورويت له ضجري ، واني لم أعد أجد أي معنى للحياة ، فأجابني بلهجة رصينة :

– لا حاجة لمثل هذا الاهتمام،وانما يجب أن تعيشي يومك بكل بساطة ؛ ثم أضاف :

– يجب ان يكون لدى الانسان التواضع لكي يعترف بأنه لا يستطيع وحده ان يتدبر امره في هذه الحياة . وانما من الايسر ان يعيش المرء لإنسان آخر .

وابتسم لي ثم قال :

– الحلّ هو أن يحقق أنانيةً لاثنين .

ورددت هذه العبارة ، وتلك البسمة ، وانقطعت عن الشك : لقد كان جاك يحبني وسوف نتزوج ، ولكن كان هناك شيء مغلق من دون شك : ذلك ان سعادتي لم تدم أكثر من ثلاثة أيام . لقد عاد جاك لزيارتنا فقضيت معه أمسية مرحة جداً ، وبعد ذهابه تلاشيت وأنا أقول: « ان عندي كل شيء لأكون سعيدة ، ومع ذلك فأود ان أموت ! إن لحياة هناك تترصّدني ، وهي على وشك ان تنقضّ عليّ .. انني وجيدة

لم أنا خائفة وسأظل وحيدة ابداً ... لو كان بامكاني ان افرّ ؟ ولكن إلى أين ؟ إلى أي مكان .. حبذا لو يأخذنا زلزال كبير » .

لقد كان الزواج في رأي جاك ان يضع الانسان نهاية لنفسه ، وانا لم أكن أود ان انتهي بهذه السرعة . ولقد ظللت اتخبّط طوال شهر ، وكنت أقنع نفسي أحياناً ان بوسعي ان أعيش إلى جانب جاك من غير أن أتشوّه . ثم يعود الذعر ليستولي عليّ : « ان احجز نفسي في حدود انسان آخر ! فظيع هذا الحب الذي يقيّدني ، الذي لا يتركني حرّة .. كم اودّ لو أحطم هذه الصلة ، لو أنسى ، لو أبدأ حياة أخرى ... لا ، لم يحن الوقت بعد ، انني لا أريد هذه التضحية بنفسي كلها . »

ومع ذلك فقد كنت أكنّ لجاك اندفاعات حبّ كبيرة ، ولم أكن اعترف بذلك الا باقتضاب : « انه لم يخلق لي » وكنت اوثر أن أحتجّ بأني لم أخلق للسعادة ولا للحب .. ولقد كنت أخشى ان يقودني عطفي علي إلى أن أصبح زوجته ...

وكانت لجاك هواياته أيضاً . كان يوجّه لي ابتسامات ساحرة وهو يقول :

ــ ان هناك كائنات غير قابلة للاستبدال .

ثم يشملني بنظرة منفعلة ، وكان يطلب مني ان أعود لرؤيته قريباً ، فاذا هو يستقبلني بفتور . وقد سقط مريضاً في أول آذار فعُدته عدة مرات ، وكنت دائماً اجد أمام سريره بعض أقربائه ،وقد قال لي مرة :

ــ تعالي غداً لنتحدث بهدوء .

وفي اليوم التالي توجهت إلى منزله وأنا شديدة التأثر ، واشتريت باقة من البنفسج علّقتها في عروة ثوبي ، ولكني عانيت من تعليقها ، وكان ان أضعت في أثناء ذلك محفظتي . ولم يكن فيها شيء كثير ، ولكني مع ذلك وصلت ثائرة الاعصاب إلى بيت جاك . وكنت قد فكرت طويلا بهذا اللقاء المنعزل في غرفته . ولكني لم أجده وحده ، بل وجدت عنده

«لوسيان ريوكور» الذي سبق ان لقيته : انه شاب أنيق لا مبال يتحدث جيداً . وظلاّ يتحدثان فيما بينهما عن المشاوب التي كانا يترددان اليها وعن الاصدقاء الذين كانا يلتقيان بهم فيها ، وعن النزهات التي ينويان القيام بها في الاسبوع القادم . وشعرت أن وجودي كان ثقيلاً غير مرغوب فيه : لم يكن معي مال ، ولم أكن أخرج في المساء ، ولم أكن إلاّ طالبة صغيرة غير قادرة على أن تشارك جاك حياته الحقيقية . وكان إلى ذلك سيء المزاج ، وبدا ساخراً ذلك المساء بل مهاجماً . وسارعت بالفرار فودّعني برضى لا شك فيه . وأخذني الغضب وشعرت اني أحتقره . أيّ شيء غير عادي فيه ؟ لقد كان هناك كثيرون أفضل منه ، ولقد خدعت نفسي إذ اعتبرته صنواً لمولن الكبير. لقد كان غير مستقر ، وكان أنانياً ولم يكن يحب إلا التسلية . ومشيت غاضبة في الشوارع وانا اعاهد نفسي على أن افصل حياتي عن حياته . وفي اليوم التالي عاودتني السكينة ، ولكني كنت قد عزمت على ان أنقطع عن زيارته مدة طويلة. ولقد بقيت على عهدي ، وقضيت أكثر من عشرة أسابيع من غير ان أراه .

٨

لم تفتح الفلسفة لي السماء ، ولم تُرْسِني في الارض. غير اني مع ذلك ، بدأت أهتم بها بعد ان جاوزت الصعوبة في أول العام . وقرأت برغسون وأفلاطون وشوبنهور وليبنتز وهملن ، وخصوصاً نيتشه . وكان هناك عدد من الموضوعات يشغلني : قيمة العلم والحياة والمادة والزمن والفن . ولم تكن عندي نظرية محدّدة ؛ ولكني كنت أعرف على الأقل اني اطرح ارسطو والقديس توما ومارتيان وجميع الفلسفات الاختبارية والمادية . وكنت أنتمي بالاجمال إلى المثالية النقدية كما كان يعرضها لنا برنشفيك بالرغم من انها لم تكن تكفيني في عدة نقاط . واستعدت حبي للأدب ،

فقرأت بريتون واراغون ، واستولت عليّ السيريالية . وباحت في نفسي فلسفة القلق والحيرة ، في حين بدأت تسحرني مبالغات النكران : تحطيم الفن والاخلاق واللغة ، واليأس المدفوع حتى الانتحار .

وكان بودي ان اتحدّث عن هذه الأشياء وعن جميع الأشياء مع أشخاص ينجزون عباراتهم ، على عكس جاك . وكنت اسعى إلى مضاعفة معارفي . وكان يروق لي أن أتحدث طويلاً في « بيلفيل » مع « سوزان بواغ » ، وكان لها شعر كستنائي قصير وجبهة عريضة وعينان زرقاوان صافيتان ولون من الجرأة . وكانت تكسب حياتها كمديرة للمركز الذي تحدثت عنه ، وكان عمرها واستقلالها ومسؤولياتها وسلطتها تكسبها لوناً خاصاً من السحر والتأثير . وكانت مؤمنة ، ولكنها تركت لي ان أفهم ان علاقاتها مع الله لم تكن دائماً على ما يرام . وكان ذوقنا في الادب متفقاً تقريباً ، وقد لاحظت برضى انها لم تكن مخدوعة لا « بالفرق » ولا « بالعمل » بصورة عامة ، وقد اسرّت لي أنها تريد ان تعيش، لا أن تنام : وانها هي أيضاً كانت يائسة من أن تجد على الارض شيئاً آخر غير المخدّرات . وكانت تتمنى مثلي ان تجد مكانها الحقيقي في هذا العالم. وفي مطلع الربيع وقعت فجأة في حبّ زميل لها تقيّ من زملاء «الفرق» فعزما على الزواج ، ولكن الظروف كانت تفرض عليهما انتظار عامين ، غير أن الحب لا يعبأ بالزمن ، كما قالت لي . وكانت تشع اشعاعاً ، وقد شُدهت حين أبلغتني بعد أسابيع انها قطعت صلتها بخطيبها . فقد كان بينهما جاذب جسدي اعنف مما ينبغي ، وقد ذُعر الشاب من كثافة قبلاتهما ، وكان قد طلب من سوزان ان يؤمّنا طهارتهما بالغياب ، فينتظر أحدهما الآخر عن بُعد ، ولكنها فضلت ان تنهي معه علاقتها . وقد وجدت هذه القصة غريبة ولم أعرف مفتاحاً لها ، ولكن خيبة سوزان أثّرت فيّ ووجدتُ جهدها للتغلب عليها امراً يستحق العطف والتقدير .

وبدا لي الطلاب الذين كنت احاذيهم في السوربون ، فتيات وفتياناً ،

أشخاصاً تافهين : كانوا يتنقّلون عصابات ، ويضحكون باصوات جد عالية ولا يعنون بشيء ويكتفون بهذه اللامبالاة . غير اني تنبّهت في دروس تاريخ الفلسفة إلى وجود شاب بعينين زرقاوين رصينين وثياب سوداء ، لا يكلم احداً إلا فتاة قصيرة سمراء كان يبتسم لها كثيراً ، وكان يبدو أكبر مني سنّاً . وكان جالساً ذات يوم في المكتبة يترجم رسائل لانجلز ، فأخذ الطلاب يضجّون ويصخبون ، فاذا بعينيه ترسلان الشرر ، ثم صاح بهم يطلب السكوت بصوت نافذ حتى انهم أطاعوه فوراً ، فقلت في نفسي « انه لشخصية » . ونجحت في أن احدّثه بعد ذلك كلما كانت الفتاة السمراء غائبة . وذات يوم ، سرت معه بضع خطى على شارع سان ميشال ، وسألت أختي في المساء عما إذا كانت تحكم على تصرفي بأنه غير سليم ، فطمأنتني وأعدت الكرة بلقائه . وكان بيير نوديه ينتمي إلى فرقة « فلسفات » التي كان ينتمي اليها موهرانج وفريدمان وهنري لوفيفر وبولتيزر ، وكانوا قد أسّسوا بفضل مساعدة احد آبائهم ، وكان غنياً ، مجلة كانوا يعبرون فيها عن آرائهم ، ولكن هذا الأب اغتاظ يوماً من مقال ضد الحرب في مراكش فقطع عنهم المساعدة . ولم يمض وقت طويل حتى بُعثت المجلة مرة أخرى تحت عنوان « ليسبري » — الفكر — وقد أعطاني بيير نوديه جزءين منها ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتصل فيها بمثقفين يساريين . على اني لم أشعر بتغيّر الجو ، وانما سمعت اللغة التي عوّدني عليها أدب ذلك العصر . لقد كان هؤلاء الشباب يتكلمون هم أيضاً عن النفس والخلاص والفرح والخلود ، وكانوا يقولون إن على الفكر أن يكون « متجسّداً وحسّياً » ولكنهم يقولون ذلك بعبارات مجرّدة . ولم تكن الفلسفة في نظرهم تتميّز عن الثورة التي كان أمل الانسانية الوحيد يكمن فيها : ولكن بولتيزر كان يرى في تلك الفترة ان « المادية التاريخية يمكن أن تنفصل عن الثورة » وكان يؤمن بقيمة الفكرة المثالية شرط ان تؤخذ في

كلّيتها الحسّية ودون أن تتوقف عند مرحلة التجريد : ولم يكن للسياسة والاقتصاد في نظرهم الا دور ثانوي ، وكانوا يشجبون الرأسمالية لأنها هدمت في الانسان « معنى الكائن » ويعتبرون أن « التاريخ يخدم الحرية » عبر ثورة شعوب آسيا وافريقيا . وكان فريدمان يحطّم ايديولوجية الشبان البورجوازيين وحبهم للقلق والحيرة ، ولكنه كان يُحلّ محلّ ذلك لوناً من التصوّف ، ويرى ان الأمر هو ان يستردّ الناس « الجزء الخالد من نفوسهم » . وقد عرّف بوليتزر الحياة بعبارة أثارت ضجة كبيرة : « إن حياة البحّار المنتصرة القاسية ، حياة البحار الذي يطفئ سيجارته على جدار الكرملين تخيفك ولا تودّ ان تسمع من يتحدث عنها ، ومع ذلك فهذه هي الحياة » .

والواقع ان أحاديثي مع نوديه بدأت توسّع افق تفكيري . وكنت أطرح عليه كثيراً من الاسئلة ، وكان يجيبني برضى ، وقد وجدت في هذه الأحاديث من الفائدة ما حملني على التساؤل بحزن أحياناً : لماذا لم يكن من نصيبي ان أحب رجلاً كهذا يقاسمني حبي للفكر والدرس وأحرص عليه بذهني كما أحرص بقلبي ؟ وقد تولاّني الأسى حين ودعني في باحة السوربون في أواخر شهر نوار . وكان يودّ السفر إلى استراليا حيث حصل على وظيفة ، وكانت الفتاة السمراء تصحبه . وشدّ على يدي وقال لي بلهجة عميقة « اني أتمنّى لك خيراً كثيراً » .

وفي أوائل آذار قدمت شهادة تاريخ الفلسفة بنجاح ، وتعرفت في هذه المناسبة إلى فريق من الطلاب اليساريين ، فطلبوا مني ان أوقّع على مذكرة : كان بول بونكور قد قدم مشروع قانون عسكري يطلب فيه تجنيد النساء . وكانت مجلة « اوروبا » قد فتحت حملة احتجاج . وقد ظللت مدة حائرة . لقد كنت اقرّ مساواة الجنسين ، أو لم يكن واجباً في حالة الخطر ان تشترك المرأة في الدفاع عن وطنها ؟ وقد قلت بعد ان قرأت مشروع القانون : « حسناً ! إنه هذه وطنية طيبة » ، فضحك الشاب السمين الذي كان يطوف بالمذكرة لتوقيعها وعلّق قائلاً :

– يجب ان نعرف إذا كانت الوطنية طيبة !

وكان هذا سؤالاً لم يسبق لي ان طرحته على نفسي قط ، فلم ادر بمَ أجيب عليه . وشرحوا لي ان القانون سيؤدي إلى تجنيد عام للضمائر ، وهذا ما جعلني اقرّر : إن حرية الفكر مقدّسة على أي حال ، ثم ان جميع الآخرين كانوا يوقّعون ، فلا بدّ ان أوقّع .

وتوقّفت نشاطاتي السياسية عند هذا الحد ، وظلت افكاري يغشاها الضباب . وكنت على يقين من شيء هو اني كنت أكره اليمين المتطرف .

وبقيت زازا صديقتي الحقيقية الوحيدة . ولكن المؤسف ان أمها بدأت تنظر إلي نظرة سيئة ، وتعتقد ان ابنتها انما تفضل الدروس على الحياة العامة بسبب تأثيري فيها ، ولأني كنت اعيرها كتباً مريبة . وكانت السيدة مابيل تكره مورياك كرهاً شديداً ، وتعتبر تصويره للبيوت البورجوازية إهانة وشتيمة ، كما كانت تحذر كلوديل الذي كانت زازا تحبه لأنه كان يساعدها على أن توفق بين السماء والارض . وقد أتت أمها أكثر من مرة تشكوني إلى أمي ، ولم تُخفِ على زازا أنها تفضل ان نباعد ما بين لقاءاتنا ، ولكن زازا رفضت ذلك ، وكانت صداقتنا احد تلك الامور التي لم تكن تريد ان تتراجع عنها ، وكنا نتلاقى غالباً وندرس اليونانية معاً ونقصد حفلات الموسيقى ومعارض الرسم . وكانت غالباً تعزف لي على البيانو مقطوعات لشوبان ودو بوسي ، وكنا نتنزه كثيراً . وقد تلقيت من زازا يوماً رسالة بعثتها إليّ من « لوباردون » حيث ذهبت تقضي عطلة الفصح ، وقد أثرت فيّ الرسالة تأثيراً عميقاً :

« لقد عشت منذ الخامسة عشرة من عمري في وحدة كبيرة وكنت أتألم من إحساسي بالعزلة والضياع . ولكنك انت وضعت حداً لهذه الوحدة ... ولقد عشت طويلاً وعيناي متجهتان نحو الماضي من غير ان أستطيع انتزاع نفسي من سحر ذكريات الطفولة . »

أما أنا فقد اراحني جداً اني انقطعت عن رؤية جاك ، لأني لم أعد

أتألم . وقد ادفأت أشعة الشمس الاولى دمي ، وعزمت على ان أتسلّى فيما انا أواصل عملي الجادّ . وكنت أقصد السينما غالباً بعد الظهر ، وكانت أمي تصحبني مع أختي إلى المسرح احياناً ، وكانت تلك الامسيات تنير لي حياتي . وكنت في أثناء النهار اتردد إلى المعارض وأذرع طويلاً اروقة متحف اللوفر ، واتنزه في شوارع باريس دون أن أبكي ، وأنا انظر إلى كل شيء . وكنت احب الامسيات التي كنت أهبط فيها ، بعد العشاء ، إلى المترو وحدي فأخرج إلى الطرف الآخر من باريس حيث تنبعث رائحة الرطوبة والخضرة ، وكنت غالباً ما أعود إلى المنزل مشياً على الاقدام . وكنت ارى في شارع « لاشبيل » نساء يترصدن الرجال ، ورجالاً يخرجون من المشارب وهم يتمايلون . كان العالم حولي حضوراً عظيماً مختلطاً ، كنت أسير على عجل وأنا أشعر بانفاسه الثقيلة تلفحني . وكنت أقول إن الحياة جميلة بالاجمال .

وانتعش طموحي . ولكني ظللت أشعر بوحدتي رغم صداقاتي ورغم حبي المشكوك فيه . لم يكن هناك أحد يعرفني ويحبني كما انا كليّاً . وكنت أفكر انه ليس بوسع احد قط ان يكون بالنسبة لي شيئاً نهائياً وكاملاً . وبدلاً من ان استمر في معاناة الألم من ذلك ، رأيتني ارمي بنفسي من جديد في الكبرياء . وكانت عزلتي تكشف عن تفوقي ، ولم أعد اشك في اني كنت شخصاً ما واني سأقوم بعمل ما . وبدأت أجمع موضوعات روايات للكتابة . وقد بدأت ذات صباح في مكتبة السوربون تأليف « كتابي » وقلت في نفسي انني سأنجز هذه الرواية في السنة القادمة « كتاب أقول فيه كل شيء » . وألححت في مذكراتي على هذه الرغبة بأن أقول كل شيء بالرغم من ان هذا كان يتناقض مع فقر تجربتي . وكانت الفلسفة قد عززت ميلي إلى التقاط الأشياء في جوهرها ، في جذورها ، تحت مظهر الكلية ، ولما كنت اتحرك وسط تجريدات فقد حسبت اني اكتشفت بصورة حاسمة حقيقة العالم . وكان تفوقي على الآخرين يرجع إلى اني

لم أكن اترك شيئاً يفلت مني ، ولا شك في ان كتابي سيستمد قيمته من هذه الميزة الاستثنائية .

وكنت أتذكر أحياناً ان كل شيء بلا جدوى ، ولكني كنت اطرح هذه الفكرة ، وآخذ في الردّ على سؤال جاك « ما الفائدة ؟ » في محاورات خيالية معه . لم تكن لي إلا حياة أعيشها ، وكنت اودّ ان أنجح فيها ، ولن يستطيع احد أن يمنعني من ذلك ، حتى ولا هو . ولم أترك وجهة نظر المطلق ، ولكن لما كان كل شيء خاسراً من تلك الزاوية ، فقد عزمت على الاّ اهتمّ بها . وكنت أحب كثيراً كلمة « لانيو » : « ليس لي من سند إلاّ يأسي المطلق » فاذا قام هذا اليأس ، ما دمت مستمرة في العيش ، فيجب عليّ ان اتدبّر امري في الأرض على أفضل طريقة ممكنة ، أي ان أعمل ما يروق لي .

وقد أدهشني قليلاً ان استغني بهذه السهولة عن جاك . ولكن الواقع اني لم أكن مشتاقة اليه قط . وقد أخبرتني أمي في أواخر نيسان انه مندهش لانقطاعي عنه ، فذهبت أطرق بابه ، ولم يحدث لي شيء. كان يخيّل إليّ ن هذا التعلق لم يكن بعد من الحب ، بل انه كان يثقل عليّ قليلاً . « إنني لا أرغب حتى في رؤيته بعد ». وكان قد انقطع عن تأليف كتابه ، وأحسب انه لن ينجزه ابداً . وقد قال لي بترفّع : « سيداخلني الشعور بأني اتعاطى البغاء ! » وقمنا بنزهة في السيارة وحدثني حديثاً بدا لي فيه مرتبكاً من نفسه ، فشعرت بأني أدنو منه من جديد . وقلت في نفسي انه لا يحق لي في آخر المطاف ان انزع منه شذوذاً هو شذوذ الحياة نفسها إذ تقذف بنا نحو غايات ثم تكشف لنا عدميتها . وآخذت نفسي على قسوتي ، واكّدت لنفسي أن جاك « خيرٌ من حياته » ولكني كنت أخشى ان تبوخ حياته آخر الامر . ولاأدري لماذا كان يداخلني احياناً ذلك الشعور : « انني أتألم حين افكر فيك، ولا أدري لماذا تبدو حياتك مفجعة .

٩

وكانت دورة حزيران تقترب ، وكنت قد تعبت من العمل فلجأت إلى الاسترخاء ، وحققت فراري الاول إذ زعمت لأمي أنّ هناك جلسة خيرية في « بلفيل» فانتزعت منها إذناً بالسهر إلى منتصف الليل وعشرين فرنكاً . وابتعت تذكرة لمشاهدة فرقة « الباليه » الروسية في مسرح « ساره برنارد » . وبهرتني هناك الانوار والحرير والفراء والجواهر والعطور ، ورأيتني أسبح في عيدٍ ليلي كبير كنت قد ترصّدت أنواره في السماء طويلاً . واحسبني لم أبهر بمثل هذا منذ كنت في الخامسة .

وكررت ذلك الفرار وشعرت ان شيئاً جديداً يدخل في حياتي . وفي الايام التي كانت تسبق الامتحانات ، كان بعض الرفاق يقتلون الوقت في ساحة السوربون بالنقاش واللعب والحديث ، فاختلطت بهم ، ولكني ما لبثت ان نفرت منهم لما لاحظته من مسلكهم الخلقي المتحرر . والواقع اني ظللت متحفظة بالحذر والحكمة في كل تصرفاتي ، وكنت أتقلّص كلما قيل لي ان فلاناً وفلانة « كانا معاً » .. وحدث بعد ظهر احد الايام ، إذ كنا في باحة السوربون ، ان قام نقاش بيني وبين شاب ذي وجه طويل كالح ، فتأملني بدهشة وصرّح بأنه لا يجد ما يردّ به عليّ . ومنذ ذلك اليوم كان يقصد المعهد كل يوم ليتابع الحوار . وكان اسمه ميشال ريسمن ، وكان أبوه شخصية مرموقة في عالم الفن الرسمي. وكان ميشال يعتبر نفسه تلميذاً لجيد ويؤمن ايماناً بعيداً بالجمال والأدب، وكان على وشك ان ينجز كتابة رواية يكتبها . وقد دهش اذ أخبرته انني شديدة الاعجاب بالسريالية . وبدا لي أنه كان مملاً تافهاً ، ولكن خيّل إليّ أن روحاً تكمن وراء بشاعته ، ثم انه شجعني كثيراً على الكتابة وكنت بحاجة الى ذلك . وقد أرسل لي رسالة انيقة مكتوبة بخط جميل عرض عليّ فيها أن نتراسل في أثناء العطلة ، فقبلت . كما أننا

تعاهدنا ، أنا وصديقتي بلانشيت ويس على أن نتكاتب . وقد دعتني الى تناول الشاي عندها ، فشاهدت بيتاً فخماً في شارع كليبر ، وأعارتني مجموعات لفرهارن وفرنسيس جيمس .

وكنت قد قضيت سنتي كلها وأنا أئن من ان جميع الاهداف كانت عابثة :غير أن هذا لم يمنعني من أن ألاحق أهدافي باصرار . وقد نجحت في شهادة الفلسفة العامة . وكان في رأس اللائحة سيمون ويل ، وكنت أنا أتبعها مباشرة مُتقدّمة شاباً يُدعى جان براديل . وقد تحمست الآنسة لامبير لنجاحي ، وابتسم أهلي لي ، وكان الجميع في السوربون والمنزل يهنئونني ، ففرحت بذلك كثيراً . وكان هذا النجاح يؤكد الرأي الحسن الذي كنت أرى به نفسي ويضمن مستقبلي ، وقد علّقت عليه اهتماماً كبيراً . بيد أنّ ذلك ذكرني بالعبارة القائلة : « اذن لقد أحالوني الى هذا ؟ !» لقد أحالوني الى شخصية طالبة موهوبة فحسب ! وقد بكيت لذلك ... وشعرت ، عبر ضجة نهاية عام مليء ، بالفراغ في قلبي.وظللت أنشد ذلك الشيء الآخر الذي لم أكد أعرف أن أحدّده لأني كنت أرفض أن أسميه بالاسم الوحيد الذي يناسبه : السعادة .

وبعد أيام جاء جان براديل وفي رغبته أن يتعرف عليّ بعد أن غاظه أن تتقدم عليه فتاتان في النجاح بالشهادة . وكان له وجه صاف جميل ونظرة مخملية وضحكة تلميذ ومزاج مرح . ولقد وجدته لطيفاً ودوداً. والتقيت به بعد ذلك في أحد المعاهد فتنزهنا في حديقة اللكسمبورغ . وكنا آنذاك في العطلة وقد ترك معظم أصدقائي وأصدقائه باريس ، فاعتدنا على أن نلتقي كل يوم . وكان براديل يُحسن الاصغاء . ورأيتني أعجّل في أن أكشف له عن روحي ، فوجدت انه يخالفني في عدد من مواقفي فهو لم يكن يكره « المنازل المغلقة » وكان متفاهماً كل التفاهم مع أمه وأخته بعد موت أبيه ، ولم يكن يحتقر حضور الحفلات الكبرى وكان يرقص في المناسبات ، وكان يرى ان في الناس جانب خير وجانب

شر . وقد انتقد قسوتي في الحكم على الناس . وباستثناء ذلك ، كان بيننا كثير من النقاط المشتركة . وكان يكره تصرفات رفاقه حين تتجاوز حدودها ، والاغنيات الفاجرة والدعارة واللامبالاة ، وكان يحب من الكتب مثل ما أحب تقريباً ، مع تفضيل لكلوديل . وكان ما يعنيني فيه خصوصاً أنه كان هو أيضاً يبحث عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الفلسفة ستمكّنه يوماً من اكتشافها . وقد ظللنا طوال خمسة عشر عاماً نبحث في ذلك ، وقد أخذ عليّ أني عجلت في اختيار اليأس ، وأخذت عليه تعلقه بآمال لا جدوى منها : لقد كانت جميع الانظمة عرجاء . غير أنه كان يؤمن بالعقل البشري .

ولاحظت أنه كان بيني وبين براديل ، بالرغم من تقاربنا ، مسافة ما . فأنا لم أقع في حيرته على تمزّقاتي الداخلية ، وقد حكمت عليه بأنه غير معقّد . وبسبب رصانته وقيمته الفلسفية كنت أحترمه أكثر مما أحترم جاك . ولكن جاك كان يملك شيئاً لم يكن براديل يملكه . وقد قلت لنفسي وأنا أتنزه في أروقة اللكسمبورغ إنه لا هو ولا جاك كان يناسبني لو كان أحدهما يريدني زوجة له . وما كان يربطني بجاك في تلك الاثناء تلك الفجوة التي كانت تقطعه عن وسطه ، ولكن المرء لا يستطيع أن يبني شيئاً على فجوة ، وقد كنت أود أن أبني فكرة، أن أبني عملاً . وكان براديل مثقفاً مثلي : ولكنه كان متأقلماً مع طبقته ومع حياته ، وكان يقبل المجتمع البورجوازي بكل رضى ، ولم أعد أستطيع أن أوافق على تفاؤله الباسم ، كما لم أكن أقر عدمية جاك: والواقع اني كنت أخيف الاثنين معاً لاسباب مختلفة ، فكنت أتساءل : « هل يتزوج الرجال امرأة مثلي ؟» لاني بتّ لا أفرق بين الزواج والحب. انني على يقين أنه ليس هناك شخص يفهمني كلياً ويكون صنوي كاملاً . والحق ان ما كان يفصلني عن جميع الآخرين انما هو لون من العنف لم أكن أجده في غيري . وهذه المقارنة مع براديل عمّقت اعتقادي بأني

كنت مرصودة للوحدة .

على اننا كنا متفاهمين ما دام الامر لا يتعدّى الصداقة ، فقد كنت أقدّر حبه للحقيقة ومنطقه . وهو لم يكن يخلط العواطف مع الأفكار ، وقد أدركت ، تحت نظره النزيه المتجرّد ، أن حالاتي النفسية كانت غالباً ما تقوم مقام أفكاري . وعاهدت نفسي على ألا انخدع بعد الآن. وطلبت من براديل ان يساعدني على أن أحذر جميع الاكاذيب ، بحيث يكون « ضميري الحيّ » . وعزمت على أن أكرّس الاعوام المقبلة للبحث بجدّ وحماس عن الحقيقة . ولقد أدّى لي براديل خدمة كبيرة إذ أنعش رغبتي في الفلسفة ، وخدمة أكبر اذ ردّ لي حسّ المرح ، انا التي لم أكن أعرف أي انسان مرح . وكان يحتمل ثقل العالم برضى وحبّ حتى ان هذا العالم كفّ عن أن يسحقني ، فاذا بي أرى الصباح وزرقة السماء والتلال الخضراء والشمس وكل شيء في اللكسمبورغ يلتمـــع كأجمل ما تلتمع الايام . « إن الأغصان هي الآن عديدة وجديدة ، وهي تقنّع الهوّة التي تحتها . » وكان هذا يعني اني كنت سعيدة بأن أعيش واني بدأت أنسى قلقي الميتافيزيقي .

وحدث يوماً أن صحبني كلاديل الى البيت ، فالتقت أمي به وأعجبها ووقعت هذه الصداقة موقع الرضى منها .

١٠

كانت زازا قد فازت بشهادة اللغة اليونانية ، فسافرت الى « لوباردون» وفي أواخر تموز ، تلقيت منها رسالة قطعت أنفاسي . لقد كانت شقية الى حد اليأس ، وقد شرحت لي في رسالتها الأسباب ، اذ روت أخيراً قصة تلك المراهقة التي عاشتها الى جانبي وكنت أجهل منها كل شيء. فمنذ خمسة وعشرين عاماً قبل ذلك ، كان قريبٌ لأبيها قد سافر الى

الارجنتين التماساً للرزق ، فاغتنى فيها غنىً كبيراً . وكانت زازا في الحادية عشرة حين عاد الى مسقط رأسه في « لوباردون » ، وكان متزوجاً وله صبي « منعزل ، حزين ، لا يخلو من فظاظة . » اتخذها له صديقة حميمة . وقد ألحقه ذووه في مدرسة داخلية ، ولكنهما كانا يلتقيان في أثناء العطل ، ويقومان بتلك النزهات على ظهر الفرس ، تلك النزهات التي كانت زازا تحدثني عنها مشرقة العينين . وحين بلغا الخامسة عشرة أدركا أن أحدهما كان يحب الآخر . وكان اندريه معزولاً ، فلم يكن يعرف غيرها في الدنيا ، وكانت هي تعتقد أنها قبيحة محتقرة فارتمت بين ذراعيه ، وسمحا لأنفسهما بتبادل قبلات شدتهما الى بعض شداً عميقاً .وأخذا يتبادلان الرسائل كل أسبوع ؛ وكانت تحلم به هو في أثناء الدرس ... غير أن أهل زازا وأهل أندريه — وهم أغنى بكثير — كانوا مختصمين ، فهم لم يعارضوا من قبل ان تقوم بينهما الصداقة ، ولكنهم حين رأوا أنهما قد كبرا تدخلوا لوقف هذه الصداقة . ولم يكن وارداً ان يسمحوا بزواجهما قط . وقررت السيدة مابيل ان يكفا عن اللقاء . وقد كتبت لي زازا في ذلك تقول :

« في عطلة رأس السنة عام ١٩٢٦ ، قضيت هنا يوماً واحداً لأرى أندريه وأقول له إن كل شيء بيننا قد انتهى . ولقد صارحته بأقسى الأمور ، ولكن ذلك كان عبثاً ، فاني لم أستطع أن أمنعه من ان يرى كم كان عزيزاً عليّ ، وكان من نتيجة هذا اللقاء أن عمّق حبنا وشد رباطنا . والواقع أنهم حين قسروني على ان أقطع علاقتي بأندريه ، تألمت ألماً شديداً حتى اني كنت على قاب قوس من الانتحار . واني أذكر مساء رأيت المترو مقبلاً فهممت بأن ألقي نفسي تحت عجلاته . لقد كنت فاقدة آنذاك أية رغبة في « الاستمرار بالعيش . »

ومرت بعد ذلك ثمانية عشر شهراً من غير أن ترى أندريه ، ولم يتبادلا أية رسالة . وعادت يوماً الى لوباردون فالتقت به فجأة :

« طوال عشرين شهراً لم يعرف أحدنا شيئاً عن الآخر ، وكنا قد سلكنا دربين جدّ مختلفين حتى أننا شعرنا ، اذ تقاربنا فجأة بشيء مؤلم وفظيع . لقد تمثّلت بكل وضوح جميع المشقّات وكل التضحيات التي ينبغي أن ترافق عاطفة تقوم بين كائنين مثلنا ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتصرف على غير ما تصرفت ، ولم يكن بوسعي أن أعزف عن حلم شبابي كله وعن مثل تلك الذكريات العزيزة ، ولم أكن أستطيع أن أدع انساناً كان في مثل تلك الحاجة الشديدة الي . إن اسرة أندريه وأسرتي شديدتا الزهد بتقارب من هذا النوع . وقد سافر هو في شهر أكتوبر الى الارجنتين لمدة عام يعود بعدها ليؤدي الخدمة العسكرية في فرنسا . وإذن فان أمامنا بعد كثيراً من المصاعب وفراقاً طويلاً . وإذا قدر لاهدافنا أن تتحقق أخيراً فسوف نعيش عشر سنوات على الأقل في أميركا الجنوبية . وهكذا ترين ان هذا كله غامض مظلم ، ولا بد لي من ان أحدّث أمي هذا المساء ، فمنذ عامين قالت « لا » بكل قوة ، وأنا الآن مضطربة مقدّماً من الحديث الذي سوف أعقده معها . أنت تعرفين أني أحبها حباً يصعب عليّ معه أن أسبّب لها هذا الهمّ وأن أخالف ارادتها . لقد كنت أدعو دائماً في صلواتي وأنا صغيرة : أن لا يتألم أحدٌ بسببي . وا أسفاه ! ما أبعد هذه الرغبة عن امكانية التحقيق ! »

قرأت هذه الرسالة عشر مرات ، والغصة في حلقي . واني لأفهم الآن ما طرأ من تغيّر على زازا في الخامسة عشرة من عمرها ، وشرودها ورومنطيقيتها واستشعارها العجيب للحبّ : لقد تعلّمت أن تحبّ بدمها ، ومن أجل هذا كانت تضحك حين يصفون بالأفلاطونية حب تريستان وإيزولت ، ومن أجل هذا كانت فكرة الزواج المادي توحي لها بالكره والرعب .. كانت تقول : « أودّ لو أنام فلا أستيقظ أبداً . » فلا أهتم بهذا المعنى ، اذ كان مستحيلاً عليّ أن أتخيّل زازا

واقفة بقبعتها عند محطة مترو وهي تحدّق بالقضبان الحديدية ..

وتلقيت منها رسالة أخرى بعد أيام ، روت لي فيها أن المحادثة مع أمها انقضت على أسوأ وجه ، وقد حرّمت على زازا مرة أخرى أن ترى قريبها. وكانت زازا من شدة الايمان بمسيحيتها أنها لم تكن تفكر في عصيان أمرها : ولكن ذلك المنع لم يبدُ لها بشعاً كما بدا لها في تلك اللحظة ، حين كان يفصلها عن الفتى الذي تحبه خمسمئة متر فقط . وان ما كان يجلب لها أعظم العذاب تفكيرها بأنه انما كان يتألم بسببها ، في حين انها لا تكفّ عن التفكير به لحظة من نهار أو ليل . ولقد ظلّ هذا الشقاء يعتمل في نفسي ولا أحسب أني عرفت أعمق منه . وكان منتظراً أن أقضي مع زازا ذلك العام ثلاثة أسابيع في منزلها ، وكنت أتعجّل هذا اللقاء .

١١

حين وصلت الى «ميرينياك» أحسستني « هادئة كما لم أحسّني منذ ثمانية عشر شهراً . » بالرغم من ان مقارنة براديل بجاك لم تكن في صالح هذا الأخير الذي كنت أتذكره بلا رحمة : « آه ! تلك الخفّة ، وذلك النقص في الرصانة ، وحكايات المشارب تلك ... ان فيه من الصفات النادرة ما ليس في غيره ، ولكن ينقصه كذلك شيء هام .. ! » كنت قد انفصلت عنه وتعلّقت ببراديل وتبادلنا رسائل كثيرة . وكتبت أيضاً لريسمن وبلانشيت ويس والآنسة لامبير وسوزان بواغ وزازا . وبفضل هذه الرسائل ، ولا سيما رسائل براديل ، كففت عن ان أشعر بالوحدة؛ وكنت أعقد مع أختي محادثات طويلة ، وكانت قد نجحت في بكالوريا الفلسفة فتقاربنا كثيراً . ولم أكن أخفي عنها شيئاً ، باستثناء موقفي الديني ، وقالت لي يوماً بغيظ :

ـ ان ما يسوءني ان تُفتح أمامي رسائلي ، فلا أجد بعد ذلك رغبة في قراءتها .

ثم رجونا أمنا ان تكفّ عن مراقبة رسائلنا بعد ان بلغنا انا التاسعة عشرة وهي سابعة عشرة . فأجابت أمي أنه كان من واجبها أن تسهر . ولكنها ما لبثت أن استجابت لرغبتنا ، وكان هذا نصراً

والواقع ان علاقاتي مع أهلي كانت قد تحسّنت بالاجمال ، فقضيت أياماً هادئة وفكرت في أن أكتب ، ولكني ترددت في ذلك . ذلك ان براديل كان قد أقنعني بأن المهمة الاولى هي البحث عن الحقيقة : أترى الأدب يمكن ان يصرفني عن ذلك ؟ أو ليس في موقفي بعض التناقض؟ كان بودي أن أسجّل عبث كل شيء، ولكن الكاتب يخون يأسه بمجرد ان يكتب عنه كتاباً ، فمن الخير له أن يظل صامتاً . وكنت أخشى كذلك اذا كتبت ، أن أكون مسوقة لتمني النجاح والشهرة ، وهذا ما كنت أحتقره . على أن هذه الوساوس لم تكن من الثقل والأهمية بحيث توقفني . ولقد استشرت بالمراسلة عدداً من أصدقائي فشجّعوني على الكتابة كما كنت أتمنى . وبدأت كتابة رواية طويلة : وكانت البطلة تجتاز كل تجاربي ، وتستيقظ على « الحياة الحقيقية » وتدخل في صراع مع وسطها وتطوف بكل شيء في مرارة : العمل والحب والمعرفة . ولم أعرف قط نهاية هذه القصة ، لأني افتقرت الى الوقت فتركتها في منتصف الطريق .

ولم تكن لهجة الرسائل التي تلقيتها من زازا في هذه الفترة تشبه لهجتها السابقة . وقد قالت لي انها لاحظت بانها خلال السنتين الاخيرتين قد نمت نمواً فكرياً خاصاً ، فنضجت وتغيّرت . وقد شعرت في لقائها الأخير بأندريه أنه لم يتطور ، وأنه بقي طفولياً رخشناً . وبدأت تتساءل عما اذا لم تكن أمانتها « عناداً في ملاحقة أحلام لا تود ان

تتلاشى ، ونقصاً في الصدق والجرأة ». ولا ريب انها استسلمت استسلاماً شديداً لتأثير « مولن الكبير » : « لقد استوحيت منه حباً ورغبة في الحلم لا يسندها أي واقع ». وهي لم تكن نادمة بالطبع على حبها لقريبها : « فان هذه العاطفة التي أحسستها في الخامسة عشرة كانت قطتي الحقيقية على الوجود ، فمنذ أحببت بدأت أفهم عدداً لا يُحدّ من الأ... ، .. أعد أجد أي شيء مضحكاً . » ولكن كان لا بدّ لها أ

على اثر الانقطاع الذي تم عام ١٩٢٦ ، قد خلّدت ... صي وطاولته بصورة مصطنعة لفرط ما حلمت به . ومهما يكن ، فقد كان على اندريه أن يسافر لمدة عام الى الارجنتين : فحين يعود ، لا بـد من اتخاذ قرار ما . أما الآن ، فقد ضجرت من التساؤل ، وكانت تقضي عطلة كثيرة الحركة مرهقة . وقد كتبت تقول لي : « أمـــا الآن ، فأني لا أريد ان افكر بغير التسلية . »

وقد أدهشتني هذه العبارة وعبّرت عن هذه الدهشة في جوابي ، فدافعت عن نفسها بان التسلية لم تكن لتحلّ شيئاً ، وكتبت تقول : « لقد نُظمت أخيراً رحلة كبيرة مع أصدقاء ، ولكني كنت آنذاك بحاجة الى الوحدة شديدة حتى اني ضربت قدمي بالفأس لأتجنّب المشاركة في هذه النزهة . وكان ان قضيت ثمانية أيام على الكرسي الطويل وسمعت كثيراً من عبارات الشفقة ، غير اني حصلت على بعض الوحدة التي كنت أنشدها وعلى حق الصمت وحق عدم التسلية . »

وقد انقبض صدري لذلك ، وكنت أعرف كيف يمكن لليأس أن يدفع الانسان إلى تمنّي الوحدة « وحق عدم الكلام »، ولكنّي لم اجرؤ قط على ان اجرح قدمي . لا ! لم تكن زازا بليدة ولا مستسلمة : لقـــد كانت على عنف أصمّ يخيفني ، وما كان ينبغي الاستخفاف بأية كلمة من كلماتها ، لأنها كانت أبخل مني بالكلام . ولو لم أحرّضها على ذلك لما أشارت في رسالتها إلى هذا الحادث .

ولم ارد ان أخفي عليها شيئاً بعد ، فاعترفت لها بأني فقدت الايمان وأجابتني بأنها قد أدركت ذلك ، وانها هي أيضاً قد اجتازت في أثنـاء

العام ازمة دينية .

« حين كنت أقارن بين الايمان وطقوس طفولتي والعقيدة الكاثوليكية وبين جميع افكاري الدينية ، كنت أجد عدم انسجام كبير كان يؤدي بي إلى نوع غريب من الدوار . وقد وجدت في كلوديل عوناً كبيراً وانا مدينة له بما لا أستطيع تعداده ، وانا مؤمنة بالقلب أكثر مما أنا مؤمنة بالعقل ، كما كان شأني في السادسة من عمري . وأعتقد خصوصاً ان الله غير مفهوم منا تماماً وان الايمان الذي يهبنا إياه هو هبة فوق الطبيعة ، هو نعمة من عنده . ومن أجل هذا لا أستطيع الا أن أرثي من كل قلبي لأولئك الذين حُرموا هذه النعمة، واعتقد انهم إذا كانوا صادقين ومتعطشين للحقيقة ، فسوف تنكشف لهم هذه الحقيقة عاجلاً أو آجلاً . والحق ان الايمان لا ينقع الظمأ ، فيستوي في الصعوبة إدراك أمن القلب حين يؤمن المرء وحين لا يؤمن . وكل ما هناك انه يأمل إدراك ذلك في حياة أخرى . »

وهكذا فان زازا لم تكن تكتفي بقبولي كما كنت ، وانما كانت تهتمّ بأن ترفض أيّ ظلّ لتفوّقها ، فاذا كان في السماء قشّة تلتمع في نظرها ، فان ذلك لم يكن يمنعها من أن تتلمّس طريقها على الأرض فوق مثل الظلمات التي كنت أعانيها ، ولم يحل ذلك دون أن نمضي في السير جنباً إلى جنب .

وفي العاشر من أيلول سافرت إلى « لوباردون » ، فقادتني زازا إلى الغرفة التي كان عليّ ان أقاسمها إياها مع جنفياف دو برافيل وهي فتاة نضرة وعاقلة كانت السيدة مابيل تحبّها حباً كبيراً . وحين تركت وحدي لأبدل ثيابي ، وقع نظري على دفتر أسود فتحته بالمصادفة فقرأت فيه : « سيمون دو بوفوار تصل غداً ، ويجب أن أعترف ان هذا لا يروق لي لأني ، بصراحة ، لا أحبها . » وظللت مشدوهة : كانت هذه تجربة جديدة ومزعجة ، فأنا لم أفكر يوماً بأن من الممكن أن يُكنّ

لي أحدٌ كراهية عميقة . وقد أرعبني قليلاً وجه تلك الفتاة التي كنتها في نظر جنفياف . وطرق الباب فجأة ، ودخلت السيدة مابيل تقول :

— اودّ ان اتحدّث اليكِ يا صغيرتي سيمون .

ففوجئتُ برقة صوتها لأنها كانت منذ وقت طويل قد انقطعت عن الابتسام لي . وسألتني بارتباك عما إذا كانت زازا قد « روت لي الخبر » فأجبتها بالايجاب ، وكان يبدو انها كانت تجهل ان عواطف ابنتها كانت قد بدأت بالفتور ، فأخذت تشرح لي لماذا كانت تحاربها : لقد كان أهل اندريه يعارضون ذلك الزواج ، ثم انهم كانوا ينتمون إلى وسط غني وفاسد لا يلائم زازا على الاطلاق . فكان لا بدّ لها من ان تنسى قريبها ، وكانت السيدة مابيل تعتمد عليّ لمساعدتها في ذلك . وقد احتقرت المشاركة التي تقترحها عليّ ، على انّ نداءها قد اثّر فيّ ، فأكدت لها اني سأقوم بكل ما في وسعي .

وفي بدء إقامتي ، تتابعت الحفلات والدعوات بلا هدنة ، وكان المنزل مفتوحاً على مصراعيه ، وكانت موجات من الاقرباء والاصدقاء تدلف اليه لتتناول الغداء أو الشاي أو لتلعب بكرة المضرب أو البريدج ؛ وكانت السيارة تقودها السيدة مابيل أو زازا أو ليلي ، تقودنا لنرقص في منزل مجاور ... وبعد العشاء ، كان بعضهم يجلس إلى البيانو ، فتأخذ الاسرة كلها في الغناء . أما الصباح ، فكانت تلتهمه الاعمال المنزلية ، فلم أكن أرى زازا في الصباح قط ، وكان هذا يبعث في نفسي الضجر . وبالرغم من اني كنت متجرّدة من الحسّ البسيكولوجي فقد كنت أشعر ان أسرة مابيل واصدقاءها كانوا يحترسون مني . ولم أكن أحسن مجاملة السيدات العجائز ، ولم أكن أقيس حركاتي أو ضحكاتي ، وكنت مفلسة ، وكنت أبحث عن عمل : كل هذا كان لا يروق لأحد ... وفوق هذا ، سأكون مدرسة في مدرسة علمانية ؛ وكان جميع هؤلاء الاشخاص يحاربون منذ أجيال النزعة العلمانية ،

وكنت أعدّ لنفسي في نظرهم مستقبلاً شريراً . وكنت التزم الصمت ، ما امكنني ذلك واراقب نفسي ، ولكن عبثاً : فقد كانت كل كلمة من كلماتي ، وحتى صمتي ، ناشزاً . وكانت السيدة مابيل ، تقسر نفسها على اللطف . وكان السيد مابيل والسيدة العجوز لاريفيير يتجاهلانني بأدب . وكان كبير الأولاد قد التحق بالدير ، وكانت بيبيل ، اخت زازا ، ذات نزعة دينية ، فلم تكن تهتمّ بي . أما الصغار ، فكنت اثير دهشتهم بغموض ، أي انهم كانوا ينتقدونني بغموض . وكان الحديث يوماً يدور حول اقتراع النساء ، فبدا منطقياً للجميع ان يكون للسيدة مابيل حق الاقتراع أكثر من عامل سكّير . ولكن ليلي ذهبت إلى القول بأنّ النساء ، في الاحياء الدنيا، كنّ أكثر « احمراراً » من الرجال ... وبدت هذه الحجة حاسمة في نظر المجتمعين، وانا التزمت الصمت ، ولكن هذا الصمت بدا ، في جوقة الموافقة ، وكأنه عمل هدّام !

وصارحتني زازا ، ذات لحظة ، بان صداقتها لجانفياف كانت محدودة جداً ، وإن كانت هي تعتبرها صديقتها الحميمة . وقد تعزّيت حين سمعت ذلك . ثم سافرت جانفياف وهدأ البيت قليلاً ، فاستأثرت بزازا . وذات ليلة ، بينما كان المنزل كله نائماً ، ألقينا على كتفينا شالين وخرجنا إلى الحديقة ، فجلسنا تحت شجرة صنوبر وأخذنا نتحدث . وكانت زازا قد تأكّدت من انها لم تعد تحبّ قريبها ، وقد حدّثتني مفصلاً عن قصتها . وليلتذاك فقط وقفت على طفولتها وعلى ذلك الهجر الطويل الذي كانت ضحيته ، وقد قلت لها :

— أما أنا ، فقد كنتُ أحبكِ .

فهبطت من الغيوم ، وصارحتني بأني لم أكن احتلّ إلاّ مركزاً مشكوكاً فيه في سلّم صداقاتها التي لم يكن وزن اي منها ثقيلاً على أي حال . وكان في السماء قمرٌ يحتضر ، فأخذنا نتحدث عن طفولتنا

ونستشعر الحزن لحماقتنا . وكانت هي شديدة التأثر لتجاهلها إياي ولما سببته لي من مشاق . ووجدت مريراً ان أقول لها هذه الاشياء اليوم فحسب بعد أن فقدت حقيقتها . على انه كان ثمة عذوبة في تبادل هذه التأسّفات . ولم يسبق لنا قبل الآن ان كنا متقاربتين هذا التقارب، ولقد انتهى مكوثي نهاية سعيدة. فلقد كنا نجلس في المكتبة ونتحدث وحولنا مؤلفات الأدباء الكبار . وقد قرأت لزازا بضع صفحات من روايتي ، فشجعتني على الاستمرار ، وقالت انها تود هي أيضاً أن تكتب ، فحثثتها على ذلك . وافترقنا بلا حزن ، لأن لقاءنا بعد ذلك كان وشيكاً في باريس .

١٢

كنت في سن أؤمن فيها بفعالية الرسائل المتبادلة . وقد كتبت لأمي من « لوباردون » أطلب أن تمنحني ثقتها ، وأؤكد لها أنني سأكون في ما بعد « أحداً » . فأجابتني بكل لطف . وحين رجعت الى البيت شعرت لحظة بضيق مفاجيء : لا يزال أمامي ثلاثة أعوام أقضيها بين هذه الجدران ! ولكن الأشهر الأخيرة كانت قد خلّفت عندي ذكريات طيبة دفعتني الى التفاؤل . وكانت الآنسة لامبير تتمنى أن أتولى عنها صف البكالوريا في معهد سانت ماري ، فقبلت أن أدرّس علم النفس لأربح بعض المال ولأتدرّب على التدريس . وكنت أنوي أن أنجز ليسانس الفلسفة في نيسان ، وليسانس الأدب في حزيران . وان تتطلب مني هذه الشهادات الأخيرة عملاً كثيراً ، بحيث يبقى عندي وقت كاف للكتابة والقراءة وتعميق المسائل الكبرى . وقد وضعت خطة واسعة للدراسة ، ووجدت لذة كبيرة في أن أنظّم المستقبل على شكل قصاصات من الورق . وكنت مشوقة لرؤية رفاقي في السوربون .

وقصدت جاك وشرحت له نظريتي . كان لا بدّ للمرء من تكريس حياته ليبحث عن سبب حياته : وفي انتظار ذلك ، ينبغي له الا يأخذ أي شيء على أنه مبتوت فيه ، بل عليه أن يؤسس قيَمه بأعمال حب وإرادة متجدّدة أبداً . واستمع إليّ بطيبة خاطر ولكنّه هزّ رأسه وقال :

– لن يكون هذا قابلاً للحياة .

ولما ألححت ابتسم وقال :

– ألا تعتقدين أن ذلك شيء مجرّد جداً بالنسبة لأشخاص في العشرين من العمر ؟

وكان يتمنى أن تظل حياته ، لمدة أخرى من الزمن ، لعبة كبيرة للصدف . وفي الايام التالية صوّبت نظريته تارة وخطّأتها تارة أخرى . وعزمت اني كنت أحبه ، ثم عزمت اني لم أكن أحبه ، كنت ممزّقة، وبقيت شهرين من غير أن أراه .

ورحت أتنزّه مع جان براديل حول بحيرة غابة بولونيا . وكنّا نتفرّج على الاشخاص الذين كانوا يجدّفون ونتناقش بحرارة أدنى . وكنت شديدة التعلق ببراديل ، ولكن كم كان قليل التبرّم ! كان هدوؤه يجرحني . وقد أعطاني ريسان روايته التي حكمت عليها انها صبيانية وقرأت له بعض صفحات من روايتي أضجرته كثيراً . وكان جان ماليه يحدثنا دائماً عن « ألين » وسوزان بواغ عن قلبها والآنسة لامبير عن الله . وكانت أختي قد التحقت بمدرسة للفنون التطبيقية لم تعجبها على الاطلاق ، فكانت تبكي من جرّاء ذلك . وكانت زازا تمارس الطاعة وتقضي الساعات وهي تختار النماذج في المخازن الكبرى . ولقد سقط عليها الضجر مجدّداً والوحدة . حين سبق لي أن قلت ، ونحن في حديقة اللكسمبورغ ، بأنه ستكون نصيبي ، كان في الهواء من المرح والجذل ما حال بيني وبين ان أنفعل أكثر مما ينبغي ، ولكن المستقبل أخافني ، عبر ضباب الخريف . انني لن أحب أحداً وليس ،

هناك من هو كبير حقاً بحيث أحبه ، انني لن ألقى حرارة منزل وأسرة ، وسوف أقضي أيامي في غرفة بالضاحية لا أغادرها إلا لالقاء دروسي : وأية قسوة ستكون ! بل انني كففت عن ان أرجو أن اعرف مع أي كائن بشري أي تفاهم حقيقي . لم يكن في أصدقائي من كان يتقبلني بلا تحفّظ : لا زازا التي كانت تصلي من أجلي ، ولا جاك الذي كان يجدني تجريدية أكثر مما ينبغي ، ولا براديل الذي كان ينعى عليّ حماستي وآرائي العاطفية . وان ما كان ينفّرهم مني هو ما كان عندي من عناد : رفضي لهذه الحياة العادية التي كانوا يقرّونها بصورة أو بأخرى ، وجهودي اللامنظمة للخروج منها . وحاولت أن ألتمس السبب لذلك : « انني لست كالآخرين » على اني لم أقتنع . فاذا انفصلت عن الآخرين ، انقطع ما بيني وبين العالم من صلة ، وأصبح العالم مشهداً لا يعنيني . لقد زهدت ، على التوالي ، بالمجد والسعادة وبخدمة الناس ، وهأنذا الآن لا أهتم حتى بأن أعيش . وكنت أخسر أحياناً حسّ الواقع ، فلا تبدو الشوارع والسيارات والمارّة في نظري الا موكباً من المظاهر كان وجودي بينها يرفرف بلا اسم . وكان يتفق لي أن أعتبر نفسي مجنونة ، بلا اعتزاز ، بل بخوف : والحق ان المسافة لم تكن طويلة بين وحدة قاتلة وبين الجنون . لقد كانت لي أسباب وجيهة في أن أتيه . انني منذ عامين أتخبّط في شَرك لا أجد له مخرجاً . وكنت لا أني أصطدم بعقبات كأداء ، وانتهى بي الأمر الى الدوار . وقد ظلّت يداي فارغتين ، وكنت أخدع خيبتي اذ أؤكد لنفسي في وقت واحد أنني سأمتلك ذات يوم كل شيء وانه ليس ثمة شيء يستحق أي اهتمام : هكذا كنت أتخبّط في هذه التناقضات . وكنت على الأخصّ ذات صحة جيدة وشباب طافح ، وكانت هذه الحيوية التي لم أكن أنفقها تتسلسل في تيارات لا مجدية تملأ رأسي وقلبي.

لقد كفّت الأرض عن أن تكون شيئاً بالنسبة لي ، وكنت « خارج

الحياة » ، بل أني لم أعد أتمنى أن أكتب ، فقد عادت لاعبثية كل شيء تأخذ بخناقي ، ولكن كان حسبي ما عانيته ، لقد بكيت في الشتاء المنصرم أكثر مما ينبغي ! واخترعت لنفسي أملاً ... ففي لحظات الانفصال الكامل الذي يبدو فيه الكون وقد تقلص الى لعبة أوهام وانهدمت فيه « الأنا » ، كان هناك شيء ما يبقى قائماً : شيء غير قابل للانهدام ، شيء خالد . ولقد بدا لي ان لامبالاتي كانت تكشف عن حضور لم يكن من المستحيل الاندماج فيه . ولم أكن أفكر بأله المسيحيين ، غير اني كنت متأثرة بالآنسة لامبير وببراديل اللذين كانا يؤكدان امكانية بلوغ الكائن . ولقد قرأت افلوطين ودرات عن علم النفس الصوفي ، فجعلت اتساءل عما اذا كانت بعض التجارب قادرة ، خارج حدود العقل ، على ان تمنحني المطلق ،وصرّحت بقولي : « أودّ أن ألمس الله أو أصبح الله . » واستسلمت طوال العام الى هذا الذهول.

غير اني كنت قد بدأت أضجر من نفسي . فانقطعت عن كتابة مذكراتي ، وشاغلت نفسي . ووجدت تسلية في التدريس ، ولكني تابعت كتابة روايتي ، وكنت أذهب الى المسرح مرة في الاسبوع مع زازا أو وحدي . بيد اني لم أكن أتحمس لشيء بعد .

وحين عدت الى جاك ، استعاد بسماته وحركاته القديمة ، فانتعش الماضي في نفسي . وترددت عليه مراراً ، وكان يتكلم كثيراً : إن بامكان المرء ان يلتقي في مكان ما مجهول أشخاصاً مختلفين عن الآخرين، فتقع أشياء : أشياء غريبة ، فاجعة بعض الشيء ، وقد تكون أحياناً جميلة جداً . ولكن ما أن يُغلق الباب حتى تنطفىء الكلمات . غير اني لمحت بعد أسبوع طريق المغامرة . المغامرة ، الفرار ، الرحلات الكبيرة : لعلّ في ذلك الخلاص . ولم يكن جاك قد اجتاز المحيط ، ولكن عدداً من الروائيين الشباب كانوا يؤكدون ان بامكان المرء أن يقوم برحلات مدهشة من غير أن يغادر باريس ، وكانوا يتحدثون

عن الشاعرية المحرّكة التي كانت ترفرف على تلك المشارب التي كان جاك يجرجر فيها لياليه . واستعدت حبي له . وكنت قد أوغلت في اللامبالاة بل وفي الاحتقار بحيث أن هذه العودة أدهشتني .غير اني أحسب أن بأمكاني ان أعللها . فقدكان الماضي أولاً غنياً وثقيلاً ، فأنا أعود الى حب جاك لأنه سبق لي أن أحببته . ثم انه قد أتعبني ان يبقى قلبي جافاً وأن ييأس . فقد كان ثمة رغبة في الحنان والسلام تراودني. وكان جاك يبدي لي من اللطف ما كنت أحسبه صادقاً ، وكان ينفق عليّ ويسليني . ولكن ذلك كله لم يكن كافياً لردي إليه ، وانما الذي كان حاسماً في ذلك هو أنه قد ظلّ غير مستقر في جلده ، وبقي متردداً شاكاً ، فكنت أجدني أقل شذوذاً الى قربه مني الى قرب جميع الاشخاص الذين كانوا يتقبّلون الحياة . ولم يكن شيء يبدو لي أهم من أن أرفض هذه الحياة ، وقد استنتجت من ذلك اننا كنا ، هو وأنا، من نوع واحد ، ولذلك عدت الى وصل مصيري بمصيره مرة أخرى . والواقع ان ذلك لم يحقّق لي كثيراً من العون والعزاء ، فقد كنت ادرك مدى الاختلاف بيننا ، ولم أكن أتوقّع ان يحرّرني الحب من الوحدة . وانما كنت أشعر بأني أخضع لقَدَر ، لا أني أمضي بحرية نحو السعادة .

وكان احساسي حين بلغت العشرين رغبةً في أن أتذوّق أنا أيضاً هذه الحياة التائهة اللامجدية التي كان جاك والروائيون الشباب يمدحون سحرها . ولكن كيف كان لي أن أدرج في حياتي ما لم يكن متوقعاً؟ كنا ننجح أنا وأختي ، في أن نسترق من تنبّه أمنا أمسية فترة بعد فترة ، فنذهب الى المسرح لمشاهدة تمثيلية طليعية أو نستمع الى موريس شفالييه . وكنا نذرع الشوارع ونحن نتحدث عن حياتنا وعن الحياة . وكانت المغامرة ترصدنا بحضورها ، وان كانت لا تُرى . وقد استمرّت الرقابة اليومية ترهقني : « أوه ! يقظات كئيبة ، وحياة بلا رغبة

ولا حب ، كل شيء قد استنفد بسرعة ، ويا للضجر المخيف ! إن هذا لا يمكن ان يستمر ! ما الذي أريده ؟ ما الذي أستطيعه ؟ لا شيء . كتابي ؟ عبث ! الفلسفة ؟ لقد امتلأت بها . الحب ؟ تعبت منه أكثر مما ينبغي . ومع ذلك ، فأنا في العشرين وأريد أن أعيش !»

لم يكن ممكناً ان يدوم ذلك : ولم يدم . لقد عدت الى كتابي والى الفلسفة ، والى الحب . ثم عدت الى البدء : « أبداً ذلك الصراع الذي يبدو أنه لا مخرج له . ووعيٌ عميق لطاقاتي ولتفوّقي عليهم جميعاً ولما يمكنني أن أفعل والاحساس بلاجدوى جميع هذه الأشياء ! لا ! لا يمكن لذلك ان يدوم على هذا الشكل . »

وكان ذلك يدوم ! ولعله ان يدوم أبداً . لقد كنت كرقاص الساعة اهتزّ بجنون بين الجمود والفرحة . وكنت أتسلق في الليل درج كنيسة القلب المقدس ، وكنت أتطلع الى باريس ، الواحة العابثة ، تنـــوس في صحارى المدى ، وكنت أبكي لأن هذا كان جميلاً الى هذا الحد ، ولأنه كان لامجدياً . غير أني حين كنت أهبط الشوارع الصغيرة بعد ذلك كنت أضحك لجميع الأنوار . كنت أسقط في الجفاف ، فأقفز الى السلام ، وأستنفد قواي .

وكانت صداقاتي تخيّبني أكثر فأكثر. ولقد خاصمتني بلانشيت وايس ولم أعرف السبب قط ، فلقد أولتني ظهرها فجأة ولم تجب على الرسالة التي طلبت فيها ايضاحات . وعلمت أنها تصفني بالدسّاسة وتتهمني بأني أحسدها حتى اني أتلفت غلاف الكتب التي أعارتني اياها . أما الآخرون الذين كنت أحبهم كثيراً ، وذلك الذي كنت أحبه ، فانهم لم يكونوا يفهمونني ، ولم يكونوا يكفونني ، ولم يكن وجودهم يحل شيئاً .

وكانت الوحدة قد ألقت بي منذ وقت طويل في الكبرياء . وكنت قد كتبت دراسة أعطيتها الى « باروزي » ، فردّها إليّ وأثنى عليها كثيراً ، فقلت في نفسي : « اني واثقة بأني سأصعد أعلى منهم جميعاً .

أهذه كبرياء ؟ نعم ، لو لم أكن أملك عبقرية . أما واني أملك كما أظن أحياناً ، وكما أؤمن أحياناً أخرى ، فليس هذا الا تبصراً . »
هذا ما كتبته في مذكراتي . وفي اليوم التالي ، حين خرجت من السينما، ذهبت أتنزه في حديقة التويلري ، وكانت شمس برتقالية تحرق زجاج اللوفر . وتذكرت مناظر شمسية أخرى ، فصُعقت فجأة بذلك المطلب الذي كنت أنادي به أبداً : يجب أن أكتب كتابي . ولم يكن في هذا المشروع شيء جديد ، ولكن لما كنت أرغب في أن يحدث لي شيء، ولم يكن يحدث شيء على الاطلاق ، جعلت من انفعالي حدثاً . فنطقت تجاه السماء والأرض برغبات كبيرة مرة أخرى . لن يحول هناك شيء دون أن أكتب كتابي . والذي حدث بعد ذلك، اني لم أثر هذا القرار مرة أخرى . فقد وعدت نفسي أيضاً بأن التمس بعد الآن الفرحة ، وبأن أمتلكها .

١٣

وبدأ ربيع جديد . وتقدمت لشهادتيْ الاخلاق وعلم النفس . ونفرت من فقه اللغة نفوراً شديداً حتى اني انصرفت عنه . غير اني كنت أعلم ان دراستي في السوربون ستنتهي بعد عام ونصف ، فأصبح حرة وتبدأ أشياء جديدة. وحينما ذهبت أستشير السيد برانشفيك نصحني أن أعالج موضوع « الفكرة عند نيبنتز » فوافقت على ذلك .

على ان الوحدة ظلت تتأكلني ، بل هي قد عمقت في مطلع نيسان. وذهب جان براديل يقضي بضعة ايام في « سوليم » مع بعض زملائه، ولقيته بعد عودته في « دار أصدقاء الكتب » حيث كنّا مشتركين . وهناك صارحني براديل ، بصوت متردد ، أنه قد « تناول » في « سوليم » : فحين رأى زملاءه يقتربون من المائدة المقدسة شعر بأنه منفيّ ، معزول.

وفي اليوم التالي ذهب يعترف ، وقرر أنه كان مؤمناً : وكنت أستمع اليه ، والغصة في حلقي : فأحسستني مهجورة ، مخونة ، مبعدة . كان جاك يلتمس له ملجأ في مشارب مونبارناس ، وكان براديل قائماً في بيت القربان المقدس : وهكذا لم يبق الى جانبي أحد . وبكيت تلك الليلة .

وبعد يومين قرر أبي أن يسافر الى « لاغريير » ليرى أخته . فجعلت أحلم بتمزّق الوداع اذ ذكرت شكوى محركات القطار واحمرار الدخان ، فقلت لأبي :

— أود أن أذهب معك .

فاعترض بأني لا أملك حتى فرشاة أسنان ، ولكنه قبل أخيراً أن يصحبني . وقد ظللت طوال الرحلة ، أثمل بالظلمات والهواء وأنا منحنية على باب القطار . ولم أكن قد رأيت الريف في الربيع قط . وانفعلت عواطفي اذ ذكرت طفولتي وفكرت في حياتي وفي الموت . ولم يكن الخوف من الموت قد فارقني ، فاني لم أتعوّد عليه . فقد كان يتفق لي أن أرتجف وأبكي من فرط الذعر . على ان مجرد كوني أعيش هنا في تلك اللحظة ، كان يتخذ بريقاً ساطعاً . وفي تلك الايام قذفتني الطبيعة غالباً في الخوف تارة وفي الفرح تارة أخرى . وقد أوغلت في رحلتي . وفي تلك الحقول والاحراج حيث لم أكن ألحظ أي أثر لانسان ، حسبتني ألمس تلك الحقيقة فوق البشرية التي كنت أصبو اليها . فكنت أنحني لأقطف زهرة ، فأحسّني فجأة مسمّرة الى الأرض رازحة تحت عبء السماء ، فيعجزني أن أتحرّك بعد : كان ذلك ضيقاً وكان نشوة يمنحاني الخلود . وعدت الى باريس وانا مقتنعة بأني اجتزت تجارب صوفية ، وحاولت أن أجدّد هذه التجارب . وكنت قد قرأت كتب سان جان دولاكروا : « لكي تذهب الى حيث لا تدري ، فيجب ان تذهب من حيث لا تدري . » وقلبت هذه العبارة ، فرأيت في

ظلام دروبي علامةً بأني كنت أسير نحو الكمال . واستغرقت في أعمق أعماق نفسي ، وحملت ذاتي كلياً نحو سَمْتٍ كنت أعانق فيه كل شيء. ولقد كان في هذا الشرود والذهول صدق وحرارة . كنت قد استغرقت في وحدة عميقة حتى اني أصبحت ذات لحظة غريبة على العالم كله ، وكان يرعبني بغرابته لقد فقدت الاشياء معناها ، وكذلك الوجوه ، وأنا : ولما رأيتني لا أتعرف الى شيء ، فقد كان مغرياً أن أتصوّر اني بلغت المجهول . ولقد عُنيت بهذه الحالات عناية فائقة . غير أني لم أكن أودّ أن أخدع نفسي . فسألت براديل والآنسة لامبير في ذلك. فكان جوابه حاسماً :

— هذا لا أهمية له .

أما هي فقد قالت :

— انه نوع من الحدس الميتافيزيقي .

فخرجت من ذلك بأن المرء لا يستطيع ان يبني حياته على مثل هذا الدوار ، وكففت عن التماس تلك الحالات .

ومضيت في الاشتغال بالدراسة بعد ان حصلت على الليسانس ، وكنت أتردد غالباً على مكتبة السوربون التي كانت تضم مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة ، فأمضي فيها نهاري وأكتب روايتي بلا انقطاع . وكنت أقرأ ليبنتز وكتباً مفيدة في الاستعداد للمباراة . حتى اذا أقبل المساء يكون التعب قد أخذ مني مأخذه فأتمدّد في غرفتي ، ولو أني أحسست ان بوسعي أن اتنزه بحرية على الأرض لكنت تعزّيت بألا أستطيع مغادرتها . كم كنت أود أن أستغرق في الليل واسمع الجاز وأحاذي الناس .. ولكن لا ! كنت مسجونة ضمن جدران ، وكنت أختنق وأحترق ، وتأخذني الرغبة في أن أدقّ رأسي بهذه الجدران !

١٤

كان جاك على أهبة السفر الى الجزائر ليقوم بخدمته العسكرية مــــدة ثمانية عشر شهراً . وكنت اراه غالباً ، وكان أوفر وداً من أي وقت مضى ، وكان يحدثني كثيراً عن أصدقائه . وكنت أعرف أن « ريوكور » كان على علاقة بامرأة شابة تُدعى « أولغا » ، وقد صوّر لي جاك غرامياتهما بألوان رومانتيكية ، حتى اني للمرة الاولى نظرت الى امكانية علاقة غير شرعية نظرة رغبة ... وأشار كذلك الى امرأة أخرى جميلة جداً اسمها « ماغدا » كان يودّ لو يعرّفني عليها ، وقد قال في ذلك:

— انها قصة كلفتنا غالياً جداً .

وكانت « ماغدا » احدى تلك العجائب المحيّرة التي يلتقي بها الناس ليلاً في المشارب . ولم أتساءل عن الدور الذي لعبته في حياة جــاك . فقد كنت على ثقة الآن بأن جاك حريص عليّ ، وان بوسعي أن أعيش الى جانبه في الابتهاج . وكنت أخشى فراقنا ، ولكني كنت لا أكــاد أفكر فيه لفرط السعادة التي خلّفها هذا التقارب بيننا .

وقبل ثمانية أيام من سفر جاك ، ذهبت أتناول العشاء مع الاسرة عندهم . وبعد انتهاء الطعام أتى صديقه « ريكه بريسون » ليصحبـــه ، فاقترح جاك ان يأخذاني معهما لمشاهدة فيلم « الفرقة » . ولكن أمــي كانت غاضبة من أن كلمة « الزواج » لم تُلفظ قط ، فلم تعد توافق على استمرار صداقتنا ، ولهذا رفضت أن أصحبه الى السينما . غـــير اني ألححت وأيّدت عمتي قضيتي ، فاضطرت أمي الى التغاضي .

ولم نذهب الى السينما ، وانما قادني جاك الى مشرب « ستريكس » حيث كان يتردد ، فجلست على مقعد مرتفع بينه وبين « ريكه » . ونادى صاحب المشرب باسمه ، ميشال ، وطلب لي كأس مارتيني . ولم يكن قد سبق لي أن وضعت قدمي في مقهى ، وهأنذا الآن

ليلاً في مشرب مع شابين : إن هذا لشيء رائع حقاً . كان كل شيء يدهشني : الزجاجات ذات الألوان الخجولة أو العنيفة ، وصحون الزيتون واللوز المملح ، والطاولات الصغيرة . غير أن أشدّ ما أدهشني أن هذا الديكور كان بالنسبة لجاك مألوفاً جداً . ولقد شربت كأسي بسرعة وحيث أني لم أكن قد شربت من قبل نقطة خمر ، لم يطل بي الوقت لأغادر الأرض . وكنت أدعو ميشال باسمه وأقوم بالتمثيل . وجلس جاك وريكه الى طاولة ليلعبا البوكر ، وتصنّعا انهما لا يعرفانني .وجعلت أنادي الزبائن الذين كانوا شباباً هادئين من الشمال ، فقدّم لي أحدهم كأساً أخرى من المارتيني أفرغته وراء المشرب بناء على اشارة من جاك. وحتى أكون على مستوى الظروف ، حطّمت كأسين أو ثلاثاً . وكان جاك يضحك من كوني أسبح مع الملائكة . ثم توجّهنا الى مقهى « فيكنغز » . وفي الطريق أسلمت ذراعي اليمنى الى جاك واليسرى الى ريكيه ، ولكن اليسرى لم تكن موجودة ، بينما وجدت شيئاً رائعاً أن أعرف مع جاك صميمية جسدية كانت ترمز الى امتزاج روحينا . وعلمني البوكر وطلب لي كأساً من « الجن » ، وكنت أخضع لارادته بكل استسلام . ولم أكن أشعر بالزمن : وكانت الساعة قد بلغت الثانية حين شربت في مقهى « لاروتوند » كأساً من النعناع الأخضر . وكانت ترفرف حولي وجوه قد انبعثت من عالم آخر ، وكانت العجائب تنفجر في جميع الأروقة . وأحسستني مشدودة الى جاك بمشاركة لا تنفصم كأنما ارتكبنا معاً جريمة قتل أو اجتزنا الصحراء على الأقدام .

وتركني بالقرب من شارع « رين » ، وكان مفتاح المنزل في جيبي . ولكن والديّ كانا ينتظرانني : أمي وهي تبكي وأبي بوجهه العابس . وكانا قد عادا من شارع مونبارناس حيث كانت أمي قد أخذت تصيح حتى ظهرت عمتي على النافذة ، فطالبتها أمي بأن يردوا لها ابنتها واتهمت جاك بتلطيخ سمعة شرفها . وشرحت لوالديّ أننا

شاهدنا فيلم « الفرقة » ثم شربنا فنجان قهوة في « الاروتوند » ، ولكن والديّ لم يهدآ ، ثم حدث اني أنا أيضاً انخرطت في البكاء وأخذني النشيج . وكان جاك قد واعدني على اللقاء في اليوم التالي عند مدخل « سلكت » ، وقد رأيته حزيناً عندما شاهد عيني المحمرّتين ، ومتبرماً مما روت له أمه ، فاذا هو يكسب نظرته مزيداً من الحنان . وأنكر أن يكون قد عاملني بلا احتشام ، فأحسستني أشدّ اتحاداً به مما كنا في ليلتنا السابقة العاصفة . وبعد أربعة أيام كنت أودّعه وأسأله عما اذا كان شديد الحزن لمغادرته باريس فأجابني : « ليست بي رغبة لأن أقول وداعاً لكِ أنت » . وصحبني بالسيارة الى السوربون ، فترجّلت وأخذنا نتبادل النظر لحظة طويلة ، ثم قال بصوت زرع الاضطراب في نفسي :

– وإذن ؟ ألن أراك بعد ؟

ثم انطلق فجأة بسيارته ، وبقيت مشدوهة على حافة الرصيف : ولكن ذكرياتي الأخيرة أمدّتني بالقوّة على أن أتحدّى الزمن . وفكّرت « الى السنة القادمة . » ثم مضيت أقرأ ليبنتز .

١٥

كان جاك قد قال لي : « اذا رغبت يوماً ان تقومي بدورة ما ، فأومئي الى ريكه » وأرسلت كلمة الى بريسون ، فلقيته ذات مساء في « الستريكس » حوالي السادسة . وتحدثنا طويلاً عن جاك الذي كان معجباً به ، ولكن المشرب كان خالياً ، ولم يحدث شيء . وفي أمسية أخرى ، حدثت أشياء قليلة حين قصدت « لاروتوند » لأتناول خمراً متبّلاً ، فكان هناك بضعة شبان يتحادثون حديثاً حميماً . وحين أردت أن أدفع ثمن كأسي ، رفض الخادم دراهمي . وقد اعتبرت هذا الحادث

الذي لم أجلُ غامضه قط ذا صلة مباشرة بالعجيبة ، وأمدّني بالشجاعة فجعلت أتدبّر أمري ، كلما غادرت البيت مبكّرة أو وصلت متأخرة الى معهدي لكي أقضي ساعة في « الفيكنز » . وقد شربت ذات مرة كأسين من « الجن » وكان هذا أكثر مما ينبغي لأني ما لبثت أن تقيّأتهما في المترو . وحين دفعت باب المعهد ، كانت ركبتاي تصطكان ، وكانت جبهتي مغطّاة بالعرق البارد : وحسبوني مريضة ، فمدّدوني على ديوان وهم يهنّئونني على شجاعتي اذ جئت لألقي الدروس .

وأتت ابنة عمي مادلين لقضاء بضعة ايام في باريس فانتهزت الفرصة وكانت في الثالثة والعشرين ، وقد سمحت لنا أمي أن نذهب نحن الاثنين الى المسرح ذات مساء ، وكنا في الواقع قد تآمرنا من أجل أن نتردد على الأمكنة « السيئة ». وكادت الأمور تفسد إذ أخذت مادلين ، قبيل مغادرتنا البيت ، تتسلى بأن تضع على خدّي المسحوق الوردي : وقد وجدت ذلك جميلاً . وحين طلبت مني أمي أن أمسح المسحوق ، أخذت أحتجّ . ولعلّها قد رأت على وجنتي أثر الشيطان وانتهى بي الأمر الى الخضوع . وحين خرجنا توجهنا الى مونمارتر ، وشردنا طويلاً تحت أنوار اللافتات ، ولم نقرّر الاختيار ، فضللنا في مشربين ثم استقر بنا المقام في مشرب صغير كان بعض الفتيان اللاأخلاقيين ينتظرون فيه زبوناً . وقد جلس اثنان منهم على طاولتنا وقد أدهشهما دخولنا اذ لم يبد علينا اننا كنا نريد منافستهما . وقد تثاءبنا فترة طويلة من الزمن ، وشعرت بالاشمئزاز في صدري .

على اني لم أكفّ . وادعيت أمام والديّ ان معهد « بلفيل » كان يهنيء بمناسبة ١٤ تموز حفلة أنس ، وانني كنت أشرف على تمثيل مسرحية يقوم بها تلاميذي ، وان هذا يقتضيني أن أتأخر عدة أمسيات في الاسبوع ، كما زعمت اني أنفق ما كنت أحصله من دراهم لصالح

« الفرق الاجتماعية » وكنت أقصد مقهى « جوكي » في مونبارناس ، وكنت أحبه بعد أن أرشدني اليه جاك ، وأحب فيه خصوصاً رائحة التبغ والخمر والاصوات والضحكات والساكسفون . وكانت النساء تثير اعجابي : فانه لم يكن في قاموسي كلام أصف به القماش الذي صُنعت به أثوابهن ، ولون شعرهن . وكنت أستمع اليهن يناقشن الرجال في « تعريفة » لياليهن .. ولم تكن مخيلتي لتصدر أي رد فعل وخصوصاً في الأوقات الأولى ، اذ لم يكن حولي ناس من لحم ودم ، بل صفات ونعوت : الحيرة ، العبث ، اليأس ، العبقرية ، ولا سيما الاثم بوجوهه المختلفة ، وكان جاك قد قال لي : « يكفي أن تفعلي أي شيء في المشارب ، ثم تحدث أشياء . » وكنت أفعل أي شيء . وكان اذا دخل زبون ما وعلى رأسه قبعة ، كنت أصيح : « قبعة !» وأتناولها عن رأسه وألقي بها في الهواء . وكنت أحطّم كأساً هنا وآخر هناك : وكنت أخطب وأعظ وأنادي المعتادين على المشرب الذين كنت أحاول بسذاجة أن أتلاعب بهم : كنت أزعم اني « موديل » أو بغيّ ولكني لم أكن أخدع أحداً بثوبي الكالح وجوربيّ السميكين وحذائي المنبسط ووجهي الذي لم تكن عليه آثار الفن . وقد قال لي أعرج ذات يوم :

— انك لا تملكين الطابع الذي ينبغي ، فأنت بورجوازية صغيرة تريد ان تقلّد البوهيميين .

ووافقه على ذلك رجل كان يكتب الروايات المتسلسلة . ولكني احتججت على ذلك ، فاذا بالأعرج يرسم شيئاً ما على قصاصة من ورق ويقول :

— هذا ما يجب عمله وقبوله في مهنة البغايا .

واحتفظت ببرودتي وقلت :

— ان هذا الرسم رديء جداً .

فأجاب :

— ولكنه يشبهه .

وسارع ينزع ثيابه ، فصرفت عنه نظري وأنا أقول :

— ان هذا لا يهمني .

فضحكا ، وقال الروائي :

— أترين ؟ ان البغيّ الحقيقية تنظر الى ذلك وتقول « لا مجـال للافتخار ! »

وهكذا كنت أتقبّل البذاءات بفعل تأثير الخمر . على ان الجميع كانوا يدعونني وشأني . وكل ما كان يحدث ان يدعوني أحدهم الى شرب كأس معه ، أو الى مراقصته ، وكنت طبعاً لا أشجع الفسـق والدعارة .

وقد اشتركت أختي عدة مرات في هذه « الغزوات » . وكانت تضع قبعتها على رأسها بالمقلوب لتوهم الناس بأنها فتاة طائشة ، وتشبّك ساقيها بحيث تبين بشرتها . وكنا نتحدث بصوت عال ونتضاحك بصخب أو أننا كنا ندخل المشرب واحدة بعد اخرى ونتصنّع أننا لا نعرف بعضنا ثم نتخاصم فنتنازع شعر رأسينا ، ونتبادل الشتائم ، ونشعر بالسعادة اذا اهتم الحاضرون لنا .

وكنت اذا لزمت المنزل مساء لا أكاد أتحمّل هدوء غرفتي ، فألتمس من جديد دروباً صوفية . وذات ليلة تحدّيت الله اذا كان موجوداً ان يعلن عن نفسه ، فظلّ صامتاً لا يجيب ، فلم أعد أوجّه اليه أية كلمة ، وكنت في أعماق نفسي مسرورة انه لم يكن موجوداً . فقد كنت احتقر أن يكون حل اللعبة التي تُلعب هنا على الأرض هناك في الابـد .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان على الأرض الآن مكان أشعـر فيه بالاطمئنان : الجوكي الذي ألفته وكنت ألقى فيه وجوهاً أعرفهـا وأجد مزيداً من المتعة فيه . وكان حسبي أن أتناول كأساً من « الجن »

حتى تذوب وحدتي ، فيغدو جميع الرجال أخوة لي ، ويحلّ بيننا التفاهم والحب ، وتنتفي أية مشكلة ويزول كل أسف وانتظار ؛ لقد كان الحاضر يملأني آنذاك . وكنت أرقص ، وتشدّني الأذرع فيستشعر جسمي ألواناً من الهرب والاستسلام أشدّ تهدئة ومتعة من ألوان ذهولي؛ وقد كنت أجد تعزية في ان تستطيع يد مجهولة ان تكون لها على عنقي حرارة وعذوبة تشبهان اللطف ، وهذا بخلاف النفور الذي كنت أشعر به في السادسة عشرة . ولم أكن أفهم شيئاً عن الاشخاص الذين كانوا يحيطون بي ، ولكن ذلك كان عندي سواء . لقد كنت أجد الضياع ، وكان عندي شعور بأني لمست الحرية أخيراً لمس اليد . وكنت قد تقدمت كثيراً منذ ذلك العهد الذي كنت أتردد فيه بأن أمشي في الشارع الى جانب شاب : كنت أتحدّى بكل فرح المواضعات والسلطة . وكان مصدر السحر في المشارب والمراقص انها كانت محظورة ، وان أمي ما كانت لتقبل قطّ ان تضع فيها قدميها . وان أبي كان يثور غضباً لو رآني فيها ، وان براديل نفسه كان يحزن لذلك . لقد كنت أشعر برضى غامر أن أعرف أني خارج القانون .

كنت أزداد جرأة يوماً بعد يوم . وكنت لا أرفض أن يماشيني بعضهم في الشارع ، وأن أذهب لأشرب قدحاً مع مجهولين. وذات مساء صعدت الى سيارة كانت قد تبعتني طول الطريق ، فاقترح عليّ السائق :

– هل نقوم بنزهة الى ضاحية روبنسون ؟

ولم يكن فيه ما يروق ، فما الذي يحدث اذا تركني عند منتصف الليل في وسط الطريق ، على بعد عشرة كيلومترات من باريس ؟ ولكن كانت لي مبادئي : « أن أعيش في خطر وألا أرفض شيئاً » هكذا يقول جيد وريفيير والسرياليون وجاك . وقلت للسائق « موافقة » وفي باحة الباستيل ، شربنا قدحين من الكوكتيل في أحد المقاهي . وحين صعدنا ثانية الى السيارة ، لامس الرجل ركبتي ، فابتعدت عنه بحيوية

فاذا هو يقول :

– ماذا ؟ انك تتنزهين في السيارة ولا تريدين ان يلمسك أحد ؟

وكان صوته قد تغيّر ، فأوقف السيارة وحاول ان يقبلني ، فلذت بالفرار تتبعني شتائمه ، وأدركت آخر قطار الى باريس ، وأيقنت اني نجوت بأعجوبة ، غير اني كنت سعيدة بأن أقوم بعمل مثل هذا مجانيّ.

وذات مساء آخر ، كنت ألعب في احدى الحفلات العامة بلعبة تمثّل كرة القدم . وكان شريكي رجلاً بشعاً في وجهه ندبٌ أحمر ، ثم لعبنا في إطلاق البندقية ، فأصرّ على ان يدفع جميع النفقات ، ثم عرّفني على صديق له ودعاني الى تناول فنجان قهوة مع الحليب . وحين رأيت آخر أوتوبيس يهمّ بالمسير ، ودّعته وانطلقت أعدو ، فاذا بهما يدركاني حين أوشكت أن أقفز الى الاوتوبيس ، وأمسكاني من كتفيّ يقولان :

– هذه أعمال لا تجوز !

وتردّد قاطع تذاكر الاوتوبيس لحظة ويده على الجرس ، ثم شدّ على المقبض وانطلق الاوتوبيس . وأزبدت من الغضب . وأكّد لي الشابان اني كنت مخطئة ، فليس من اللائق الانصراف عن الناس قبل إبلاغهم . وتصالحنا ، فأصرّا على اصطحابي مشياً على الاقدام الى البيت. وهنا حرصت على إفهامها بألا ينتظرا شيئاً مني. وحين بلغنا منعطف شارع « رين » أخذني الرجل ذو الندب من قامتي وسألني .

– متى أراك ؟

فأجبت بنذالة :

– متى شئت .

وحاول أن يقبّلني ، فتخبّطت . وظهر آنذاك أربعة من رجال الشرطة على الدراجات ، فلم أجرؤ على مناداتهم ، ولكن الرجل تركني فخطونا خطوات نحو البيت . حتى اذا قطعنا المنعطف ، قبض عليّ

مجدّداً وقال :

– انك لن تأتي الى الموعد ! انك تخدعينني ! وأنا لا أحب ذلك، وأنت تستحقين درساً !

ولم تكن هيئته هادئة : كان يهمّ بأن يضربني أو يقبّلني في فمي، ولم أعرف أيهما كان يخيفني أكثر . وتدخل صديقه فقال :

– هيا ! بوسعنا ان نتّفق . انه يهذي لأنّكِ كلّفته مالاً . هذا كل ما في الامر .

وأفرغت محفظتي ، فقال الرجل :

– ان المال لا يهمني ! أودّ ان أعطيها درساً .

ومع ذلك فقد انتهى به الامر إلى أن يسلبني ثروتي : خمسة عشر فرنكاً . وعلّق قائلاً :

– إن هذا لا يكفي حتى لامتلاك امرأة !

وعدت إلى البيت . حقاً لقد كنت خائفة .

١٦

كانت السنة المدرسية توشك على الانتهاء . وكانت سوزان بواغ قد قضت بضعة أشهر ضيفة على احدى شقيقاتها في مراكش ، فالتقت هناك برجل حياتها . وقد أقيمت مأدبة الزواج في حديقة كبيرة بالضاحية . وكان العريس بشوشاً ، وكانت سوزان جذلى ، فبدت لي السعادة شيئاً ساحراً . والحق اني لم أكن أشعر بأني شقية : فقد كانت غيبة جاك وايماني بحبّه يهدّئان قلبي الذي لم تكن تهدّده صدمات لقاء ما أو مصادفات مزاجٍ ما . وكنا نذهب للتجذيف في بحيرة الغابة أنا واختي وزازا وليزا وبراديل : وكان أصدقائي متفاهمين جداً ، وقد قدّم لي براديل زميلاً له يحترمه كل الاحترام ، وكان أحد رفاقه الذين أقنعوه

بان يتناول القربان في « سوليم » . وكان اسمه بيير كليرو ، وكان قصيراً شديد السمرة . وكان ينوي ان يتقدم في العام التالي إلى شهادة « الاغريغاسيون » في الفلسفة ، حيث يكون زميلاً لي. ولما كان ذا شخصية قاسية ، مترفّعة ، واثقة من نفسها ، فقد عزمت أن أحاول كشف ما يخفيه لدى عودتنا إلى المعهد . وقد ذهبت معه ومع براديل لنشهد الامتحان الشفهي للمباراة ، فوجدنا الناس يتزاحمون لسماع دروس ريمون ارون الذي كان ينتظر له مستقبل لامع في الفلسفة. والتقينا كذلك بدانيال لاغاش الذي كان يتخصص في علم النفس التطبيقي. وقد فوجئ الجميع بسقوط جان بول سارتر في الامتحان الكتابي . وبدا لي أن المباراة صعبة ، ولكن لم أفقد شجاعتي ، فسوف أعمل ما وسعني ذلك لكي انتهي بعد عام ، ويبدو لي انني غدوت منذ الآن حرّة . واظنّ كذلك انه كان من الخير لي ان أتسلّى وأمجن وأغيّر الهواء . وكنت قد استعدت توازني إلى حدّ اني انقطعت عن كتابة مذكراتي : « لا أريد إلاّ صميمية متزايدة مع العالم ،وإلاّ ان اتحدث عن هذا العالم في كتاب . » هذا ما كتبته لزازا . وكان مزاجي ممتازاً حين وصلت إلى « ليموزان » وتلقيت فوق هذا كله رسالة من جاك ، يحدثني فيها عن « بيسكرا » وعن الحمير الصغيرة وعن الصيف ، ويذكرني بلقاءاتنا التي كانت « تحذيراتي الوحيدة آنذاك » ، ووعدني بقوله « في السنة القادمة سنقوم بأشياء جميلة » .فسألتني اختي معنى هذه العبارة الأخيرة ، فأجبتها بلهجة انتصار :

— هذا يعني اننا سنتزوج .

وما كان أجمله صيفاً ! لا دموع بعد ولا عواطف متوحّدة ولا عواصف ... كان الريف يملأني غبطة كما لو كنت بعد في الخامسة أو في الثانية عشرة ، وكان الشفق كافياً لأن يملأ السماء . انني اعرف الآن معنى ندى الصباح . وفي الدروب الجوفاء وعبر سنابل القمح

والحشائش والغصون ، تذكّرت جميع الوان متاعبي ومسرّاتي .. وتنزهت كثيراً مع أختي ، وكنّا غالباً ما نغتسل ، دون أن نخلع التنورة ، في مياه نهر « فيزير » ، ثم نجفّف جسمينا في الحشائش التي كانت رائحة النعناع تنبعث منها . وكانت هي ترسم وأنا أقرأ . وكان أهلي قد استعادوا صلتهم باصدقاء قدامى كانوا يقضون الصيف في قصر مجاور ، وكان لهؤلاء الاصدقاء ثلاثة أبناء من الشباب كانوا يدرسون الحقوق وكنا نذهب معهم أحياناً لنلعب التنس . وكنت أتسلّى بكل غبطة . وقد أخبرت أمّهم أمّنا بأنها لن تقبل لأولادها إلاّ فتيات يملكن مهراً محترماً : وقد أضحكنا ذلك كثيراً لأننا لم نكن نطمع بهؤلاء الشبان ذوي المراكز الرفيعة .

وقد دعيت تلك السنة أيضاً إلى « لوباردون » . وكانت امي قد قبلت برضى أن التقي في « بوردو » ببراديل الذي كان يقضي عطلته في المنطقة : وكان يوماً جميلاً ، ولا شك في ان براديل كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لي . وكذلك زازا . وحين وصلت لوباردون كان قلبي يفيض فرحاً .

وكانت زازا قد حققت نصراً نادراً حين نجحت منذ الدورة الأولى في شهادة فقه اللغة ، بالرغم من أنها لم تعلّق تلك السنة كبير أهمية على الدروس . فقد كانت أمّها تشتدّ في طلبها وفي استخدامها ، وكانت تعتبر التوفير فضيلة رئيسية ، وتجد انه من اللاأخلاق ان تشتري من بائع ما يمكن صنعه في البيت : من مثل الحلويات والمربّيات والأثواب والمعاطف . وكانت غالباً ما تقصد السوق في الصباح الباكر مع بناتها لتشتري الفاكهة والخضار بثمن أدنى . وحين تكون احدى الفتيات بحاجة إلى ثوب جديد ، كان على زازا أن تزور عشرة دكاكين وتأخذ منها عينات ونماذج تقارن السيدة مابيل ما بينها لتختار أحسنها وأرخصها ، ثم توفد زازا مرة ثانية لشراء المطلوب . وكانت هذه المهمّات ترهق

زازا . ولا ريب في أن واجبها كمسيحية كان في أن تطيع أمّهـا ، ولكنها قرأت ذات يوم في كتاب ان الطاعة قـد تكون شَرَكاً مـن شراك الشيطان . فاذا ارتضت ان تدنّي نفسها أفلا تعاكس في ذلـك إرادة الله ؟ وكيف يمكن معرفـة هـذه الارادة بكل يقين ؟ لقد كانت تخشى ان تأثم إذا التجـأت إلى حكمها الذاتي أو إذا خضعت للضغط الخارجي . وكان هذا الشك يعمّق النزاع الذي كان يمزّقها منذ وقت طويل : كانت تحب أمها ، ولكنها كانت تحب كذلك أشياء كثيرة لم تكن أمها تحبها . وكانت كثيراً ما تستشهد أمامي بعبارة « لراميز » : « إن الأشياء التي أحبّها لا تحبّ بعضها . » ولم يكن في المستقبل ما يعزّيها ، فقد كانت أمّها ترفض رفضاً باتّـاً ان تباشر في العام القادم باعداد شهادة للتعليم ، إذ كانت تخشى أن تصبح ابنتها « مفكّرة » . أما الحب ، فقد كفّت زازا عن ان ترجو لقاءه . وكان يحدث في محيطي ، ولو نادراً ، ان تتزوج الفتاة بدافـع الحبّ ، وقد كان هذا شأن ابنة عمّي تيتيت ، ولكنّ السيدة مابيل كانت تقول :

— ان اسرة « بوفوار » هي خارج طبقتنا .

والواقع ان زازا كانت أكثر مني اندماجاً بوسطها البورجوازي حيث كانت جميع الزيجات تتمّ بـين الأسر . وجميع هؤلاء الـذين كانوا يقبلون ان يتزوجوا على غير هـذه الاسس كانوا دون مستوى الوسط .

لقد كانت زازا تحبّ الحياة بكل حميّا ، ولهذا كان التفكير بحياة لا فرحة فيها ينزع منها أحياناً كل رغبة في الحياة . وكانت تدافـع عن نفسها ، كما كان يحدث في طفولتها ، بمتناقضات ضدّ مثـالية وسطها المزيّفة . وكانت السخرية والجفوة والتشكّك سرعان ما تجـد أصداء في نفسها . وقـد صارحتني في رسالة بعثت إليّ بهـا في أوائل العطلة انهـا كانت تحلم أحيـاناً بأن تنسحب نهائيـاً مـن هـذا

العالم ..

« فبعد فترات من حب الحياة ، فكرياً وجسدياً ، كانت تأخذني فجأة أحاسيس عبثية هذا كلّه بحيث كنت أشعر بأن كل شيء وكل انسان يتقلّص عنّي . انني أشعر نحو الكون كلّه بلامبالاة غريبة حتى يخيّل إليّ اني أصبحت في الموت . إن الزهد في الذات وفي الحياة وفي كل شيء ، زهد الرهبان الذين يحاولون ان يبدأوا حياة فوق الطبيعة — إن ذلك كلّه يغريني اغراءً شديداً . ولقد قلت لنفسي غالباً إن هذه الرغبة في إيجاد الحرية الحقيقية في « الصلات » كان علامة موهبة . على ان الحياة والأشياء كانت في فترات أخرى تستولي عليّ إلى درجة ان حياة الدير تبدو لي لوناً من التشويه وانّ هذا ليس هو ما يطلبه الله مني . ولكن مهما كانت الطريق التي كان عليّ ان أسلكها ، فاني لا أستطيع مثلك ان أمضي مع الحياة بكل ما في نفسي ، ففي اللحظة التي اوجد فيها بكل كثافة ، لا انقطع عن الإحساس بطعم العدم في . »

وقد أفزعتني هذه الرسالة قليلاً . لقد كانت زازا تردّد لي فيها ان جحودي لم يكن يفصل ما بيننا . ولكني سأفقدها حتماً إذا دخلت الدير يوماً ، وأعتقد أنها ستفقد نفسها أيضاً .

وأصبتُ بخيبة يوم وصولي إلى منزلها . فاني لم أنم في غرفتها ، وانما في غرفة الآنسة ادفيكوفتش وهي طالبة بولونية تعاقدت مع اسرة زازا للعمل في فترة العطلة ، وللعناية بالاطفال . والذي عزّاني قليلاً اني وجدتها ساحرة ، وكانت زازا قد حدثتني عنها بودّ كبير في رسائلها . كان لها شعر أشقر جميل ، وعينان زرقاوان ضاحكتان ، وثغر متفتّح وجاذبية مغرية لم أجد لها آنذاك اسمها الحقيقي : جاذبية جنسية . وكان ثوبها الشفاف يشي بكتفين ساحرتين ، وفي المساء ، جلست إلى البيانو وأخذت تغني بعض الأغاني الاوكرانية الغرامية وتخلّلها بحركات سررنا لها أنا وزازا بينما وجدها الآخرون جريئة أكثر مما ينبغي . ورأيتها

في الليل ترتدي منامة بدلاً من قميص نوم : وقد فتحت لي قلبها فوراً: كان أبوها يملك في « لواو » مصنعاً كبيراً للسكاكر ، وفيما كانت تتابع درسها ، اشتركت في النضال من أجل استقلال اوكرانيا وقضت بضعة أيام في السجن . وكانت قد ذهبت تواصل درسها في برلين أولاً حيث بقيت ثلاث سنوات ، ثم في باريس . وكانت تحضر دروساً في السوربون وتتلقى مساعدة من ذويها ، وقد شاءت أن تستغلّ العطلة لتدخل إلى صميمية أسرة فرنسية ، وقد دهشت حين دخلت أسرة زازا . وقد لاحظت في اليوم التالي انهـا تثير بمسلكها وحركاتها انتقاد الأشخاص الرصينين بالرغم من تربيتها الجيدة . فقد كنا نبدو أنا وزازا والاخريات كالراهبات ازاءها ، هي الجميلة التي تفيض أنوثة . وبعد الظهر أخذت تتسلّى بمعرفة حظّ الحضور بواسطة أوراق اللعب ، بما في ذلك الخوري الذي كانت تغازله بطرف خفيّ ، غير مكترثة بثوبه الديني . وكان هو يبتسم لها ولا يبدو انه غير متأثر بجمالها ، وقـــد تنبأت له بأنه سيلتقي عما قريب بسيدة أحلامه ، فاغتاظت الامهـــات والفتيات الكبار من ذلك ، واتهمتها السيدة مابيل بأنها لا تجلس في المكان الذي ينبغي أن تجلس فيه ، وعاتبت زازا بعد ذلك بأن تكنّ لها عاطفة عميقة .

أما أنا ، فأتساءل لماذا وافقت على دعوتي ؟ لعلها لم تشأ ان تجرح عاطفة ابنتها ، ولكنها كانت تجهد في الاّ تتركني اجتمع وحدي مع زازا التي كانت تقضي صباح كل يوم في المطبخ حيث كانت تعمل في تهيئة الطعام . وفي أثناء النهار لم تكن وحيدة لحظة من الزمن . وكانت السيدة مابيل تضاعف الاستقبالات والدعوات والزيارات ، على أمل أن تجد لليلي خطيباً . وقد توجهت اليها في أثناء عشاء دعيت اليه بعض الناس ، وكانت ستيفا البولونية حاضرة :

– انها السنة الأخيرة التي أهتمّ بك ، فقد كلفتني حتى الآن غالياً ،

وقد أتى دور اختك .

وكان بعض الشبّان يرغبون في الزواج بليلي . وكنت أتساءل عما إذا كانت زازا ستقتنع يوماً بأن واجبها المسيحي هو أن تؤسس بيتاً ، ولكني لم أكن أحبّذ لها زواجاً مفروضاً باهتاً .

وبعد بضعة أيام من وصولي ، اجتمعت جميع أسر المنطقة في نزهة كبيرة على شاطئ نهر « الأدور » . وقد أعارتني زازا احد أثوابها الجميلة ، وكانت هي ترتدي ثوباً من الحرير الابيض مع نطاق أخضر وعقد ثمين ، وكان جسمها قد هزل قليلاً ، وكانت تصاب بالصداع بين آن وآخر وتنام نوماً مؤرقاً : وبالرغم من انها كانت تمسح خدّيها بالأحمر ، فقد كانت النضارة تعوزها . ولكني كنت أحبّ وجهها ، وكان يشقّ عليّ ان تمنحه للجميع بمحبّة : لقد كانت تمثّل دورها كفتاة يهمّها رأي الناس . ولقد وصلنا إلى مكان الاجتماع قبل الآخرين ، ثم بدأ المدعوون يفدون ، وكنت أشعر بالأسى لكل بسمة احترام تقدّمها زازا للناس . ثم شغلنا باعداد موائد الطعام .. وانتحت بي ستيفا جانباً وطلبت مني أن أشرح لها فلسفة ليبنتز ، فاذا بي أنسى ضجري لمدة ساعة . ولكن النهار مضى بعد ذلك ثقيلاً ، وكانت جميع السيدات قد قمن بواجباتهن الاجتماعية في إعداد الطعام ، وأكل الناس وضحكوا من غير مرح ، حتّى بدا لي انه لم يكن هناك من شخص مسرور . وعند الأصيل سألتني السيدة مابيل عما إذا كنت أعرف أين اختفت زازا ، فذهبت معها للبحث عنها ، فوجدناها تغتسل في « الأدور » . ووبختها أمها بصوت ضاحك ، وأدركت أن زازا كانت بحاجة إلى الوحدة وإلى الأحاسيس العنيفة ، بل ربما إلى تطهّر بعد هذه الرحلة اللزجة .

على اني لاحظت أن أمها ما تزال تحتفظ بتأثير شديد عليها . وكانت

السيدة مابيل تتبع مع بناتها سياسة مرنة ، فتعاملهم وهم صغار بلطف وعطف ، وفيما بعد تبدو متحرّرة في الأمور الصغيرة . أما إذا كانت القضية تتعلق بالامور الهامّة فان سلطانها عليهم عجيب . وقد حدث يوماً أن ثارت زازا . وكنّا على المائدة ، فقالت السيدة مابيل :

– انني لا أفهم ان تعاشر فتاة مؤمنة أشخاصاً غير مؤمنين .

فأحسست بالدم يصعد إلى وجنتي وشعرت بالضيق . ولكن زازا أجابت بغيظ :

– لا حق لأحدٍ بأن يحكم على أحد . إن الله يسوق الأشخاص في الدروب التي يختارها .

فقالت الأم ببرودة :

– انني لا أحكم . ويجب أن نصلي للأرواح الضالّة ، ولكن يجب الاّ نتعرّض لعدواها .

وكانت زازا تكاد تختنق من الغضب ، وهذا ما هدّأ نفسي ، ولكني كنت أشعر ان جوّ « لوباردون » كان أشدّ عداءً لي من جوّ السنة الماضية . وروت لي ستيفا في باريس ، بعد ذلك ، ان الأولاد كانوا يضحكون إذ يرونني رديئة الثياب ، كما ضحكوا يوم أعارتني زازا أحد أثوابها دون أن تطلعني على السبب . والواقع اني لم أكن أنانية ولم أكن ألاحظ لباسي ، فلم أكن أهتمّ لمثل هذه الانتقادات . غير انه كان يتفق لي أن أشعر بالأسى . وقد خطر لستيفان ان تذهب إلى « لورد » فأحسستني أشدّ وحدة .

وذات مساء ، جلست زازا إلى البيانو بعد العشاء ، وعزفت بعض قطع شوبان ، فقلت إن هذه الموسيقى هي التي كانت تعبّر عن حقيقتها ، ولكن كانت هناك أمّها وكل تلك الاسرة ما بيننا ، وقد يأتي يوم أفقدها فيه . ولقد أحسست في تلك اللحظات بألم عنيف ، فنهضت وغادرت القاعة وأويت إلى فراشي وأنا أبكي . وفتح الباب

بعد قليل ، فاقتربت مني زازا ، وانحنت فوقي وقبلتني . وكانت صداقتنا حتى تلك اللحظة قاسية جداً بحيث ان بادرتها تلك ملأتني فرحاً .

وحين عادت ستيفا من « لورد » جلبت معها كيساً من السكاكر للأولاد ، فقالت لها السيدة مابيل :

ـ هذا لطيفٌ منك يا آنسة ، ولكن كان بوسعكِ أن توفّري هذا الإنفاق ، فليس الاولاد بحاجة إلى سكاكركِ .

ومنذ تلك اللحظة أخذنا ، هي وأنا ، نمزّق بأسناننا اسرة زازا وأصدقاءها ، وكنت أجد في ذلك بعض العزاء . غير ان نهاية إقامتي هناك كانت ، ذلك العام أيضاً ، أرحم من بدايتها . فلا أدري إذا كانت زازا قد تفاهمت مع أمها ، أم انها كانت تتصرف بحكمة : فلقد استطعت أن أجتمع بها وحدي ، فقمنا معاً بنزهات طويلة وتحدثنا كثيراً . وكانت تحدّثني عن « بروست » التي كانت تفهمه خيراً مني ، وقالت لي ان الرغبة في الكتابة تستولي عليها كلما قرأته . وأكّدت لي انها لن تخضع في السنة القادمة لرتابة الحياة اليومية ، وانما ستقرأ كثيراً وستتحدث طويلاً . وجاءتني فكرة طربت لها وهي أن نلتقي صباح كل أحد لنلعب التنس : أنا وهي وأختي وجان براديل وبيير كليرو وأحد الأصدقاء الآخرين .

وكنا متفاهمتين حول كل شيء تقريباً . ولم تكن تنفر من أي تصرّف يقوم به الجاحدون ، شريطة الاّ يؤذوا أحداً . ولقد كانت تقرّ اللاأخلاقية « الجيدية » ، ولم يكن المجون ليثيرها . ولكنها بالمقابل ، لم تكن تتصور ان من الممكن عبادة الله وعصيان أوامره في الوقت نفسه . وقد وجدت هذا الموقف منطقياً بالرغم من انه يخالف رأيي : فقد كنت أسمح بكل شيء للآخرين . ولكني كنت أستمرّ في تطبيق قواعد الأخلاق المسيحية على وضعي ووضع أهلي ولا سيما وضع جاك ،

ولقد تأثّرت وحزنت قليلاً حين سمعت ستيفا تقول لي يوماً :

– يا إلهي ! كم هي ساذجة ، زازا !

وكانت ستيفا قد صرّحت انه ، حتى في الاوساط الكاثوليكية ، لم يكن أيّ شاب يصل إلى الزواج ، وهو لا يزال بكراً ! فاحتجت زازا على ذلك : إذا كان المرء مؤمناً فانه يعيش وفق ايمانه ، فقالت لها ستيفا :

– انظري إلى أبناء عمكِ من أسرة « دي مولين »!

فأجابت زازا :

– ما شأنهم ؟ انهم يتناولون القربان كل يوم أحد ! وأنا اؤكد لك انهم لا يقدرون أن يعيشوا في حالة الإثم المميت.

فلم تُلحّ ستيفا بعد ذلك ، ولكنها روت لي انه قد سبق لها مراراً ان التقت بهنري وادغار في مونبارناس وهما بصحبة نساء لا يشك بأمرهنّ .. والواقع ان هذين الشابين لم يكن عليهما مظهر صبيان الجوقة الدينية . ولقد فكّرت آنذاك بجاك : كان له مظهر آخر تماماً ، وكان من المستحيل الافتراض بأنه كان يضاجع النساء . ومع ذلك ، فان ستيفا ، إذ كشفت لي سذاجة زازا ، كانت انما تشكّ في تجربتي أنا أيضاً . وقد كان طبيعياً جداً في رأيها التردّد إلى المشارب وإلى المقاهي التي كنت أبحث فيها عن الأشياء الخارقة . ولا شك في انها كانت تنظر إلى هذه المشارب والحانات من زاوية أخرى . وأدركت انني انما كنت أنظر إلى الناس كما يظهرون لي ، ولم أكن أتهمهم بأن لهم حقيقة غير الحقيقة الرسمية . وقد ذكرتني ستيفا بأن لهذا العالم المراقب المنظّم أروقة وكواليس . ولقد أقلقتني هذه المحادثة .

ولم تصحبني زازا ، ذلك العام ، إلى المحطة لتوديعي . ولقد تنزهت قليلاً في انتظار القطار وأنا أفكر فيها . وكنت عازمة على أن أناضل بكل قواي لتتغلب الحياة فيها على الموت .

القسم الرابع

١

ولم تشبه هذه العودة إلى السوربون اية عودة سابقة . فاني حين عزمت على الاستعداد للمباراة ، نجوت أخيراً من التيه الذي كنت أدور فيه منذ ثلاثة أعوام : لقد بدأت السير نحو المستقبل . وقد كان لأيامي بعد الآن معنى خاص : انها تقودني إلى التحرّر النهائي . على أن صعوبة المشروع كانت تقلقني ، فليس ثمة مجال بعد للتيه والشرود ، ولا للضجر والملل . لقد كانت الارض التي أجد فيها الآن شيئاً أعمله تكفيني تماماً . لقد تحررت من القلق واليأس وجميع الوان الكآبة . « لن أسجل على هذا الدفتر صراعات مأساوية ، وانما القصة البسيطة لكل يوم . » كان عندي شعور بأن حياتي الحقيقية تبدأ ، بعد تدريب شاق ، فألقيت فيها نفسي بفرح .

وفي اكتوبر ، كانت مكتبة السوربون لا تزال مغلقة ، فأمضيت أيامي في المكتبة الوطنية . وكان قد سُمح لي بألاّ أعود ظهراً إلى البيت لتناول الغداء ، فكنت أشتري بعض الخبز والكبد وآكل في حدائق « الباليه رويال » وانا أنظر إلى آخر الورود تموت . وكان بعض الناس جالسين على المقاعد يمضغون الطعام ويشربون الخمر . فاذا اكفهرّ الجو كنت الجأ إلى مقهى قريب وأنا سعيدة بأن أفلت من رسميات الوجبات العائلية . وكان يخيّل إليّ إذْ أقلّل الطعام وأردّه إلى حقيقته اني أخطو خطوة أخرى نحو الحرية . وبعد أن أنتهي أعود إلى المكتبة

وأدرس نظرية النسبية وأبتهج لذلك . وبين فترة وأخرى ، كنت أنظر إلى القرّاء الآخرين وأستقرّ راضية في مقعدي : لقد كنت في مكاني الحقيقي بين هؤلاء البحّاثين والعلماء والمفكرين . ولم أعد أشعر أن وَسَطي يطرحني عنه ، فأنما أنا التي تركته لأدخل هذا المجتمع الذي تتواصل فيه ، عبر المدى والقرون ، جميع الاذهان التي تهتمّ بالحقيقة ؛ وأنا كذلك كنت أسهم في الجهد الذي تبذله الانسانية لتعرف وتفهم وتعبّر عن نفسها : لقد انضويت تحت راية عمل جماعي عظيم ، وأفلتّ من الوحدة إلى الابد . فأي نصر هذا !

وعدت إلى عملي . وفي الساعة السادسة إلا ربعاً صاح حارس المكتبة « أيها السادة سنغلق المكتبة عما قريب » . ثم تكون مفاجأة لي ، كل يوم ، إذ أخرج من المكتبة ، أن ألقى المخازن والانوار والمارّة والقزم الذي كان يبيع البنفسج إلى جانب « التياتر فرانسيه » . وكنت أسير على مهل ، مستسلمة لكآبة المساء والعودة .

وعادت ستيفا إلى باريس بعدي بأيام وكانت تتردّد على المكتبة الوطنية لتقرأ جوته ونيتشه . وكانت عيناها وابتسامتها دائماً بالمرصاد ، ولهذا كانت تروق للرجال أكثر مما ينبغي ، وكانوا هم يشغلونها إلى حدّ انها لم تكن لتعمل بثبات وجدّ . فما تكاد تأخذ مقعدها ، حتى ترمي معطفها على عاتقها وتخرج لتلقي أحد مُغازليها : الأستاذ الالماني أو الطالب البروسي أو الدكتور الروماني . وكنا نتناول الغداء معاً ، وبالرغم من انها لم تكن غنيّة ، فانها كانت تقدّم لي بعض الحلويات في مخبز أو مقهى . وعند الساعة السادسة كنا نتنزّه في الشوارع أوغالباً ما نأخذ الشاي عندها . وكانت تنزل في فندق بشارع « سان سولبيس » في غرفة صغيرة زرقاء ، وكانت قد علّقت على الجدران رسوماً لسيزان ورنوار وغريكو ورسوم صديق اسباني كان يتدرب على الرسم ؛ وكانت تروقني صحبتها ، وكنت أحب رقة فروها وأثوابها وعطرها

وتسجيعها وحركاتها الملاطفة . لقد كانت علاقاتي مع أصدقائي – زازا ، جاك ، براديل – على جانب كبير من القسوة . أما ستيفا فقد كانت تتناول ذراعي في الشارع ، وكانت في السينما تضع يدها في يدي وتقبّلني في كل مناسبة . وكانت تروي لي قصصاً كثيراً وتتحمّس لنيتشه وتهاجم السيدة مابيل ، وتسخر من محبيها : وكانت تنجح نجاحاً عظيماً في التقليد وتقطع قصصها بتمثيليات فكاهية كانت تسليني كثيراً .

وكانت ستيفا تصفّي في تلك الاثناء رصيداً قديماً من التديّن .وكانت قد اعترفت في « لورد » وتناولت القربان . وفي باريس اشترت كتاب قداس صغيراً وركعت في كنيسة بشارع سان سولبيس محاولة أن تصلّي ، ولكنها لم توفّق . وظلّت طوال ساعة تذرع باحة الكنيسة جيئة وذهاباً دون أن تعزم على دخولها ثانية أو على الابتعاد عنها . ولقد رأيتها تقلّد هذه الأزمة التي عانتها ، واضعة يديها وراء ظهرها ، مجعّدة جبينها ، مندفعة ، حتى شككت في صدق ذلك . فالواقع ان الآلهة التي كانت ستيفا تعبدها انما هي الفكر والفنّ والعبقرية ، فاذا لم توجد ، فقد كانت تقدّر الذكاء والموهبة . وكلما كانت تجد أثر رجل « هامّ » كانت تتدبر امرها لتتعرف عليه ولتضع « رِجْلها فوقه » . وقد أوضحت ان هـذا هو « الانوثة الخـالدة » ، وانها كانت تفضّل على هذه المغازلات المحادثات الفكرية والزمالة ، وكانت تناقش كل اسبوع جمـاعة من الاوكرانيين الذين كانوا يدرسون في باريس . وكانت ترى كل يوم صديقها الاسباني الذي كانت تعرفه منذ سنوات والذي كان قد اقترح عليها ان يتزوجها . وقد لقيته عـدة مرات عندها ، وكان يسكن في الفندق نفسه ، ويُدعى فرناندو ، وهو سليل احدى تلك الأسر اليهودية التي فرّت من اسبانيا بسبب التعذيب منذ اربعة قرون ، وكان يقوم بدراسته في باريس . وكان ذا رأس أصلع ويتحدث عن « شيطانه » بلهجة رومانتيكية ولكنه كثير السخرية ، وقد راق لي كثيراً . وكانت ستيفا معجبة بأنه كان يتدبر امره

ليقوم بالرسم من غير ان يملك فلساً ، وكانت تقاسمه جميع أفكاره ، وكان اتجاههما عالمياً مسالماً وثورياً . وهي لم تكن تتردد في الزواج به الا لأنها كانت شديدة الحرص على حريتها .

وقد عرفتهما على اختي فأسرعا إلى تبنيها ، كما عرفتهما على أصدقائي وكان براديل قد سقط فكسر رجله ، وكان ما يزال يعرج حين لقيته في مطلع تشرين في حديقة اللكسمبورغ . وبدا في نظر ستيفا عاقلا جداً ، بينما افزعته هي بحيويتها . وكانت أكثر تفاهماً مع ليزا . وكانت هذه تسكن آنذاك بيتاً للطالبات يشرف على حديقة اللكسمبورغ الصغيرة ، وتكسب حياتها من اعطاء الدروس الخاصة . وكانت تعد شهادة في العلوم ودبلوماً عن « مين دو ميران » ، ولكنها لم تكن تفكر بأن تتقدم لشهادة « الاغريغاسيون » إذ كانت صحتها ضعيفة ، وكانت تمسك رأسها بين يديها وتقول « يا لعقلي المسكين ! تصوروا اني لا أستطيع ان أعتمد الا عليه ، وان عليّ ان استمد كل شيء منه ! إن هذا غير انساني : ولا بدّ ان يهترئ ذات يوم ! »

وكنت أتحدث كثيراً مع ستيفا عن زازا التي كانت تمدد إقامتها في « لوباردون » . وكنت قد ارسلت اليها من باريس عدة كتب ، فغضبت السيدة مابيل ، كما أبلغتني ستيفا ، وقالت : « انني اكره المفكّرات والمفكرين ! » وبدأت زازا تقلقها حقاً ، ولن يكون من السهل ان يفرض عليها زواج مدبر . وكانت السيدة مابيل نادمة على انها تركتها تتردد إلى السوربون ، وكانت تعتبر ضرورياً ان تعجل باستعادة ابنتها ، وان تزيل عنها تأثيري . وكتبت لي زازا انها صارحت أمها بمشروعنا الذي حدثتها عنه بشأن التنس فثارت امها : « وقالت انها لا تقر أخلاق السوربون هذه ، وانها لن تتركني أذهب إلى لعبة تنس تنظمها طالبة في العشرين للقاء شبان لا تعرف حتى أسرهم . وأنا أقول لك ذلك بكل جفاف ، لأني اوثر ان تدركي هذه الحالة الذهنية التي أصطدم بها بلا انقطاع والتي

تجبرني على إطاعتها فكرة مسيحية . ولكني اليوم ثائرة الاعصاب إلى حد البكاء ، إن الاشياء التي أحبها لا تحب بعضها ، ولقد سمعت أشياء تثير ني بحجة المبادئ الاخلاقية . ولقد اقترحت بتهكم ان اوقع ورقة أتعهد بها ألاّ اتزوج براديل ولا كليرو ولا أحداً من أصدقائهما ، ولكن ذلك لم يـُهدّئ امي . »

وفي الرسالة التالية أبلغتني ان أمها قد عزمت ، لكي تجبرها على ان تقطع صلتها بالسوربون ، على ان توفدها لقضاء الشتاء في برلين ،وقالت لي : إن أسر البندة قد اعتادت في الماضي ، إذا شاءت ان تضع حداً لعلاقة تثير الفضيحة أو الارتباك ، على ارسال ابنائها إلى امبركا الجنوبية .

وكتبت إلى زازا رسائل مطولة ، في الاسابيع الاخيرة ، كما لم اكتب من قبل قط ، ولم يسبق لها ان اعترفت لي بمثل هذه الصراحة . ومع ذلك ، فان صداقتنا بدت مضطربة حين عادت إلى باريس في منتصف اكتوبر . ولم تكن زازا تحدّثني الا عن الصعوبات وعن ثوراتها فأشعر اني حليفتها ، ولكن موقفها كان في الحقيقة غامضاً : ذلك انها كانت تحتفظ لامها بكل احترامها وكل حبها وتظل متضامنة مع وسطها . ولم أعد أستطيع إقرار هذه القسمة . وكنت قد فكرت بمدى عداء السيدة مابيل ، فأدركت انه لم يكن بين المعسكرين اللذين تنتمي اليهما أي مجال لتسوية : فان انصار المجتمع المصطنع كانوا يريدون إبادة « المفكرين » والعكس بالعكس . وحين لا تنحاز زازا إلى جانبي ، فانها تتعاقد مع منافسين يجهدون في تهديمي ، وإني لأعتب عليها في ذلك . وكانت تخشى الرحلة التي فرضت عليها وتتبرم بها ، ولقد عبّرت عن ضغينتي إذ رفضت مشاركتها همومها ، وتصنعت مزاجاً بشوشاً آلمها وأحزنها . وتظاهرت بتعلق شديد بستيفا ورحت اجاريها في ضحكها وثرثرتها . وكانت أحاديثنا غالباً ما تثير حسّ الاخلاق عند زازا . وقد قطبت جبينها حين أعلنت ستيفا ان الناس هم عالميون بقدر ما هم اذكياء . وكان

ردّ فعلها على تصرفاتنا « كفتيات بولونيات » انها أخذت تسلك مسلك « الفتاة الفرنسية الرصينة » . وهذا ما ضاعف مخاوفي : فربما انحازت بعد ذلك إلى صف الاعداء . ولم أعد اجروء على ان اتحدث اليها بحرية حتى اني أصبحت اوثر ان اراها مع براديل وليزا واختي وستيفا على ان اراها وحدها . ثم إن معدات سفرها كانت تستغرقها : ولقد تبادلنا الوداع ، من غير اقتناع كبير ، في مطلع شهر نوفمبر .

وفتحت الجامعة أبوابها من جديد ، وكنت قد قفزت عاماً ، فلم اعرف من رفاقي الجدد غير كليرو ، ولم يكن بينهم أي هاوٍ ، إذ كانوا جميعاً « حيوانات مباراة » مثلي تماماً . وكنت ألاحظ ان لديهم هيئة منفرة ومزاجاً مدّعياً ، فعزمت على ان أتجاهلهم ، ومضيت أعمل باجتهاد . وكنت أتابع في السوربون جميع دروس « الاغريغاسيون » وأقصد مكتبة سانت جانفياف والمكتبة الوطنية في أوقات الفراغ . وفي المساء كنت اقرأ الروايات أو أخرج . كنت قد شخت ، وسوف اتركهم عما قليل : وقد سمح لي والدي ذلك العام ان أخرج مساء لاحضر المسرح بين وقت وآخر وحدي او بصحبة صديقة . وتحت تأثير ستيفان ، غدوت اقلّ إهمالاً لملبسي ومظهري من ذي قبل . وقد أبلغتني ان الاستاذ الالماني كان يأخذ عليّ ان أمضي وقتي كله في الكتب : فان من المبكر جداً ان تظهر فتاة في العشرين بمظهر النساء العالمات ، واني سأغدو قبيحة على مرّ الأيام . وقد احتجّت على هذا القول ، ولم تكن تريد ان تفقد أفضل صديقة لها مزاياها . وكانت تؤكد لي اني كنت املك رصيداً طيباً من الناحية الجسمية وان عليّ ان أفيد من ذلك ، فاعتدت بعد هذا ان اتردد على المزيّن واهتممت بشراء قبعة وتفصيل ثوب ، وعدت أعقد بعض الصداقات . ولم تعد الآنسة لامبير تثير اهتمامي ، وكانت سوزان بواغ قد تبعت زوجها إلى مراكش ، ولكني عدت أجتمع بريسمان واسترجعت ودّي لجان ماليه الذي أصبح معيداً في معهد سان جرمان ، وكان يهيء

دبلوماً تحت اشراف « باروزي » . وكان كليرو يأتي غالباً إلى المكتبة الوطنية ، وكان براديل يحترمه حتى انه اقنعني بقيمته الكبيرة . وقد أكد لي أني سأنجح في امتحان « الاغريغاسيون » :

— يبدو انك تنجحين في كل عمل تقومين به .

فغرّتني هذه العبارة . وكانت ستيفا تشجعني كذلك :

— ستكون لك حياة جميلة وستحصلين دائماً على ما تشائين .

ومضيت واثقة من نجمي ، راضية عن نفسي . وكان الخريف جميلاً وكنت أشعر بسعادة إذ ارى السماء رقيقة ساجية ، عندما أرفع انفي عن كتبي .

وكنت أحياناً افكر بجاك لأتأكد من اني لست « جرذ مكتبة » . وكنت اكرّس له صفحات مذكراتي ، وأكتب له رسائل كنت أحتفظ بها لنفسي . وحين رأيت امه في مطلع نوفمبر ، بدت لي شديدة الودّ ، وقالت لي إن جاك يسألها دائماً عن « الكائن الوحيد الذي يعنيني امره في باريس » . وابتسمت لي وهي تقول ذلك .

وكنت أعمل بجد واتسلى . وكنت قد استعدت توازني ، وتذكرت بدهشة حركاتي الماجنة في الصيف . إن تلك الحانات والمراقص التي قضيت فيها امسيات لم تعد توحي لي بغير الاشمئزاز ، بل بنوع من الاستفظاع .

وكانت ستيفا تقول لي غالباً :

— كم انت مثالية !

وكانت تحرص على الاّ تنفّرني . وذات يوم ، أشار فرناندو إلى صورة امرأة عارية كانت معلّقة على جدران الغرفة الزرقاء وهو يقول :

— انها ستيفا وقد تعرّت للرسم .

فارتعت لذلك ، ورأيته ورأيتها تقذفه بنظرة غاضبة وهي تقول :

— لا تنطق بمثل هذه الحماقات !

فاعترف على عجل بانه كان يمزح .. إنه لم يخطر على بالي قطّ ان تستطيع ستيفا تبرير حكم السيدة مابيل عليها : « انها ليست فتاة رصينة » على انها كانت تحاول باعتدال ان تحرّرني قليلاً :

— أؤكد لكِ يا عزيزتي ان الحب الجسدي شيء هام جداً ، وخصوصاً بالنسبة للرجال .

وذات ليلة ، رأينا ونحن خارجتان من احد المسارح في ساحة « كليشي » اناساً متجمّعين حول شرطي قد أوقف شاباً أنيقاً كانت قبعته قد سقطت في الساقية ، وكان يتخبّط باهت الوجه ، وكان الجمهور يصيح به « عكـ ... قذر » وحسبت انني سأسقط على الرصيف مغمى عليّ ، وجذبت ستيفا ، وكانت الانوار وصخب الشارع والنساء المزيّنات ، كل ذلك كان يحدوني إلى أن أصيح . وسمعت ستيفا تقول لي :

— ولكنها الحياة يا سيمون !

وأخذت تشرح لي بصوت هادئ ان الرجال ليسوا قدّيسين . صحيح أنّ هذا يثير « الاشمئزاز » قليلاً ، ولكنه موجود ، بل هو ذو أهمية كبيرة للجميع . وروت لي ، لتأييد ذلك ، طرفاً من الأقاصيص التي صلّبت أعضائي . على اني كنت بين آن وآخر أبذل مجهوداً من الصراحة : ما هو مصدر مقاومتي هذه ؟ « أتكون هي الكاثوليكية قد خلّفت في نفسي حساً عميقاً للطهارة بحيث أن أدنى إشارة إلى شؤون الجسد كانت تترك فيّ ضيقاً لا يُعبّر عنه ؟ انني اتذكر « كولومب » بطلة الين فورنيه التي قذفت بنفسها في البحيرة حتى لا تخون طهارتها ؟ أم لعلّها الكبرياء ؟ »

ولم أكن أزعم طبعاً أنّ على الفتاة ان تلح إلى ما لا نهاية على الاحتفاظ ببكارتها ، ولكني كنت أقنع نفسي بأن من الممكن الاحتفال في السرير باقامة قدّاس أبيض : فان الحب الحقيقي يسمو بالعناق الجسدي ، وان الفتاة الطاهرة تتحول بجذل ، وهي بين ذراعي رجلها

المختار ، إلى امرأة مشرقة . وقد كنت احب فرانسيس جامس لأنه كان يصور الشهوة بألوان بسيطة كأنها ماء ينبوع ، وكنت احب على الاخص كلوديل لأنه كان يمجد في الجسد حضور الروح حضوراً حسياً مدهشاً ؛ وقد طرحت كتاب جول رومان « الرب في الجسد » لأن اللذة لم تكن مصوّرة فيه على انها تحوّل للفكر . وقد أغاظني كتاب « آلام المسيحي » لمورياك الذي كانت تنشره مجلة « ن . ر . ف ».لقد كان الجسد المنتصر عند أحدهم ، والذليل عند الآخر يتخذ من الاهمية في الحالين اكثرمما ينبغي؛ وقد حنقت على كليرو الذي هاجم ، في اجابة له حول تحقيق قامت به « الاخبار الادبية » ، هاجم « بؤس الجسد وسيادته الفاجعة ». وكذلك حنقت على « نيزان » وعلى زوجته لأنهما كانا يدعوان إلى اباحية جنسية تامة بين الزوجين .

وكنت أبرّر نفوري كما كنت ابرره وأنا في السابعة عشرة : إن كل شيء يسير على ما يرام إذا أطاع الجسم الرأس والقلب ، ولا ينبغي له ان يتقدّم عليهما . وقد كانت هذه الحجة تزداد ضعفاً إذ كنت ارى ان ابطال « رومان » كانوا في الحب ارادين ، وان نيزان وزوجته يدافعان عن الحرية في الجنس . والحق ان الاحتراس العاقل الذي كنت أحمله وأنا في السابعة عشرة لم يكن ذا علاقة « بالاستفظاع » العجيب الذي كان غالباً ما يثلجني . فانني لم أكن احسّني مهددة بصورة مباشرة ، لقد عبرت احياناً بعض لحظات الاضطراب الجنسي : حين كنت مثلاً بين ذراعي بعض الراقصين في ملهى « جوكي » أو حين كنّا أنا واختي في حدائق « مارنياك » نتعانق فوق الاعشاب ، ولكن ذلك الدوار كان يروق لي ، وكنت راضية عن جسدي ، وكانت عندي رغبة فضولية في ان اكتشف ينابيعه وأسراره ، وكنت انتظر بنفاد صبر ، ومن غير كراهية ، اللحظة التي أصبح فيها امرأة . وكنت اجدني بطريقة غير مباشرة ، موضوعاً للمناقشة عبر جاك : فاذا لم يكن الحب الجسدي غير لعبة بريئة ،

فليس هناك أي سبب لعدم قبوله . ولكن لا بدّ ان محادثاتنا كانت بلا أهمية ولا وزن ثقيل إزاء المشاركات الجذلة العنيفة التي عرفها مع نساء أخريات : لقد كنت معجبة بسمو علاقاتنا وصفائها . والحقيقة انها كانت علاقات غير كاملة باهتة ، كما ان الاحترام الذي كان جاك يكنّه لي يصدر عن المفهوم التقليدي للأخلاق ، لقد كنت اسقط في الدور العاق الذي يمكن ان تلعبه ابنة عم صغيرة محبوبة : وما كان أبعدها مسافة بين هذه العذراء ، وبين رجل غنيّ بتجاربه كرجل ! ولم اكن راغبة في الاستسلام لمثل هذه الدونية ، وانما كنت أفضل ان ارى في المجون لطخة فيمكنني اذ ذاك ان ارجو ان يحترس منه جاك ، والاّ فانه لن يوحي إلي بالرغبة بل بالشفقة . كنت أفضل ان أغفر له بعض نقائصه على ان أبعد عن ملذّاته . غير ان هذه الفكرة كانت أيضاً تزعجني . كنت أنشد امتزاجاً شفافاً لروحينا ، فاذا سبق له ان اقترف اخطاء سوداء ، فانه سيفلت مني ، في الماضي والمستقبل . لأن قصتنا التي شُوّهت منذ البدء لن تنسجم ابداً مع القصة التي اخترعتها أنا . وقد كتبت في مذكراتي : « انني لا أريد ان تكون للحياة ارادات غير ارادتي . » وهذا على ما احسب هو المعنى العميق لقلقي . كنت أجهل كل شيء تقريباً عن الواقع. فقد كان هذا الواقع ، في وسَطي ، مقنّعاً بالمواضعات والطقوس ، وكانت هذه المواضعات تبعث فيّ الضجر ، ولكني لم أكن احاول ان ادرك الحياة في جذورها . بل كنت على العكس افرّ إلى الغيوم : لقد كنت روحاً ، مجرّد نفس ، ولم أكن اهتم الا بالارواح والنفوس . وكان تدخّل القضية الجنسية يفجّر هذه الملائكية ، فيكشف لي فجأة ، في وحدتها التي تبعث على الخوف ، الحاجة والعنف . لقد عانيت في ساحة « كليشي » صدمة عنيفة لأني شعرت ان بين تجارة العكا .. ووحشية الشرطي أوثق صلة . لم أكن أنا موضوع القضية ، بل العالم كله : فاذا كان البشر أجساداً جائعة ذات وزن ثقيل ، فان العالم لم يكن يستجيب

قطّ للفكرة التي كوّنتها عنه ، الشقاء والجريمة والضغط والحرب : ان هذه آفاق كانت ترعبني إذ أتخيّلها .

ومع ذلك ، فقد عدت ، في منتصف نوفمبر ، إلى مونبارناس : فلقد تعبت من النظام الدراسي والثرثرة والذهاب إلى السينما . أهذه هي الحياة ؟ اتراني انا التي كنت أعيش على هذا النحو ؟ لقد كانت هناك دموع وحمّيات ، وكانت هناك المغامرة والشعر والحب : حياة رقيقة ، ولم أكن اريد ان اسقط . وكنت اتفقت مع أختي ذلك المساء ان نحضر مسرح « الاوفر » ، ولكني حين لقيتها في مقهى « الدوم » سحبتها إلى « الجوكي » . ورطّبت نفسي في الدخان والخمر والتبغ ، كما يغرق المؤمن في رائحة البخور والشموع حين يخرج من ازمة جفاف . وما لبثنا ان تذكرنا مواقفنا السابقة في مثل هذه الامكنة ، فأخذنا نتبادل أنا وأختي الشتائم الصاخبة كما تبادلنا شدّ الشعر . وتمنيت ان أجرح قلبي جرحاً أعمق فقُدت اختي إلى « الستريكس » والتقينا هناك ببريسون وأحد أصدقائه ممن يبلغون الاربعين . وقد بدا هذا الرجل يغازل بوبيت ، وقدم لها ضمّة من البنفسج بينما كنت أتحدث مع ريكيه الذي كان يمتدح لي جاك ويقول عنه « لقد عانى صدمات شديدة ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها » . وحدثني عن القوة التي تكمن في ضعفه ، وأي اخلاص يختفي تحت ادّعائه ، وكيف كان يحسن الحديث عن الاشياء الرصينة المؤلمة ، وكيف قدّر عبثية كل شيء بتبصّر عظيم . وانتهى إلى القول باعجاب :

– ان جاك لن يكون أبداً سعيداً .

فانقبض قلبي لذلك وسألته :

– واذا أتى من يعطيه كل شيء ؟

فكان جوابه « ان ذلك يُذلّه » . فعاد الخوف والأمل إلى صدري . وعلى طول شارع راسباي ، كنت انتحب وأنا أخفي وجهي في ضمة

البنفسج .

كنت أحب الدموع والامل والخوف . وحين قال لي كلبرو في اليوم التالي وهو يحدّق في :

– ستكتبين رسالة عن سبينوزا ، فليس في الحياة غير ذلك . ان يتزوج الانسان وان يكتب رسالة .

شعرت بالتمرّد . ان يمتهن الانسان مهنة ، وان يتزوج : طريقتان للتخلّي والاستقالة . وأقرّني براديل على ان العمل أيضاً يمكن ان يكون مخدّراً . وشكرت باخلاص جاك الذي انتشلني طيفه من تبلّدي المجدّ . صحيح ان عدداً من أصدقاء السوربون كانوا أكبر منه قيمة فكرية ، ولكن هذا كان عندي سواء . لقد كان يخيّل إليّ ان مستقبل كلبرو وبراديل مرسومٌ مقدّماً ، أما حياة جاك وأصدقائه فقد كانت تبدو لي كأنها سلسلة من ضربات الزهر : فقد ينتهون إلى تحطيم أنفسهم أو إفساد حياتهم . وكنت أفضّل هذه المجازفة على جميع التصلّبات .

وطوال شهر جعلت أصطحب مرة أو مرتين في الاسبوع كلاً من ستيفا وفرناند وصحافياً اوكرانياً من أصدقائهم إلى ملهى « ستريكس » ، وكذلك اختي وليزا وماليه . ولا أدري اين كنت أجد المال تلك السنة لأني كنت انقطعت عن اعطاء الدروس . لا شك اني كنت اوفر بعض الفرنكات الخمسة التي كانت أمي تعطيني اياها كل يوم للغداء . على أي حال ، كنت أنظّم ميزانيتي على ضوء هذه الجلسات الصاخبة . وكانت ستيفا تتنكر بزيّ خادم المقهى وتساعد ميشال على خدمة الزبائن ، مازحة معهم باللغات الأربع وتغني ألحاناً اوكرانية . وكنت أتحدث مع ريكيه وصديقه عن جيرودو وجيد والسينما والحياة والنساء والرجال والصداقة والحب . وفي اليوم التالي كنت أسجّل : « أمسية رائعة » ولكني كنت اقطع مذكراتي بعبارات معترضة ذات لهجة مختلفة تماماً . كان ريكيه قد قال لي عن جاك :

– سيركب رأسه يوماً ويتزوج ، ولعلّه سيكون أباً صالحاً لأسرة : ولكنه سيحنّ دائماً إلى المغامرة .

ولم تكن هذه التنبؤات تزيد في اضطرابي ، وانما الذي كان يزعجني هو ان جاك قد قضى طوال ثلاثة أعوام حياة شبيهة بحياة ريكيه . ولقد كان هذا يتحدث عن النساء بتحرّر يزعجني : فهل كان بوسعي ان أعتقد ان جاك كان أخاً لمولن الكبير ؟ لقد كنت اشك في ذلك . ومهما يكن، فقد خلقت له هذه الصورة دون ما اعتراف منه ، وبدأت أقول انه ربما لم يكن يشبهه قط . إلا أن ذلك كله كان يؤلمني .. واذا كان العمل مخدّراً ، فإن الخمر والقمار ليسا خيراً من ذلك . إنّ محلّي لم يكن في الحانات ولا في المكتبات ، فاين هو إذن ؟ إني لم أكن أجد الخلاص بكل تأكيد الا في الأدب ، وقد بدأت افكر برواية جديدة ، وسأجعل بطلتها فتاة هي أنا ، وبطلاً يشبه جاك « بكبريائه ورغبته الجنونية في التهديم » . ولكن ضيقي استمر . وذات مساء رأيت في ركن من « الستريكس » كلاً من ريكيه وصديقته اولغا التي كنت أجدها أنيقة جداً . وكانوا يعلقون على رسالة جاءتهم من جاك ، فكتبوا له بطاقة ، ولم أستطع إلا ان اتساءل : « لماذا يكتب لهم ولا يكتب لي قط ؟ » ورحت أسير طوال ساعات في الشوارع ، احسّ الموت في روحي ، ثم انتهى بي المطاف إلى قاعة سينما ، فانخرطت هناك في البكاء .

وفي اليوم التالي أقبل براديل يتناول العشاء عندنا ، وكانت له علاقات طيبة بوالديّ ، ثم ذهبنا معاً إلى احدى دور السينما . ولكني طلبت منه فجأة ، ونحن في منتصف الطريق ، أن يأخذني إلى «الجوكي». فوافق بلا حماسة ، وجلسنا إلى طاولة ، كالزبائن الرصينين ، ثم أخذت أشرح له من هو جاك الذي لم أكن حدثته عنه الا حديثاً خاطفاً . فاستمع إليّ بتحفّظ . وكان واضحاً انه منزعج من ذلك . وقد سألته عما إذا كان

لا يروقه أن اتردّد إلى مثل تلك الامكنة ، فقال إن ذلك شخصيـــاً يزعجه . وفكرت في انه لم يعرف هذا المطلق من الوحدة واليأس الذي يبرّر كل التصرفات الشاذة . على اني في ذلك اليوم ، رأيت المرقـص بعين جديدة ، وأنا جالسة على مقربة من المشرب الذي طالما أظهرت عنده المجون والجنون : فان نظر براديل الحكيم قد أطفأ في هذا المرقص كل شاعريته . ولعلني لم أصحبه إلى هناك الا لكي أسمعه يقول لي بصوت مرتفع ما كنت أقوله لنفسي بصوت منخفض : « ماذا أتيت أفعل هنا ؟ » ومهما يكن من أمر ، فقد رأيت انه على حق ، بل اني قد حوّلت قسوتي إلى جاك : لماذا يضيع وقته في التشرّد ؟ وقطعت صلتي بالمجون ، ولم انتهز فرصة غياب اهلي بضعة أيام في « اراس » ، ورفضت ان أتبع ستيفا إلى مونبارناس ، بل رفضت بانزعاج اقتراحاتها ، وظللت قريبة من مدفأتي اقرأ « ميريديث » .

وكففت عن التساؤل عن ماضي جاك . فلئن اقترف بعض الاخطاء، في آخر المطاف ، فان وجه العالم لم يتغيّر بسبب ذلك. وحتّى في الوقت الحاضر ، كففت عن الاهتمام به ، فانه صموت أكثر ممـا ينبغي ، وإن هذا الصمت أصبح يشبه العداء . وحين حملت إليّ جدّته السيدة فلاندان بعض أخباره ، تلقيت هذه الاخبار بلا اكتراث . غير أنني كنت أكره ان اسقط من يدي شيئاً ، فزعمت لنفسي ان حبنا لا بدّ ان يبعث من جديد يوم يرجع جاك .

٢

وظللت أعمل بجدّ ، وكنت أقضي عشر ساعات كل يوم بين كتبي. وفي كانون الثاني بدأت أقوم بالتدريب في معهد « جانسون دوسايي » تحت مراقبة « رودريغ » وهو إنسان كهل لطيف جداً ، كان يرأس

عصبة حقوق الانسان ، وقد انتحر عام ١٩٤٠ حين دخل الالمـان إلى فرنسا . وكان بين زملائي ميرلو بونتي وليفي ستروس ، وكنت أعرفهما قليلاً من قبل ، وكان اولهما قد اوحى لي دائماً بالود ، وكان الثاني يخيفني بخموله ، ولكنه كان يتلاعب بـه بمهارة ، وكنت أراه عجيبـاً حين يشرح بصوت محايد ، وسحنة ميتة ، نظرية جنون الشهوات . وقد كانت تمرّ أوقات باهتة ارى انه كان مضحكاً فيه أن يشرح مثل ذلك أمام أربعين طالباً لا يهتمون ظاهراً بالموضوع . أما في الايام المشرقـة الأخرى ، فكنت احسب اني أرى في بعض العيون أشعّة ذكاء . وكنت اذكر انفعالي حين كنت أتردد في معهد ستانيسلاس إلى صفّ كان فيـه صبيان ! اما الآن ، فاني على الطاولة أعطي الدروس ، ولا يبدو لي شيء في الدنيا خارج الإدراك .

ولم يكن يؤسفني طبعاً ان أكون امرأة ، بل لقد كنت استمدّ من ذلك الواناً كثيرة من الرضى . وكانت تربيتي قد أقنعتني بأنّ جنسي كان دون جنس الذكور في الذكاء ، وكانت الآنسة رولان تقول لي « إن المرأة لا تأمل ان تنجح في امتحان الاغريغاسيون قبل ان تسقط فيه خمس مرات » . وكانت هي قد سقطت مرتين . وكانت هذه العقبة تُكسب نجاحي إشراقـاً أندر مما كانت تُكسبه لنجاح الطلاب الذكور ؛ وكان حسبي ان أساويهم لأحس اني فذّة . والواقع اني لم ألق بينهم احداً أدهشني ، فقد كان المستقبل منفتحاً لي كأي فرد منهم ، ولـم يكن لهم عليّ ايـة ميزة ، والحق انهم لم يكونوا يدّعون ذلك ، وكانوا يعاملونني بلطف خاص لأنهم لم يكونوا يعتبرونني منافسة لهم ، وكنت فخورة بأن أحصل على تقديرهم . وقد دعا براديل إلى منزله ذات مساء احسن أصدقائه مع اخواتهن . وقد صحبتني اختي ، فاذا بجميع الفتيات ينسحبن إلى غرفة مجاورة ، وأبقى أنا مع الشباب .

غير اني لم أكن أنكر انوثتي . وكنا ذلك المساء بالذات قد عنينا ،

أنا وأختي ، بملبسنا ومظهرنا عناية شديدة . وكنت قد التقيت في أثناء سهراتي بمونتمارتر فتيات جميلات انيقات ، وكانت حياتهن تختلف عن حياتي بحيث لا تصحّ المقارنة . بيد انه لم يكن ثمة ما يمنعني من تقليدهن حين كان المال يتوفّر لي . ولم أكن قد نسيت ان جاك قال عني بأني جميلة ، كما ان ستيفا وفرنان أملاني كثيراً في هذا الموضوع . وكنت أقف كثيراً أمام المرآة في تلك الفترة ، فأروق لنفسي . ولم أكن أعتبر نفسي ، في الحقل الذي كان مشتركاً بيننا ، دون سائر النساء ثقة ، ولهذا لم أكن أشعر نحوهنّ بأي حسد ، ولم أكن أجهد في أن احتقرهنّ . وكنت أضع زازا وأختي وستيفان وحتى ليزا فوق كثيرين من أصدقائي الشباب ، إذ كنّ أشد حساسية وكرماً وأوفر موهبةً للحلم والدموع والحب . وكان يغرّني ان أجمع في نفسي « قلب امرأة وعقل رجل » وهكذا كنت استرد ايماني بأني « فريدة » و « فذّة » .

على ان ما كان يُعدّل من هذا الغرور اني كنت احبّ خصوصاً في نفسي ما كنت أوحيه للآخرين من عواطف ، واني كنت اهتمّ للآخرين أكثر من اهتمامي بنفسي . وفي العهد الذي كنت أتخبّط فيه في الأشراك التي كانت تعزلني عن العالم ، كنت أحسّني مفصولة عن أصدقائي ، ولم يكونوا يستطيعون مساعدتي في شيء . أما الآن ، فاني مشدودة اليهم بهذا المستقبل الذي استوليت عليه مجدداً وأصبح مشتركاً بيننا . وهذه الحياة التي عُدت أجد فيها كثيراً من الوعود ، انما كانت تتجسد فيهم . وكان قلبي يخفق لهذا ولذاك وللجميع معاً : كان مشغولاً ابداً.

كانت اختي تأتي في المرتبة الاولى من حبي . وكانت تدرس في هذه الفترة فن الاعلان في احدى المؤسسات ، وكانت بذلك راضية . وفي احدى الحفلات التي أقامتها مدرستها ، تنكّرت بلباس راعية وغنّت أغاني فرنسية قديمة ، فوجدتها ساحرة باهرة . وكانت أحياناً تذهب إلى السهرة ، وحين كانت تعود شقراء مورّدة منتعشة ، في ثوبها

الازرق الجميل ، كانت غرفتنا تشع إشعاعاً . وكنا نزور معاً معارض الرسم ، وصالون الخريف ، ومتحف اللوفر ، وفي المساء كانت تعالج الرسم في مرسم بمونتمارتر ، وكنت غالباً ما أذهب لاصطحابها فنجتاز باريس ونحن نواصل الحديث الذي كنا قد بدأناه ونستمر فيه ونحن نأوي إلى فراشنا ونستيقظ في الصباح . وكانت تشارك في جميع صداقاتي وهواياتي ورغباتي . ولم يكن هناك من أتعلّق به معها سوى جاك . وكانت أقرب إليّ من أن تستطيع مساعدتي على الحياة ، ولكني كنت أفكر بأن حياتي تفقد نكهتها من دونها . وحين كنت أدفع عواطفي إلى حدود الفاجعة ، كنت أقول اني سأقتل نفسي إذا مات جاك ، أما إذا اختفت أختي ، فانني لن أكون حتى بحاجة إلى أن أنتحر لأموت .

وكنت أقضي أوقاتاً طويلة مع ليزا ، بسبب انها لم تكن لها أية صديقة . وقد طلبت مني ذات صباح ممطر من ديسمبر ان أصحبها إلى معهدها ، ولكني فضلت ان أعود إلى البيت لأعمل فرفضت . وحين وصلنا إلى ساحة ميديسيس ، كنت على وشك أن أفارقها لأستقل الاوتوبيس فقالت لي بلهجة غريبة : « حسناً ! سأروي لك يوم الخميس ما كنت أود أن أقول لك الآن . » فأرهفت اذني أقول : « بل تكلمي الآن . » فمضينا إلى اللكسمبورغ ، ولم يكن ثمة احد في الممرات المبلّلة فقالت لي : « لا تكرّري ما سوف أقوله : اسمعي ! انني أود أن اتزوج براديل ! » وجلست على خيط من الحديد ، عند كثيب من الأعشاب ، ونظرت اليها مشدوهة ، فقالت لي :

ــ انه يروق لي كثيراً ، بل لا يروق لي احد مثله !

وكانا يُعدّان شهادة واحدة في العلوم ، ويتابعان معاً دروس الفلسفة . ولم أكن قد لاحظت أي شيء عليهما حين كنا نخرج جميعاً ، ولكني كنت أعرف ان براديل كان يُسقط الفتيات في حبائله بنظرته الناعمة وبسمته اللطيفة . وكنت قد علمت من كليرو ان اثنتين على الاقل من

شقيقات اصدقائه كانتا مغرمتين بـه . وقد ظللت ساعة استمع إلى ليزا في الحديقة الخالية الاشجار التي تقطر الماء ، وهي تحدثني عن المذاق الجديد الذي أصبحت تجده للحياة . وكم كانت تبدو رخصة القامة في معطفها المخطّط ! ولقد رأيت ان وجهها ساحر تحت قبعتها الصغيرة التي كانت تشبه برعم زهرة ، ولكنني شككت في أن يكون جمالها الجافّ قليلاً قد أثّر على براديل . وفي المساء ذكّرتني ستيفان ان براديل كان قد لوى الحديث بلامبالاة حين كنا نتكلم يوماً عن وحدة ليزا وحزنها . وحاولت ان أسبر غوره ذات مساء ، وكان عائداً من حفلة زفاف ، فتناقشنا قليلاً ، وكان نجد سحراً لهذه الحفلات التي كنت اعتبرها منفّرة ، إذ هي استعراض عام لقضية خاصة . وسألته عما إذا كان يفكر أحياناً بالزواج فأجابني :

— افكر فيه بغموض .

ولكنه لم يكن يأمل قطّ ان يستطيع ان يحب امرأة . لقد كان شديد التعلّق بأمه . وكان ينعى على نفسه بعض الجفاف حتى في علاقات الصداقة التي كان يعقدها . وحدّثته عن تلك الالوان من فيض الحنان التي كانت احياناً تصعد الدمع إلى عيني ، فهزّ رأسه وقال :

— إن هذا هو أيضاً مبالغ فيه !

ولم يكن هو يبالغ قط ، وراودتني الفكرة انه لن يكون من اليسير ان يحبّ . ومهما يكن من أمر ، فان ليزا لم تكن موضع اهتمامه وقد قالت لي إنه لم يكن يوجه اليها في السوربون أدنى عناية . وقضينا ساعات طويلة في حانة « الروتوند » ونحن نتحدث ذلك اليوم عن الحب وعن غرامياتنا . وكان يتصاعد من المرقص موسيقى جاز وتتهامس اصوات في الظل . وقالت ليزا :

— لقد اعتدت الشقاء . هكذا يولد الانسان !

والحق انها لم تحصل قط على شيء مما كانت تتمناه .

– ومع ذلك ، فليتني أستطيع أن أمسك هذا الرأس بين يدي ..
إذن لوجدت تبريراً لكل شيء ، والى الابـد !

وكانت تفكر في ان تطلب وظيفة في المستعمرات وان تسافر الـــى سايغون او تانانريف .

وظللت أجد تسلية كبيرة مع ستيفا ، وحين كنت أصعد الى غرفتها كنت دائماً أجد فرناندو ، وكان يطلعني على رسوم نسخها عن سوتين وسيزان ، بينما تُعدّ هي بعض المشروبات . وكانت هذه النسخ تروقني بالرغم من عدم اتقانها ، وكان يعجبني انه كان يكرس حياته كلهـا للرسم ، دون ما اهتمام بالمادة . وكنا نخرج أحياناً نحن الثلاثة . وكانت ستيفا تدعوني ، حين أخرج من المعهـد ، لتناول الطعام في أحد المطاعم ، وقد سألتني يوماً عما اذا كنت أنصحها بأن تتزوج فرناندو ، فأجبتها بالإيجاب لأني لم أر رجلاً وامرأة على مثل ما كانا عليه من التفاهم التام ، فكانا يستجيبان للمثل الاعلى في نظري . وترددت كثيراً :

– ان في الدنيا كثيراً من الاشخاص « المهمين » .

فأزعجتني تلك الكلمة ، فاني لم أشعر بأية جاذبية تجاه أولئـــك الرومانيين أو البلغاريين الذين كانت ستيفا تلعب معهم لعبة « صراع الاجناس » . وكانت « شوفينيتي » تستيقظ أحياناً . وقد تناولنا الغداء يوماً مع طالب ألماني ،في المطعم المقام داخل المكتبة ، فأخذ يتكلم عن عظمة بلاده بلهجة استعدائية . ففكرت فجأة : « ربما تقاتل يوماً مع جاك أو مع براديل . » وأخذتني الرغبة في أن أغادر المائدة .

على اني عقدت صداقة مع الصحفي الهنغاري الذي اقتحم حياة ستيفا في أواخر ديسمبر . وكان ذا قامة طويلة وجسم ممتلىء ، ولم تكـــن بسمته جذابة . وكان يتكلم ببشاشة عن الأب الذي تبنّاه والذي كـان مدير أكبر مسرح في بودابست . وكان يشتغل بكتابة رسالة عن الدراما الفرنسية ، ويبدي اعجابه الشديد بالثقافة الفرنسية .. وكان يثور اذا رأى

ستيفا تتحدث مع روماني ، وكان سريع الغضب ، ترتجف يـــــداه وتخفق رجله الأرض ويتمتم . وكان يزعجني بما كان فمه الكبير يدير من كلمات : اللطف والجمال والرقة . غير أنه لم يكن بليد الذهن ، بل كنت أستمع بفضول الى آرائه عن الثقافات والحضارات . ولكنني بالاجمال لم أكن أتذوّق حديثه الا بقدر ، وكان هذا يغيظه ، وقد قال لي يوماً :

— ليتك تعلمين كم أنا خفيف الروح باللغة الهنغارية !

وحين حاول أخيراً أن يتوسطني ليلقى الحظوة لدى ستيفا ، أهملت مطلبه ، فقال بصوت تقطر منه الكراهية :

— ان هذا سخيف ! إن جميع الفتيات تحب ان تتوسط حين تكون إحدى صديقاتهن في مأزق . »

فأجبته بجفاف :

— إن حبك لستيفا لا يؤثّر فيّ ، لأنه نوع أناني من الامتلاك والسيطرة . والحق اني أشك في متانته . فهل أنت مستعد لبناء حياتك معها ؟

فارتعشت شفتاه وقال :

— اذا أعطوك تمثالاً صغيراً ، هل ترمينه أرضاً لتري اذا كـــان ينكسر أم لا ؟

فلم أخفِ على باندي — وكان هذا اسمه — انني كنت حليفـــة فرنان في هذا الأمر . فأجابني باندي :

— انني أحتقر فرنان هذا ! انه قبل كل شيء يهودي !

فأغاظتني هذه الحجة .

وكانت ستيفا تشكو منه كثيراً ، وكانت تجده لامعاً أكثر ممـــا ينبغي بحيث لا بد ان يحاول السيطرة عليها ، ولكنه كان يلاحقهـــا بالحاح شديد . وقد لاحظت بهذه المناسبة انني كنت ساذجـــة ، كما

كانت تقول .

وذهبت ذات مساء مع جان ماليه الى مسرح الشانزليزيه ، فرأيت هناك ستيفا جالسة وعلى مقربة منها باندي يضمّها عن كثب وهي لا تمتنع عليه . وكان ماليه يحب ستيفا كثيراً ويشبّه عينيها بعيني نمر لُقّح بالمورفين ، فعرض ان يذهب لنسلّم عليها . وابتعد الهنغاري عنها وابتسم لي من غير ارتباك . وفهمت أنها كانت تعامل الراغبين فيها برصانة أقل من التي أوحتها لي ، فأخذت عليها ما اعتبرته تضليلاً لأني لم أكن أفهم شيئاً من شؤون المغازلة . وقد سررت جداً حين قررت أن تتزوج فرنان ، وعند ذلك بدأ باندي يضايقها ويلاحقها حتى غرفتها ، ثم هدأ . وانقطعت عن المجيء الى المكتبة الوطنية . ودعاني هو مرة أخرى الى تناول القهوة في مقهى ولكنه كفّ عن ان يحدّثني عنها .

ومضى يعيش في فرنسا مراسلاً لجريدة هنغارية . وبعد عشر سنوات لقيته في « الدوم » عشية اعلان الحرب . واخبرني انه سيلتحق في اليوم التالي بفرقة مؤلفة من المتطوعين الأجانب ، وأودعني شيئاً كان يحرص عليه كثيراً : ساعة زجاجية كروية الشكل . وصارحني بأنه كان يهودياً وأنه ابن زنا وأنه كان ذا رغبة جنسية خاصة : فانه لم يكن يحب الا النساء اللواتي تزن احداهن أكثر من مئة كيلو . أما ستيفا ، فقد كانت في حياته شيئاً شاذاً : وكان قد تأمل أن تمنحه ، بالرغم من صغر قامتها ، شعوراً بالامتلاء بفضل ذكائها .

ولقد ابتلعته الحرب ولم يرجع لاستعادة ساعته .

٣

كتبت لي زازا من برلين رسالة طويلة قرأت مقتطفات منها على ستيفا وبراديل . وقد وضعت قدمها على أرض الأعداء في كثير من الكراهية :

كان وصولي الى « فيوبيل هوسبز » يدعو الى الرثاء . فقد كنت انتظر أن أرى فندقاً للسيدات ، فوجدت سرايا كبيرة ملأى بالألمان المحترمين ، وحين دخلت غرفتي أعطتني الخادمة سلسلة من المفاتيح لجميع أقفال خزائن الغرفة والابواب الخارجية للفندق في حالة ما اذا كنت أرغب في العودة بعد الساعة الرابعة صباحاً . وكنت تعبة جداً من السفر ، ومذعورة من مدى حريتي وضخامة برلين ، حتى اني لم أملك الشجاعة للهبوط من أجل العشاء ، واستغرقت في سرير غريب لم يكن عليه الا وسادة ، فجعلت أجفّف بها دمعي . ونمت ثلاث عشرة ساعة ثم قصدت كنيسة كاثوليكية للقداس ، وأجلت بعدها فضولي عبر الشوارع واستعدت توازني عند الظهر . ومنذ ذلك اليوم وأنا أتعود شيئاً فشيئاً وتراودني لحظات أشعر فيها بحاجة عجيبة إلى أسرتي واليك وإلى باريس ، ولكن حياة برلين تروق لي ، وأنا لا ألاقي أية صعوبة مع أحد، وأشعر أن الاشهر الثلاثة التي سأقضيها هنا ستكون طريفة جداً . »

ولم تجد صداقات لها في الجالية الفرنسية التي كانت تتألف من الدبلوماسيين فقط ، ولم يكن في برلين الا ثلاثة طلاب فرنسيين . وكان الناس يجدون أمراً عجيباً أن تأتي زازا الى برلين لتقضي فيها ثلاثة أشهر وتتابع بعض الدروس .

« وقد سلمني القنصل رسالة توصية الى معلّم الماني انهاها بعبارة طريفة حقاً : أرجوك بكل حرارة ان تشجع بادرة الآنسة مابيل . فكأنني كنت أحلّق فوق القطب الشمالي ! »

ثم قررت ان تشقّ لها طريقاً بين السكان المحليين .

« تعرّفت يوم الاربعاء على مسارح برلين ، وكان مرافقي في ذلك شخصاً له قصة غريبة . تصوّري اني رأيت مدير الهوسبيز الرجل الكهل الهر بولاك يقترب مني حوالى الساعة السادسة ويقول لي ببسمة لطيفة :

— ايتها الآنسة الفرنسية الصغيرة ، هل تريدين أن تصحبيني الى المسرح هذا المساء ؟

ودهشت أول الأمر فسألته عن أخلاقية المسرحية ، ثم لاحظت هيئته الرصينة فعزمت على القبول . وفي الساعة الثامنة ، كنا نسير في شوارع برلين ونحن نتحدث كأننا صديقان قديمان . وكلما كان الأمر يحتاج الى دفع شيء ، كان الهر بولاك يقول في لطف : « هذا بالمجان ، فانت ضيفتي » وقد قال لي بعد الفصل الثالث – وكان قد شرب فنجاناً من القهوة أطلق لسانه – إن زوجته ترفض دائماً أن تصحبه إلى المسرح وان ذوقها يختلف كل الاختلاف عن ذوقه ، وانها لم تحاول قط أن ترضيه طوال خمسة وثلاثين عاماً من الزواج ، الا منذ عامين ، لأنه كان على وشك أن يموت ، وأضاف يقول لي « ولكن لا يستطيع المرء ان يكون دائماً على وشك الموت ! » وقد تسلّيت معه كثيراً ، وبعد انتهاء المسرحية ، أصر أن يدعوني الى العشاء .

وضحكت أنا وستيفا ونحن نفكر بأن السيدة مابيل انما فضّلت أنتنفي زازا على ان تسمح لها بالاشتراك في لعبة للتنس مع الشباب ، وها هي ذي الآن تخرج وحدها مساء مع رجل : مع مجهول ، غريب ، ألماني !

وانتعشت زازا في الايام التالية ، فأخذت تتابع الدروس في الجامعة وتتردد الى المسارح والمعارض والمتاحف وتتعرّف على الطلاب وعلى صديق لستيفا اسمه « هانس ميلر » كانت قد أعطتها عنوانه . ولقد وجدها أول الأمر شديدة الرصانة والتكلّف فقال لها ضاحكاً :

– انك تأخذين الحياة وأنت تلبسين قفازين من جلد الماعز المثلج !

فتألمت لذلك كثيراً ، وقررت ان تنزع قفازيها .

« انني أرى كثيراً من الاشخاص الجدد ، ومن الاوساط والبلاد المختلفة عن أوساطنا وبلادنا حتى اني أشعر بأن جميع عاداتي المألوفة تتخلّى عني فلا أعرف اذا كنت قد انتميت حقاً الى وسط معيّن ، وأيّ هو . ويتفق لي أن أتناول طعام الفطور في السفارة مع أشخاص مشهورين في السلك الدبلوماسي ومع سفيرات البرازيل أو الارجنتين ، ثم

أتناول العشاء وحدي في مطعم « أشنجر » الشعبي جداً حيث تزدحم المرافق . انني لست مسجونة في أي فريق ، ولا يأتي أي سبب بليد ليمنعني فجأة من أن أعمل شيئاً يهمني ، وليس هناك شيء مستحيل أو غير مقبول ، واني أتقبّل بدهشة واعجاب وثقة جميع ما يحمله لي كل يوم جديد من أمور غير منتظرة . وفي البدء ، كانت تشغلني هموم شكلية فأسأل الناس « ما الذي يُعمل » و « ما الذي لا يُعمل» وقد ابتسم الناس وأجابوني : « إن كل انسان يعمل ما يروقه » فاستفدت من هذا الدرس . وهأنذا الآن اردأ من طالبة بولونية ، فأنا أخرج وحدي في كل ساعة من ساعات النهار أو الليل ، وأذهب الى الحفلات الموسيقية مع هانس ميللر ، وأتنزه معه حتّى الساعة الواحدة صباحاً . ويبدو أنه يجد هذا أمراً طبيعياً جداً حتّى اني أخجل أحياناً من أن أشعر بالدهشة بسبب هذا . »

وتغيّرت أفكارها كذلك ، فذابت « شوفينيتها » .

« إن أكثر ما يدهشني هنا الدعوة الى السلام ، بل نزعة جميع الالمان الى ادعاء الصداقة الفرنسية . وقد حضرت منذ أيام فيلماً ذا نزعة سلمية يصور فظائع الحرب : وكان الجميع يصفقون ، ويبدو ان الجوقة الموسيقية قد عزفت في السنة الماضية نشيد المارسيلياز بمناسبة عرض فيلم « نابوليون » الذي نجح نجاحاً عظيماً . وقد كنت أقفز من الدهشة لو قيل لي قبل أن أترك باريس ان بامكاني أن أحدث ألمانياً عن الحرب بدون انزعاج . وفي ذلك المساء حدثني هانس ميللر عن الفترة التي كان فيها معتقلاً وأنهى كلامه بقوله : « ربما كنت صغيرة جداً ، فأنت لا تتذكرين ذلك ولكن ذلك العهد كان مريعاً ، في الجانبين ، وينبغي ألا يعود ! » وكنت أحدثه يوماً ما عن كتاب « سيغفريد والليموزين» وأنصحه بقراءته فسألني قائلاً « أهو سياسي » أم « انساني » ؟ لقد

تحدثوا الينا مطوّلاً عن الأمم والاجناس ، فليحدثونا الآن عن الانسان عامة ! وأعتقد ان هذا اللون من التفكير منتشر جداً في أوساط الشبيبة الألمانية . »

وقضى هانس ميللر أسبوعاً في باريس ، وخرج مع ستيفا وأخبرها ان صديقتها زازا قد تغيّرت كثيراً منذ وصولها الى برلين . وقد زار أسرة مابيل ذات يوم ، فاستقبل بفتور ، وعجب من الهوة التي تفصل زازا عن باقي اسرتها . وكان وعيها بذلك ، هي أيضاً ، يعمق يوماً بعد يوم . وكتبت لي أنها بكت من فرط السعادة حين لمحت أمها على باب القطار ، اذ أتت لرؤيتها في برلين ، ومع ذلك فقد كانت فكرة العودة الى منزلها تُرعبها . وكانت أختها ليلي قد قبلت أخيراً بأن تتزوج استاذاً ، وكان البيت آنذاك ، على ما روى هانس ميللر ، مقلوباً عاليه أسفله . وقد كتبت زازا على ذلك معلقة تقول :

« أعتقد ان الجميع في البيت مشغولون بتجهيزات العرس وتقبّل التهاني والهدايا والخاتم والجهاز ولون ثياب آنسات الشرف ... وهذا الصخب كله لا يوحي لي بأية رغبة في العودة الى البيت ، فقد بدأت أفقد عادة هذا كله ، أنا هنا أعيش حقاً حياة حلوة هامة ... وإذ أفكر بعودتي ، فانما أحس بسعادة كبيرة لألقاك ثانية . لكنني أصارحك بأن الرعب يأخذني اذ أتصوّر اني أستعيد حياتي التي كنت أعيشها منذ ثلاثة أشهر . لقد غدوت لا أطيق الطابعية التي يعيش عليها معظم أفراد وسطنا . »

ولست أدري اذا كانت السيدة مابيل تدرك ان هذا المكوث في برلين لم يؤت النتيجة التي كانت تتوقّعها ، ومهما يكن من أمر ، فقد كانت تهيىء نفسها لاستعادة ابنتها تحت إشرافها . وقد لقيت أمي في إحدى السهرات ، وكانت بوبيت بصحبتها ، نحدثتها بجفاف . ولفظت أمي اسم ستيفا ، فقالت لها السيدة مابيل : « أنا لا أعرف ستيفا ،

وانما أعرف الآنسة أفديكوفتش التي كانت مربية لاولادي . »

ثم أضافت تقول :

– انك تربّين سيمون كما تشائين . أما أنا ، فان لي مبادئي المختلفة .

ثم عادت تشكو من تأثيري على ابنتها وانتهت الى القول :

– من حسن الحظ ان زازا تحبني كثيراً .

٤

في ذلك الشتاء ، أصيب معظم سكان باريس بداء « الكريب » . وقد كنت ما أزال في فراشي حين عادت زازا الى باريس ، فجلست بالقرب من سريري وأخذت تصف لي برلين والأوبرا والحفلات الموسيقية والمتاحف . وكانت قد سمنت وتلوّن وجهها : وقد دهش براديل وستيفا ، مثلي ، بما أصابها من تغيّر . وقلت لها ان تحفّظها في شهر أكتوبر كان قد أقلقني ، فأكدت لي بمرح انها قد استبدلت بجلدها جلداً جديداً . ولم يقتصر هذا التغيّر على كثير من أفكارها ، ولكنها كانت تفيض حيوية بدلاً من أن تمضي في التفكير بالموت ونشدان الزهد . وكانت تأمل ان يؤدي ذهاب أختها الى تسهيل حياتها في البيت الى حد كبير . على أنها كانت مشفقة على مصير ليلي ، ذلك ان السيدة مابيل قالت لها :

– هذا هو حظّك الأخير !

فهرعت ليلي تستشير جميع صديقاتها ، فنصحتها بالقبول المتزوجاتُ الخاضعات والعزباوات اللواتي ينشدن الزواج .. وقد انقبض قلب زازا حين سمعت حديث الخطيبين . ولكنها كانت على يقين ، من غير أن تعرف السبب ، بان مثل هذا المستقبل لن يهدّدها أبداً . وكانت آنذاك

تهتم بالتدرّب على كمانها وتقرأ كثيراً وتثقف نفسها . وكانت تنوي ترجمة رواية لستيفان زفايغ . ولم تكن أمها تجرؤ على ان تسترد منها حريتها بطريقة قاسية ، فسمحت لها أن تخرج مرتين أو ثلاثاً معي في المساء. وقد حضرنا حفلة موسيقية استمعنا فيها الى « الامير ايغور » وقد قامت بتمثيلها فرقة الاوبرا الروسية . كما حضرنا أول فيلم لآل جونسون « مغني الجاز » ... وبينما كنت أشتغل في مكتبة السوربون ، كنت غالباً ما أشعر بيدٍ ذات قفاز تستريح على كتفي ، ثم أرى زازا تبسم لي ، فأذهب معها الى حيث نتناول فنجاناً من القهوة أو نقوم بنزهة . ومن سوء حظي انها ما لبثت أن سافرت الى « بايون » حيث ظلت طوال شهر الى قرب ابنة عم لها مريضة .

واشتقت لها كثيراً . وكانت الصحف تقول ان باريس لم تعرف منذ خمسة عشر عاماً ما عرفته تلك الأيام من برد قارس . وكان نهر السين مجلّداً في عدة أماكن ، فانقطعت عن التنزه وانصرفت الى الكتب لأنهي دبلومي ، وكنت أحرّر بحثاً عن « هيوم » و« كانت » لاقدمه الى أستاذ يُدعى « لابورت » . وكنت ألزم مقعدي من التاسعة صباحاً حتى السادسة مساء في المكتبة الوطنية ، ولا أكاد آخذ أكثر من نصف ساعة لآكل رغيف ساندويتش ، وكان يتفق لي أن أنعس بعد الظهر فأنام أحياناً . وكنت أحاول مساء ، اذ أعود الى البيت ، أن أقرأ غوته وسرفانتس وتشيكوف وستراندبرغ ، ولكني كنت أشعر بالصداع . وكان التعب يبعث فيّ أحياناً رغبة البكاء . ثم ان الفلسفة كما كانوا يطبقونها في السوربون لم تكن تحمل أيّ عزاء . كان « بريهيه » يعطي محاضرات ممتازة عن الرواقيين . أما برنشفيك فكان يكرر كلامه . وكان لابورت يحطّم جميع الانظمة باستثناء نظام هيوم ، وكان أصغر أساتذتنا وكان له شاربان صغيران ، وكان يتبع النساء في الشارع . وقد حدث يوماً أن لاحق فتاة ، وحين حاذاها تبيّن انها كانت احدى طالباته . ورد

لي بحثي مع علامة متوسطة ، وتعليقات ساخرة لأني كنت قد فضّلت «كانت» على هيوم . وقد دعاني الى بيته ليحدّثني مطوّلاً عن بحثي : وهناك قال لي ان البحث يتميّز بمزايا كبيرة ولكنه لا يوحي بالـودّ ، والاسلوب غامض وعميق بصورة مزيفة بالنسبة لما يمكن ان يقال فـي الفلسفة .ثم أخذ ينحت من أثلة جميع زملائه ، ولا سيما برانشفيك ، ثم استعرض الاساتذة القدامى . إن الفلاسفة القدامى ساذجون . وسبينوزا شيطان رجيم ، وكانت كذّاب . يبقى هيوم . واعترضت بأن هيـوم لا يحلّ أية مشكلة من المشاكل العملية ، فهزّ كتفيه وقال بلا اكتراث:

— ان الشيء العملي لا يطرح مشاكل ! كلا .. ولا ينبغي أن نرى في الفلسفة إلا تسلية ، ويحق للناس ان يفضلوا عليها أشياء أخرى .

فسألته :

— هل هذا يعني ان الامر لا يتعدى أن يكون من المواضعات ؟

فقال لي بغيظ واضح هذه المرة :

— كلا يا آنسة ! انك حقاً تبالغين ! أنا أعلم ان التشكك ليس اليوم موضة منتشرة ، ولكن اذهبي فابحثي عن نظرية أكثر تفاؤلاً من نظريتي !

ورافقني حتى الباب ، ثم قال لي بلهجة اشمئزاز :

— حسناً ! تشرفنا ! لا بد ان تنجحي في « الاغريغاسيون » .

وعادت اليّ الكآبة ، فحاولت أن أثور عليها . ولكن ستيفا كانت تُعدّ جهازها وترتّب بيتها ، فلا أكاد أراها . وكانت أختي كالحة الوجه ، وليزا يائسة ، وكليرو بعيداً وبراديل شبيهاً لنفسه دائماً ، وكان « ماليه » قد سقط في دبلومه . وحاولت أن أهتم بالآنسة رولان ، وبرفيقات وغيرها ، فلم أفلح . وذات يوم ، قمت طوال بعد الظهر ، عبر أروقة متحف اللوفر ، برحلة كبيرة من أشوريا الى مصر ومـن مصر الى اليونان ، وحين خرجت كان المساء مبلّلاً . ورحت أجرجر

نفسي بلا فكرة ولا حب . وأحسستني أحتقر نفسي . وكنت أفكر بجاك من بعيد ، كأني أفكر بكبرياء ضائعة . وعادت سوزان بواغ من مراكش فاستقبلتني في بيت مشرق . كانت محبوبة وسعيدة ، وكنت أحسدها . وكان أشد ما يثقل عليّ أن أحسّني وقد تقلصت ونقصت . « يخيّل اليّ اني خسرت كثيراً ، والاسوأ من ذلك اني لم أكن متأثرة بذلك . انني ساكنة جامدة ، مدفوعة بالمشاغل وبأحلام اللحظة . ليس فيّ شيء ملتزماً بشيء ، ولست متعلقة بفكرة ولا بعاطفة من هـذا المكان الضيق القاسي الذي ربطني طويلاً بأشياء كثيرة . انني أهتم بكل شيء « بقَدر » آه ! انني متعقلنة الى حد اني لا أشعر بقلق وجودي. وكنت متعلقة بأمل أن ذلك كان مؤقتاً ، فاذا انتهيت من المباراة بعد أربعة أشهر فبوسعي أن أعود الى العناية بحياتي ، وسأواصل كتابة روايتي ولكني وددت لو يأتي عون من الخارج : رغبة في عاطفة جديدة ، في مغامرة ، في أي شيء آخر ! »

كانت شاعرية الحانات قد بهتت وباخت . ومع ذلك فقد كنت لا أطيق البقاء في البيت بعد نهار أقضيه في السوربون أو في المكتبة الوطنية فأين أذهب ؟ وعدت أذرع مـن جديد شوارع مونبارناس ، مرة مع ليزا ، ومرة مع ستيفا وفرنان . وكانت أختي قد صادقت رفيقة لهـا في المدرسة ، فتاة في السابعة عشرة ، مرنة وجريئة ، وكانت أمهـا تدير حانوتاً للحلويات ، وكانوا يدعونها « جيجه » وكانت تخرج بكل حرية . وكنت ألقاها غالباً في « الدوم » . وعزمنا ذات مساء على ان نقصد ملهى « الغابة » الذي فتح قبالة « الجوكي » ولكن المال كان ينقصنا وقالت جيجه :

— لا بأس ! انتظرينا هناك .. فسوف نتدبر أمرنا !

ودخلت وحدي الى الملهى واتخذت مكاناً لي على المشرب . وكانت بوبيت وجيجه جالستين على أحد مقاعد الشارع تئنّان وتقولان بصوت

مرتفع : « من يظنّ أنه لا ينقصنا الا عشرون فرنكاً ! » ومرّ رجل ولا أدري ما الذي روتاه له ، ولكن الذي أدريه أنهما ما لبثتا أن تسلقتا على المقعد الى مقربة مني . لقد كانت جيجه بارعة في خداع الرجال . وفي الملهى ، دعانا البعض للشرب والرقص . وكانت هناك قزمة تغنّي وتسرد الأقوال الماجنة القبيحة وهي ترفع ثوبها ، وتكشف عن ساقيها وتروي كيف كان عشيقها يعضّها . وكان ذلك منعشاً على نحوٍ ما .

وذات مساء آخر ، التقيت على مشرب « الجوكي » ببعض معارفي القدماء الذين جعلت أتذكّر معهم مباهج الصيف الماضي . وكان هناك طالب سويسري معتاد على المكتبة الوطنية ، فأخذ يغازلني على عجل ، فشربت وتسلّيت . وفي الليل ، بعد ذلك سألني طبيب شاب كان يُراقب طاولتنا عما اذا كنت أقصد ذلك المكان لأقوم بدراسة للأخلاق . وحين ذهبت أختي ، عند منتصف الليل ، هنّأني على رصانتها ، ولكنه أخذ على جيجه أنها ما تزال صغيرة لتتردد على المراقص. وحوالى الساعة الواحدة عرض علينا ان يوصلنا الى بيوتنا في سيارة أجرة، فرافقنا جيجه أولاً الى بيتها ، ثم تسلّى بما كنت أعانيه من ضيق في الطريق اذ كنت وحدي معه . وغرّني اهتمامه بي . وهكذا كان يكفيني لقاء ، أو حادث غير منتظر ليردّ لي هدوء مزاجي . غير أن السرور الذي كانت تخلّفه في نفسي هذه المغامرات الصغيرة لا يشرح كوني قد سقطت مجدّداً تحت اغراء الحانات والملاهي . وأدهشني ذلك: « جاز ، نساء ، رقص ، كلام قذر ، خمر ، مداعبات : كيف لي ألا أغتاظ من ذلك ، ولكني مع ذلك أقبل هنا ما لا أقبله في أي مكان آخر ، وأمزح مع الرجال ؟ كيف أستطيع ان أحب هذه الأشياء ذلك الحب الشديد الذي يأتيني من بعيد ويملك عليّ أمري ؟ ما الذي أبحث عنه في هذه الأمكنة ذات السحر المريب ؟ »

وبعد أيام ، تناولت الشاي مع الآنسة رولان التي كنت معها

بضجر كبير . وحين فارقتها ذهبت الى ملهى « الاوروبي » فجلست بأربعة فرنكات في مكان بالبلكون كنت أجد فيه الشبان والفتيات يتعانقون ويتبادلون القبل ، وكانت هناك فتيات معطّرات تأخذهن النشوة حين يستمعن الى المغني ، ورجال يتبادلون المزاح الثقيل . ولكني أنا أيضاً أنفعل وأضحك وأحسّني مسرورة . لماذا ؟ وردت طويلاً جادة « باربيس » ، فكنت أرى المومسات والقوّادين لا بنظرة نفور ، بل بنظرة غيرة وحسد . ودُهشت مجدّداً : « ان فيّ رغبة شيطانية – حاضرة منذ زمن – للضجة والصراع والوحشية والغوص في الدوامة . فماذا ينقصني اليوم ، أنا أيضاً ، لكي أصبح مدمنة على المورفين والخمر ، ولا أدري ماذا أيضاً ؟ ربما لم أكن بحاجة الى أكثر من فرصة ، أو الى مزيد من الجوع الى ما لن أعرفه ابداً ... »

وكان الرعب يأخذني أحياناً من هذا « الفساد » وهذه « الغرائز المنحطة » التي كنت أكتشفها فيّ . وما عسى أن يفكر براديل الذي كان يتهمني من قبل بأني كنت أعلّق على الحياة أكثر مما ينبغي من النبل ؟ لقد كنت آخذ على نفسي النفاق والرياء ، ولكني لم أكن أفكر بأن أنكر نفسي « انني أريد الحياة ، الحياة كلّها . وأشعر اني فضولية نهمة ، نهمة الى أن أحترق بأعنف من أية فتاة أخرى ، مهما كان اللهب الذي يحرقني ! »

وكنت على قاب قوسين من أن أعترف لنفسي بالحقيقة : لقد ضجرت من كوني فكراً محضاً . وليس مردّ ذلك أن الشهوة كانت تعذّبني ، كما كان الأمر على عتبة البلوغ ، ولكني كنت أحدس بأن عنف الجسد وفجاجته كان يمكن ان ينقذاني من التفاهة الأثيرية التي كنت أجفّ فيها . ولم يكن وارداً أن أحقق تجربة الجسد ، فان آرائي كانت تمنعني من ذلك ، وكذلك عاطفتي لجاك . وكنت أزداد كرهاً للكاثوليكية ، وكنت أرى ليزا وزازا تتخبّطان ضدّ هذا « الدين

المعذِب » ، فأسرّ لكوني قد أفلتّ منه . والواقع اني ظللت ملطخة به ، فان المحرّمات الجنسية كانت ما تزال تحيا الى حدّ أن أزعم أن باستطاعتي أن أصبح مدمنة مورفين أو خمر ، ولكن لم أكن أفكّر بالخلاعة أو الدعارة — ولقد احتججت على أخلاقية غوته كما بدت لي من كتبه ومن الكتاب الذي ألّفه عنه لدفيغ : « تؤذيني تلك المرتبة المخصصة بكل هدوء لحياة الحسّ ، بلا تمزّق ولا قلق . إن أردأ الفسق يهزّني اذا كان يشبه فسق جيد الذي كان يبحث عن غذاء لفكره أو دفاع . أما غراميات غوته فقد كانت تؤذيني . » فاما ان يتحد الحب الجسدي مع الحبّ المحض ، وفي هذه الحالة يمضي كل شيء من تلقاء نفسه ، وإما أن يكون سقوطاً مفجعاً ، ولم أكن أملك أن أتردّى فيه.

٥

لا شك في أني فتاة تتأثر شديد التأثّر بتبدّل الفصول . فعند أول أنفاس الربيع ذلك العام انتعشت وتمددت وتنسمت بلذة رائحة القطران الحارّ . ولم أتكاسل ، فقد كانت المباراة تقترب ، وعليّ كثير من الاعمال التي لا بدّ من انجازها . ولكن التعب كان يفرض عليّ فترات راحة كنت أفيد منها لأتنزّه مع أختي على ضفاف المارن وعدت أجد اللذة في محادثة براديل تحت أشجار الكستناء في اللكسمبورغ . واشتريت قبعة صغيرة حمراء أثارت ضحك ستيفا وفرنان ، واصطحبت أبي وأمي الى « الاوروبي » واشترى لنا أبي مثلجات في مقهى « وبلر » ، وكانت أمي تصحبني غالباً الى السينما . وحين عادت زازا من بايون ذهبنا الى اللوفر لزيارة القاعات الجديدة للرسم الفرنسي ، ولم أكن أحب « مونيه » وكنت معجبة برينوار الى حدّ ، غير أني كنت شديدة الاعجاب بمانيه ، ولا سيما سيزان لأني كنت ألمس في لوحاته « نزول

الفكر الى القلب المحسوس » . وكانت زازا تقاسمني ذوقي . وقد حضرت حفلة زفاف أختها من غير ملل كبير .

وفي عطلة الفصح ، قضيت كل أيامي في المكتبة الوطنية ، والتقيت هناك كليرو الذي كنت أجده متحذلقاً بعض الشيء ، ولكنه كان مع ذلك يثير اهتمامي .. أيكون هذا الرجل القصير الجاف الأسود قد عانى حقاً من «سلطة الجسد المفجعة » ؟ كان مؤكداً على أي حال أن هذا الموضوع يشغله ، وقد تحدث أكثر من مرة عن مقال مورياك . أي قدر من الشهوانية يمكن لزوجين مسيحيين ان يسمحا به لنفسهما ؟ وللخطيبين ؟ وقد طرح هذا السؤال مرة على زازا التي غضبت وأجابته:

— هذه مشكلات تعني الفتيات البائرات ورجال الدين !

وبعد أيام روى لي أنه اجتاز هو نفسه تجربة مؤلمة . فقد عقد في أوائل السنة ، على أخت أحد رفاقه ، وكانت معجبة به إلى حد بعيد ، وكانت ذات طبيعة عاطفية ، ولولا أنه حدّ من ذلك الاندفاع ، لما كان الا الله يعلم إلى اين عساه يقودهما ! وكان قد أوضح لها ان عليهما ان يحتفظا بنفسهما إلى ليلة العرس ، وانه ، في انتظار ذلك ، لا يُسمح لهما بغير قبلات بريئة . وأصرّت هي على ان تعطيه فمها ، وأصرّ هو على رفضه ، وانتهى بها الأمر إلى كرهه وإلى فسخ خطبتها معه . وكانت هذه الهزيمة تستولي عليه في الظاهر . فأخذ يتفلسف حول الزواج والحب والنساء باندفاع غريب . وقد رأيت هذه القصة مضحكة، وذكّرتني بقصة سوزان بواغ ، ولكنْ غرّني انه قد أسرّها لي .

وحين انتهت عطلة الفصح ، وجدتني فرحة وسط رفاقي في حدائق مدرسة النورمال المزدهرة . وكنت أعرفهم كلهم تقريباً . ولكن عصبة سارتر ونيزان وهيربو بقيت مغلقة دوني باحكام . وكانوا لا يتعاطون مع أحد ، ولا يحضرون إلا بعض المحاضرات المختارة ويجلسون مبتعدين عن الآخرين . وكانت لهم سمعة سيئة ، وكان يقال انهم كانوا بحاجة

إلى الودّ تجاه الأشياء ، وكانوا ينتمون إلى عصبة مؤلفة في أكثريتها من تلاميذ قدامى لألين ومعروفة بتوحّشها : فقد كان أعضاؤها يلقون قنابل مائية على طلاب النورمال البارزين الذين كانوا يعودون ليلاً وهم يرتدون السموكنغ . وكان نيزان متزوجاً وكان قد سافر كثيراً ، وكان يلبس بنطلون غولف وكنت ألمس وراء نظارتيه نظرة مخيفة . ولم تكن هيئة سارتر سيئة ، ولكن كان يقال إنه أردأ الثلاثة وكانوا يتهمونه بالشرب . وكان هيربو وحده يبدو لي جديراً بأن يعاشر . وكان يتجاهلني إذا كان بصحبة سارتر ونيزان . أما إذا لقيته وحده ، فكنا نتبادل بعض الكلمات .

وكان قد قدّم في كانون الماضي حديثاً في أثناء درس برانشفيك ، وفي أثناء المناقشة التي تلت سلّى جميع الناس . وقد سحرني بصوته الساخر وتقطيبته المستهزئة . وكان نظري يستريح برضى على وجهه المورد الذي كانت تضيئه عينان زرقاوان طفوليتان . وكان شعره الأشقر غضاً كأنه العشب . وكان قد قدم إلى المكتبة الوطنية ذات صباح ، فرأيت فيه شيئاً قروياً بالرغم من أناقة معطفه الازرق وشاله الفاتح وبذلته الجميلة . وجاءتني فكرة الصعود إلى مطعم المكتبة الداخلي لأتناول الغداء ، على خلاف عادتي ، فأفسح لي مكاناً على طاولته بصورة طبيعية جداً كما لو اننا كنا على موعد . وكنا قد تحدثنا عن هيوم وكانت ، وكنت قد التقيت به خارج غرفة « لابورت » الذي كان يقول له بصوت تقدير : « إلى اللقاء يا سيد هيربو » ، ففكرت بأسى انه سيد متزوج بعيد لن أهمّه في شيء .

ورأيته بعد ظهر أحد الأيام يهبط شارع سوفلو يصحبه سارتر ونيزان ، وكان يعطي ذراعه لامرأة ترتدي ثوباً رمادياً : فأحسستني منفيّة . وكان وحده بين الثلاثة يحضر دروس برانشفيك . وقبل عطلة الفصح بقليل ، كان قد جلس بالقرب مني وحدثني عن كوكتو ،

فوجدته طريفاً وسرّني ان اجـد ، في السوربون ، من يحبّ كوكتو؛ وكان هيربو يجعلني ، بطريقة مـا ، أفكر بجاك ، فقد كان هو أيضاً يستبدل عبارة ببسمة ويبدو انه كان يعيش في عـالم آخر غير عـالم الكتب . وكان بعد ذلك ، كلمـا دخل المكتبة الوطنية ، يحييني بلطف، فأتحرّق شوقـاً لأن أقول لـه شيئاً ذكياً ، ولكني لا أجد شيئاً مـع الأسف .

وحين استؤنفت محاضرات برانشفيك بعد العطـلة ، عـاد يجلس بالقرب مني . وأهداني « رسماً للمتخرج المتوسط » ورسومـاً أخرى وقصائد ، وصارحني فجأة بأنه كان فرديـّاً ، فقلت له :

– وانا أيضاً ...

فتفحّصني بحذر وقال :

– انت ؟ ولكني كنت أحسب انك كاثوليكية ومؤمنـة بتومـا الاكويني .

فاحتججت على ذلك ، وهنّـأني على اتفاقنا ، ثم راح يمتدح أساتذتنا السابقين : سيلا ، وباريس ، وستالندال ، والسيبياد ، ولا أذكر كـل ما رواه لي ولكنه كان يسليني أكثر فأكثر . وكان يبدو عليه انه واثق من نفسه تماماً وانه لا يتناول الامور على محمل الجدّ ، وهذا المزيـج من الرائع والساخر هو الذي سحرني . وحين ودّعني وهو يَعِدني بمحادثات طويلة قادمة طرت من الفرح ، وكتبت في المساء : « إن له نوعاً من الذكاء يستولي على قلبي . » وأحسست أني كنت على استعداد آنذاك لأن أتخلّى من أجله عن كليرو وبراديل وماليه وجميع الآخرين معاً . لا شك في انه كان يملك جاذبية التجديد ، وكنت أعلم اني كنت أغترّ بسرعة . على اني دهشت لهذا الافتتان العنيف وكتبت أقول : « لقاء مع اندريه هيربو ام مع نفسي ؟ أيّهما كـان أشدّ تـأثيراً عليّ ؟ لمـاذا أشعر بالانفعـال كما لو ان شـيئاً ما قد حدث لي ؟ »

لقد حدث لي شيء ما ، هو الذي قرّر لي حياتي كلها بطريقة غير مباشرة : ولكنني لم أعرف ذلك إلا فيما بعد .

ومنذ ذلك الحين ، جعل هيربو يتردّد بلا انقطاع على المكتبة الوطنية ، وكنت احتفظ له بالمقعد إلى جانبي .وكنا نتناول الغداء في مطعم قريب ، ولم تكن وسائلي تسمح لي بأن آكل أكثر من « صحن النهار » ، غير انه كان يتكرم عليّ دائماً بالفاكهة . وقد دعاني ذات يوم إلى مطعم معتبر فتناولت فيه طعاماً بدا لي فخماً . وكنا نتنزه في حدائق « الباليه رويال » ، فنجلس على حافة الحوض ونتأمل الريح تتطاير الماء ، فيصيبني منه رذاذ . وكنت اقترح عليه العودة إلى المكتبة لاستئناف العمل ، فيقول هيربو :

— لنذهب أولاً فنتناول القهوة . فبدونها لا تستطيعين العمل بهدوء ، وتمنعينني من القراءة .

ويصحبني إلى « بيكاردي » وبعد ان ارشف آخر نقطة أنهض فيقول لي بشغف :

— وأسفاه ! يا للخسارة !

وكان هيربو ابن معلّم في جوار تولوز ، وكان قد قصد باريس ليعدّ شهادة التعليم ، فتعرّف على سارتر ونيزان وحدّثني عنهما طويلاً : وكان معجباً بنيزان لتميّزه اللامبالي . ولكنه كان أشد ارتباطاً بسارتر الذي كان يصفه بأنه انسان هام جداً . أما زملاؤنا الآخرون ، فكان يحتقرهم جملة وتفصيلاً ، وكان يجد كليرو مدّعياً غليظ الظل ولم يكن يحيّيه قطّ .

واقترب مني كليرو ذات يوم ، وفي يده كتاب ، فسألني بصوت محقّق :

— ما رأيك يا آنسة بوفوار بما يقوله « بروشار » من ان إله ارسطو يشعر باللذة ؟

ونظر اليه هيربو بضيق ، ثم قال باستعلاء :

– انني ارجو له ذلك !

وكنا في الايام الأولى نتحدث خصوصاً عن العالم الصغير الذي كان مشتركاً بيننا : رفاقنا وأساتذتنا والامتحانات . وكان يسرد لي عناوين الموضوعات المطروحة للمسابقة : « من هو الاديب الذي تفضله من أدباء المنهاج ، ولماذا ؟ » – « الروح والجسم : اوجه الشبه والاختلاف ، المزايا والنقائص . » والواقع انه لم تكن له بالسوربون والمكتبة الوطنية الا علاقات بعيدة ، فان حياته كانت في مكان آخر . وقد حدثني عنها قليلاً . حدثني عن زوجته التي كانت تجسّد في نظره جميع مفارقات الانوثة ، وعن روما التي قضى فيها شهر العسل ، وعن « الفوروم » الذي اثّر فيه حتى ذرف الدمع ، وعن نظامه الأخلاقي ، وعن الكتاب الذي كان يود ان يؤلفه . وكان يتحمّس لسباق الدراجات أو لسرّ بوليسي . وكان يدوخني بحكاياته وبتشبيهاته غير المنتظرة . وكان في حديثه الوان مختلفة من المبالغات والجفاف ، ومن الغنائية والبذاءة ، ومن السذاجة والادّعاء بأن ما يقوله لم يكن فيه شيء تافه . على أنّ أكثر ما كان يجذب فيه ، انما هي ضحكته : فكأنما سقط ، من غير انتظار على كوكب ليس هو كوكبه فأخذ يكتشف طرافته العجيبة . وحين كانت ضحكته تنفجر ، كان كل شيء يبدو لي جديداً ، أخاذاً ، عذباً .

لم يكن هيربو يشبه أصدقائي الآخرين ، فان هؤلاء كانوا يملكون وجوهاً بلغ من تعقلها وطبعها انهم أصبحوا بسببها غير ماديّين . والحق ان سحنة جاك لم يكن فيها شيء سارفيمي ، ولكن طبقة من البورجوازية كانت تخفي لديه شهوانية غزيرة . أما وجه هيربو ، فقد كان من المستحيل تلخيصه في رمز ، فلقد كان الفكّ المتقدّم ، والبسمة الكبيرة الرطبة ، والحدقتان الزرقاوان تحيط بهما قرنيّة مصقولة والبشرة والعظم والجلد ، كل ذلك كان يفرض نفسه ويكتفي بذاته . وإلى

ذلك ، كان لهيربو جسم . وكان يحدّثني ، بين الأشجار المخضوضرة ، عن مبلغ كرهه للموت ، ويقول انه لن يرضى ابداً بالمرض ولا بالشيخوخة. وما أشدّ ما كان يعتزّ إذ يُحسّ في عروقه تدفق دمائه ! وإذ كنت أسير إلى جانبه في الحدائق ، كنت أعلم انه لم يكن بقربي ملاك ، بل ابن من أبناء البشر . وكنت تعبة من الملائكية وكان يسعدني أن يعاملني كمخلوقة كما كانت تعاملني ستيفا وحدها . ذلك ان ودّه لم يكن يتجه إلى روحي ، ولم يكن يحصي مزاياي ، وانما كان تلقائياً مجانياً يتبنّاني كاملة . كان الآخرون يحدثونني في احترام ، أو على الأقل في رصانة، وعن بعد . أما هيربو فكان يضحك في وجهي ، ويضع يده على ذراعي ، ويهدّدني باصبعه وهو يدعوني « يا صديقتي المسكينة ! » وكان يطلق حول شخصي مجموعة من الافكار الصغيرة الودية أو الساحرة ، وكلها غير منتظرة .

ولم يكن يبهرني من وجهة النظر الفلسفية وقد سجلت في شيء من عدم الاتزان :

« يعجبني منه ملكته الخاصة في أن تكون له نظريات شخصية حول كل شيء . ولعل مرد ذلك الى انه لا يعرف كثيراً من الفلسفة . انه يروقني كثيراً . » والحق ان العمق الفلسفي كان ينقصه . ولكن ما كان يهمني أكثر من ذلك انه كان يفتح لي دروباً كنت أتحرق شوقاً لسلوكها من غير ان أوتى الجرأة . كان معظم أصدقائي مؤمنين ، وكنت أسعى لأن أجسد تسويات بين وجهات نظرهم ووجهة نظري ، فاني لم أكن اجروء على الابتعاد عنهم أكثر مما ينبغي . أما هيربو ، فقد كان يمنحني الرغبة في ان أصفّي هذا الماضي الذي كان يفصلني عنه . كان ينفر من الزهد المسيحي ، وكان يتجاهل القلق الميتافيزيقي . كان ضد الدين وضد الاكليروس وضد القومية وضد العسكرية . وكان يكره جميع النظم الصوفية . ولقد أعطيته بحثي عن « الشخصية » ليقرأه ، وكنت أعتزّ به

بالغ الاعتزاز ، فاستخف به واكتشف فيه عفونةً من الكاثوليكية والرومانتيكية حثّني على ان أتطهّر منها بأقرب وقت . فوافقت على ذلك وأنا مغتاظة . وكنت قد مللت « التعقّدات الكاثوليكية » والدروب الروحية المقفلة ، وأكاذيب الامور الساحرة . وكان بودّي الآن ان ألمس الأرض . وهذا هو السبب في اني إذ التقيت هيربو شعرت باني قد وجدت نفسي : كان يدلّني على مستقبلي . إنه لم يكن مفكراً تقليدياً ، ولا جرذ مكتبة ، ولا ركن حانة ، وانما كان مثله يدلّل على ان بامكان المرء ان يبتني لنفسه ، خارج الأطارات القديمة ، حياة متكبّرة ، بهيجة وعاقلة : وتلك هي الحياة التي كنت أتمنى مثلها .

٦

كانت هذه الصداقة النضرة تنعش مباهج الربيع . وكنت أقول لنفسي : إن في العام ربيعاً واحداً ، وإن في الحياة شباباً واحداً ، فيجب الاّ اضيّع شيئاً من فصول شبابي الربيعية . وكنت على وشك ان انجز تحرير دبلومي ، أقرأ كتباً عن « كانت » ولكن معظم العمل كان قد أنجز ، وكنت أحسّني واثقةً من النجاح ، وهذا النجاح الذي كنت أتعجّله كان يُسهم في أن يُسكرني .

ورحت أقضي مع أختي امسيات ضاحكة في ملاهي «بوبينو » و « الارنب النشيط » و « كهف البوليه » حيث كانت أختى تشتغل في رسم بعض الصور . واستمعت إلى حفلة موسيقية مع زازا في قاعة « بلايل » ، وزرت مع ريسمين معرضاً لاوتريلو ... وكنت أجلس في حديقة اللكسمبورغ ، تحت أشعة الشمس ، وأتابع بنظري مساء مياه السين السوداء ، وأنا مرهفة للأضواء والعطور ولخفقات قلبي حتى تكاد

السعادة تخنقني .

وفي نهاية نيسان ، التقيت في ساحة سان ميشال اختي وجيجه ، فدخلنا حانة جديدة من حانات الحي تدعى « السفينة السكرى » فشربنا الكوكتيل واستمعنا إلى اسطوانات جاز ، توجهنا إلى مونبارناس . وفي « الجوكي » أخذت وجوه مألوفة تبتسم لي ، وعاد الساكسفون يشق قلبي . ورأيت ريكيه فتحدثنا على عادتنا عن الصداقة والحب ،فأضجرني وما أبعد المسافة بينه وبين هيربو ! وأخرج رسالة من جيبه فرأيت عليها خط جاك . وقال لي :

— إن جاك يتغيّر .. إنه يشيخ .. وهو لن يأتي إلى باريس إلا في منتصف آب .

ثم أضاف باندفاع :

— بعد عشر سنوات ، سيقوم بأشياء عجيبة !

فلم أتحرّك ، وخيّل إليّ اني أصبت بشللٍ في القلب .

على اني افقت في اليوم التالي والدموع في عيني : « لماذا يكتب جاك للآخرين ، ولا يكتب إليّ قط ؟ » وذهبت إلى مكتبة سانت جانفياف ، ولكني عدلت عن العمل ، وقرأت « الاوديسة » : « لأضع البشرية كلها بيني وبين ألمي الخاص . » ولكن العلاج لم يكن ناجعاً . فأين تراني أصبحت مع جاك ؟ منذ عامين ، أصبت بخيبة من برودة لقائه ، فذهبت اتنزّه في الشوارع وأطلب لنفسي ضدّه «حياة تخصني » ... وهأنذا أملك هذه الحياة . ولكن هل اراني أنسى بطل شبابي ، أخا مولن الاسطوري المرصود « لأشياء عجيبة » وربما كان مطبوعاً ، من يدري ، بالعبقرية ؟ كلا ! لقد كان الماضي يمسكني : ولقد تمنيت طويلاً ، ومنذ زمن بعيد ، ان أحمله كله معي في المستقبل !

وإذن فقد عدت أتحسّس وأتلمّس بين الحسرات انتظارات مبهمة ، ودفعت ذات مساء باب « الستريكس » ، فدعاني ريكيه إلى طاولته .

وكان على المشرب اولغا ، صديقة ريوكور ، تتحدث مع سمراء ترتدي فراء مفضّضة . وبدت لي جميلة وعلمت « انها ماغدة » ، وقد تساءلت :

— أليس عندكم أخبار من جاك ؟ أو لم يسأل عني ؟ إن هـذا الشخص قد هرب منذ عام وهو لا يسأل حتى عن أخباري ! آ ه ، ليس لي حظ مـع ذلك الجمل ! وسجلت كلماتها ، ولكني لم أكد أنفعل على التوّ . ورحت اتحدّث مع ريكيه وعصبته بهدوء حتى الساعة الواحدة صباحاً .

وأصابني الانهيار حين اويت إلى فراشي ، وكانت ليلتي مريعة . وقضيت طوال اليوم التالي في اللكسمبورغ وأنا أفكّر . ولم أستشعر ايّ غيرة . لقد انتهت تلك العلاقة ، وهي لم تدم طويلاً ، وقد ثقلت على جاك فتعجّل إنهاءها . ولم يكن للحب الذي كنت أتمناه بيننا اية علاقة بهذه القصة .وعادت لي ذكرى : كان جاك قد أعارني كتاباً لبيير جان جوف خطّ تحت احدى عباراته خطّـاً : « كنت أثق بهذا الصديق ، ولكني كنت أعانق آخر » وفكّرت : « فليكن يا جاك . انني أرثي للآخر ». وكان يشجّع هـذه الكبرياء وهو يقول لي إنه لم يكن يحترم النساء ، واني انما كنت بنظره شيئاً آخر غير امرأة . واذن ، فما تبرير هـذا الأسى في قلبي ؟ ولماذا كنت اردد ، والدمع في عيني ، عبارة أوتيلو: « يا للخسارة يا جو ! آ ه ، يا جو ! يا للخسارة ! » ذلك اني اكتشفت شيئاً مريعاً : إن تلك القصة التي هي حياتي تصبح قصة مزيفة ما مضيت في روايتها لنفسي .

فما أشد ما كنت عمياء ، وما أفظع ما تألمت من ذلك ! لقد كنت اعزو ضجر جاك وملله ويأسه إلى نوع من العطش للمستحيل لا أدري له كنهاً . ولا بدّ ان اجوبتي المجردة كانت تبدو له بليدة ، وما أشدّ ما كنت بعيدة عنه حين كنت أظنّنا متقاربين ! ومع ذلك فقد كـانت

هناك علامات : محادثات مع اصدقاء تدور حول أشياء تضايقه . . . واستيقظت ذكرى ثانية : لقد لمحت يوماً امرأة سمراء أنيقة تجلس على مقربة منه في السيارة . ولكني ضاعفت ثقتي به آنذاك ! وهكذا أصررت على ان أخدع نفسي ، فحلمت وحدي بتلك الصداقة ثلاثة أعوام ، وهأنذا الآن حريصة عليها بسبب الماضي ، ولم يكن الماضي غير خداع . وكان كل شيء ينهار . وأخذتني رعشة في أن أهدم جميع الجسور ، فأحب شاباً آخر أو أمضي إلى آخر الدنيا .

ثم أخذت أوبّخ نفسي . إن جاك ليس هو المزيّف ، بل ان حلمي هو المزيّف . فماذا تراني أستطيع أن آخذ عليه ؟ إنه لم ينصب من نفسه يوماً بطلاً ولا قدّيساً بل هو غالباً ما قال عن نفسه أشياء سيئة . ولقد كانت عبارة جوف إنذاراً ، وكان قد حاول ان يحدثني عن « ماغدة » : فلم ايسّر له مصارحتي بذلك . والحق اني كنت منذ وقت طويل استشعر الحقيقة ، بل أعرفها . فما الذي كانت هذه الحقيقة تصدمه فيّ إن لم يكن احكامي الكاثوليكية المسبّقة ؟ وهدأت قليلاً . لقد كنت على خطأ بأن أطلب من الحياة ان تنسجم مع مثل أعلى موضوع سلفاً . فقد كان عليّ أنا نفسي ان أكون على مستوى ما كانت تحمله لي . لقد سبق لي ان فضّلت دائماً الواقع على السراب .. وأنهيت تفكيري بالاعتزاز باني اصطدمت بحادث صلب ولكني نجحت في التغلب عليه .

وصباح اليوم التالي ، وردت من « ماريناك » رسالة تنبئ بأن جدّي كان مريضاً جداً حتى انه كان على وشك الموت . وكنت احبه كثيراً ، ولكنه كان كبير السنّ ، وكان موته يبدو لي طبيعياً ولم يكن هذا ليحزنني . وكانت ابنة عمي مادلين في باريس في تلك الفترة ، فدعوتها لتناول المرطبات في احد مقاهي الشانزليزيه ، وأخذت تروي لي قصصاً لم أكن أستمع اليها لأني كنت أفكر في جاك باشمئزاز . لقد

كانت علاقته بماغدة تنطبق انطباقاً أميناً مع الفكرة التي كانت دائماً تثير نفوري : ابن الاسرة الذي يتدرب على الحياة مع عشيقة من طبقة عادية ، وحين يعزم على أن يصبح انساناً رصيناً يهجرها – كان هذا تافهاً وحقيراً . ونمت واستيقظت والغصّة في حلقي من فرط الاحتقار . « إن المرء هو على مستوى التنازلات التي يقوم بها لنفسه . » : لقد ردّدت هذه العبارة لجان سارمان في أثناء دروس دار المعلمين ، وبينما كنت أتناول الغداء مع براديل في مطعم بشارع سان ميشال . وكان براديل يتحدث عنه ، ويذهب إلى أنه لم يكن معتدلاً إلى الحد الذي كان يزعمه أصدقاؤه ولكنه كان يحتقر جميع المزايدات ، ويمتنع عن التعبير عن آرائه وعواطفه إذا كانت تتجاوز اليقين الذي كان يملكه عنها . ثم استعرضنا الأشخاص الذين كنا نحترمهم ، وغادرته لأتنزه وحدي في غابة بولونيا .

وتنشّقت رائحة العشب المقصوص ورحت أمشي مبهورة بازدهار الأشجار المثمرة ، ثم جلست على حافة نهر ورحت اقرأ هوميروس وأتساءل : أي شقاء يسعه ان يقاوم جمال العالم ؟ إن جاك ليس أكثر أهمية من شجرة من أشجار هذه الحديقة .

كنت ثرثارة ، وكنت أحب ان اعلن عن كل ما كان يجري لي ، وكنت أتمنى بعد ذلك ان يتخذ أحدٌ ما وجهة نظر نزيهة حول هذه القصة . وكنت أعلم ان هيربو يسخر بها ، وأما زازا وبراديل فقد كان احترامي لهما أكبر من أن أعرض جاك لحكمهما . وعلى عكس ذلك ، كان كليرو لا يخيفني بعد ولا بدّ ان يقدّر الامور على ضوء تلك الأخلاقية المسيحية التي كنت لا ازال انحني أمامها بالرغم مني : وقد عرضت له قضيتي . فاستمع اليّ بشراهة وتنفّس : ما أشد عناد الفتيات ! لقد صارح خطيبته بألوان من الضعف تعرّض لها ، فبدلاً من ان تعجب بصراحته بدت مشمئزة منه . وافترضت انها كانت تفضل

اعترافاً أمجد ، والا فالسكوت . ولكن لم تكن هذه هي القضية . أما فيما يخصني ، فقد انتقد قسوتي ، ومعنى ذلك انه كان يبرئ جاك ؛ وعزمت على ان اوافقه في رأيه . ونسيت أن علاقة جاك قد صدمتني بتفاهتها البورجوازية ، فأخذت على نفسي اني شجبتها بالاستناد إلى مبادئ مجرّدة . والحق اني كنت أتخبّط في نفق ، بين الظلال . لقد رفعت ضد طيف جاك وضد الماضي الميت مثالاً أعلى كففت عن الايمان به . ولكن باسم اي شيء أحكم ، إذا طرحته ؟ لقد دفعت كبريائي لأحمي حبّي : فلماذا أطلب من جاك أن يكون مختلفاً عن الآخرين ؟ ولو أنه كان يشبه الجميع ، بينما كنت أعرف أنه كان دون الكثيرين ، في عدة نقاط ، فلماذا كنت أفضّله ؟ لقد انتهت الرحمة إلى عدم اكتراث .

هذا الاختلاط في نفسي ، تعمّق وكثف بعد عشاء حضرته عند أهل جاك . فلقد قالت لي عمتي في ذلك الرواق الذي قضيت فيه لحظات ثقيلة وعذبة ، انه قد كتب لها يقول : « أبلغي سيمون تحياتي حين ترينها ؛ فانني لم أكن معها لطيفاً ، ولكني لست لطيفاً مع أحد . والحق ان ذلك لن يُدهشها فيّ . » وهكذا ، لم أكن بالنسبة اليه الا شخصاً كسائر الاشخاص ! وإن ما زاد في قلقي أنه طلب من أمه ان تبعث اليه في العام القادم بأخيه الصغير : إنه اذن ينوي ان يمضي في حياته تلك ؟ الحق اني كنت فتاة غير قابلة للشفاء ! وكنت أعضّ أصابعي لأني خلقت وحدي ماضينا ، واني أستمر في بناء مستقبلنا وحدي أيضاً .

وعدلت عن القيام بالافتراضات ، وقلت لنفسي : فليكن ما يكون ! بل لقد ذهبت إلى التفكير بأنه لعل من الصالح ان أنهي هذه القصة القديمة ، وان ابدأ من جديد شيئاً آخر تماماً .

ولكني لم أكن ارغب بعد في مثل هذا الجديد ، وان كان يغريني ؛ ومهما يكن من أمر ، فقد قررت ان بامكاني تماماً لكي اعيش واكتب

وأكون سعيدة ، ان أستغني عن جاك .

٧

وردتنا يوم الأحد برقية تعلن موت جدي ، ولم يكن هناك شك في ان خيوط ماضيّ بدأت تنحلّ . ولقد خرجت مع زازا إلى غابة بولونيا وكنت على يقين من أني احاول ان اسلي قلباً عاطلاً . وبعد ظهر الاثنين قصدت اللكسمبورغ ، وجلست تحت أشعة الشمس اقرأ كتاب « حياتي » لايزادورا دانكان واحلم بحياتي الخاصة . إنها لن تكون صاخبة ، ولا حتى لامعة . غير اني كنت أنشد الحب وكتابة كتب جيدة وأن ارزق بعض الاطفال « وأصدقاء يمكن أن اهديهم كتبي ويمكن ان يعلّموا أولادي الفكر والشعر . » وكنت أعلّق على الزوج أهمية صغيرة . ذلك اني كنت أعيره ملامح جاك فأسارع إلى أن أسدّ بالصداقة نقائص لم أعد أخفيها عن نفسي . وفي هذا المستقبل الذي بدأت أشعر بقربه ، كان الأدب هو البند الأهمّ . وقد كنت على حق في الاّ اكتب وأنا صغيرة كتاباً يائساً : اما الآن فاني اصور الحياة بمأساتها وجمالها معاً .

وبينا أنا افكر على هذا النحو بمصيري . لمحت هيربو الذي كان يمشي بمحاذاة الحوض وبصحبته سارتر : فرآني وتجاهلني . ويا لسر المذكرات الخاصة واكاذيبها ! انني لم أسجّل هذا الحادث في مذكراتي بالرغم من انه قد شقّ عليّ كثيراً . فلقد آلمني ان ينكر هيربو صداقتنا ، وشعرت بذلك الشعور من النفي الذي كنت اكرهه فيما بيننا .

وفي مايرنياك ، كانت الاسرة كلها قد تجمعت . ولم أحسّ بالانفعال لرؤية رفات جدّي ، ولعل ذلك بسبب تلك الضجة التّي كانت تنبعث من البيت . ولقد سبق لي ، إذ كنت في الثالثة عشرة ، ان بكيت حين تنبّأت بان يوماً سيأتي فلا أشعر فيه اني سأكون في منزلي حين ازور

مايرنياك . وقد وقع هذا الآن . فان القصر يخصّ عمّي وابناء عمي ، وإذا قدمت اليه بعد الآن فسآتي كمدعوة ، ولا شك في اني لن آتي بعد أبداً .. إن طفولتي ومراهقتي وقدم البقر يضرب باب الخان ، إن ذلك كله قد أصبح خلفي ، بعيداً عني . وأنا الآن مستعدّة لشيء آخر : وها أن الحسرات تتلاشى ، في عنف ذلك الانتظار .

وعدت إلى باريس بثياب الحداد وبالقبعة السوداء . وكانت جميع أشجار الكستناء مزدهرة ، وبدأ الزفت يسيح تحت قدمي ، وكنت أشعر عبر ثوبي بأشعة الشمس العذبة تحرقني . وكان معرض كبير قد أقيم في ساحة الانفاليد فقصدته مع اختي وجيجه للنزهة والتسلية ، فالتقينا فيه بزميل مدرسة اصطحبنا إلى غرفته لنسمع بعض الاسطوانات ونشـرب كأساً . والحق انها كانت ساعات زاخرة اعادت إليّ الفرحة بالحياة .

٨

والتقيت بكليرو ، مرة أخرى ، في المكتبة الوطنية ، فقدّم لي التعازي وسألني ، بعينين بارقتين ، عن حالة قلبي . وكان هذا خطئي فقد تكلمت أكثر مما ينبغي . ومع ذلك فقد انزعجت . وقد أعطاني مخطوطة مضروبة على الآلة الكاتبة ، وهي رواية قصيرة ، يتحدث فيها عن منازعاته مع خطيبته ، وحين قرأتها جعلت أتساءل : كيف يمكن لشاب مثقف ، ويقال إنه ذكي ، أن يستطيع إضاعة وقته لكي يروي بعبارات لا لون لها مثل هذه الحكايات الرديئة؟ ولم أخفِ عنه اني كنت اراه قليل الموهبة في الأدب . فلم يبد عليه انه استاء مني . ولما كان متين الصداقة ببراديل الذي كان ابي وأمي يحبانه كثيراً ، فقد قدم معه ذات مساء لتناول العشاء عندنا ، فراق كثيراً لأبي . وبدا مفتوناً بجمال اختي ، وشاء أن يظهر لها انه ليس ثقيل الظل ، فانغمر في حديث أزعجنا

كثيراً بثقله .

ورأيت هيربو مرة أخرى بعد أسبوع من عودتي، في ممر من ممرات السوربون . وكان جالساً إلى جانب سارتر عند احدى النوافذ. فمدّ لي يده في حركة ودية عريضة ، ونظر بفضول إلى ثوبي الاسود . وفي قاعة المحاضرات ، جلست على مقربة من ليزا ، وجلسا هما على مقعد خلفنا . وفي اليوم التالي جاء إلى المكتبة الوطنية وأعلمني ان غيابي قد أقلقه :

– لقد افترضت انكِ كنتِ في الريف ، ثم رأيتكِ أمس بثوب الحداد .

فسرّني أنه فكّر فيّ . وزادني رضى حين أشار إلى لقائنا في اللكسمبورغ ، وكان يودّ ان يعرّفني على سارتر ، ولكنه خشي أن يعكر عليّ جوّ التفكير الذي رآني غارقة فيه . ثم أعطاني رسماً كلّفه سارتر أن يقدمه لي هدية ، وهو يمثل « ليبنتز في الحمام مع فتيات المونادا » .

وفي الاسابيع الثلاثة التي سبقت مباراة « الاغريغاسيون » كان يأتي كل يوم إلى المكتبة الوطنية ليصحبني قبل اغلاقها ، حتى ولو لم يشتغل فيها، وكنا نذهب فنشرب قدحاً هنا أو هناك . وكان الامتحان يقلقه قليلاً ، ومع ذلك فكنا نترك « كانت » والرواقيين لنتحدث فترة من الزمن. وكان هيربو معجباً بثلاثة أشخاص أو اربعة ، وكان يحتقر جميع الآخرين وكانت قسوته تفرحني ، وقد سمعته بشغف يحطّم بلانشيت وايس، فتركت له كليرو . ولم يهاجم براديل بالرغم من انه لم يقدره ، ولكنه حين كان يراني في السوربون أو في المكتبة الوطنية أتحدث مع رفيق أو زميل ، كان يبقى بعيداً عني باحتقار . وكان يأخذ عليّ لطافتي مع الجميع . وذات يوم ، أقبل عليّ الهنغاري مرتين في المكتبة الوطنية يزعجني ! بأسئلته عن دقائق اللغة الفرنسية .. فقال لي هيربو :

– جميع هؤلاء الاشخاص الذين ينقضّون عليك .. إن هذا لعجيب

وهذا الهنغاري الذي أقبل مرتين ليخطفك ! وكليرو ، وجميع صديقاتك! انك تضيعين وقتك مع أشخاص لا يستحقون .. فإمّا انك عالمة نفسية والاّ فلا تستحقين الغفران ! »

ولم يكن يكره زازا بالرغم من انه يجدها أرصن مما ينبغي .ولكني حين حدثته عن ستيفا قال موبّخاً :

– لقد غمزتني بعينها !

وكانت النساء المثيرات لا يرقن له : لأنهنّ يخرجن من دورهـنّ كنساء . وقال لي في يوم آخر :

– انك فريسة عصابة . واني لأتساءل ايّ مكان يبقى لي في عالمك ؟

فطمأنته انه مكان كبير ، وكان يعرف ذلك تماماً .

وكنت ازداد به إعجاباً ، ومما كان يلذّ لي اني كنت ، عبْره،أروق لنفسي . لقد أخذني الآخرون على محمل الجد، أما هو فكنت اسلّيه. وكان يقول لي ، إذ نخرج من المكتبة :

– ما أسرع ما تمشين ! انني اعبد هذا، فكأننا نذهب إلى مكان ما.

وقال لي مرة أخرى :

– إن لك صوتاً رقيقاً غريباً ... يسلّينا كثيراً ، انا وسارتر !

واكتشفت أنّ لي مشية وصوتاً ، وكان هذا أمراً جديداً . وأخذت أهتم بملبسي وزينتي ما وسعني ذلك ، فكافأ جهودي بتهنئته :

– ان هذه التسريحة الجديدة تناسبك تماماً . وكذلك هذه الياقـة البيضاء .

وقال لي ذات أصيل ، وكنا نتمشى في حدائق « باليه رويال » :

– إن علاقاتنا غريبة حقاً ، بالنسبة لي على الاقل : فأنا لم أعقد قبل الآن صداقة نسائية .

فقلت له :

– لعل مرجع ذلك اني لست انثوية جداً ؟

– أنتِ ؟
وضحكَ ضحكة أثارت غروري :
– كلا ! بل لأنك تستقبلين كل شيء بسهولة ، فيشعر المرء معك سريعاً بالاطمئنان .
وفي عهد صداقتنا الاول ، كان يدعوني « يا آنسة » بلهجة شديدة الودّ . وقد قال لي أخيراً :
– انكِ تشبهين القندس . والقنادس تذهب زرافات ولها فكر بنّاء .
وكانت بيننا مشاركات جمّة ، وكنّا نتفاهم بانصاف الكلمات ، غير ان الأشياء لم تكن تؤثر فينا تأثيراً مماثلاً . وكان هيربو يعرف مدينة « اوزرش » ، وكان قد قضى فيها بضعة أيام مع زوجته ، وكان يحب « الليموزان » حباً كبيراً ، ولكني كنت ادهش لصوته البليغ حين كان يتحدث عن الغابات والاراضي ، فيضيع في أحلام تاريخية . وكانت حدائق « الباليه رويال » في نظره معمورة بالاطياف الكبيرة ، أما أنا فكان الماضي عندي يثلجني . وعلى العكس ، كنت احسب ان له قلباً جافاً بسبب لهجته المتجردة ولامبالاته ، ولكنه أثر بي حين قال لي إنه كان يحب « مولن الكبير » و « الطاحونة على الفلو » .. وكنا نتحدث يوماً عن ألين فورنيه فتمتم بصوت منفعل :
– إن هناك كائنات جديرة بان تُحسد .
وبعد صمت قصير تابع يقول :
– الواقع انني مفكر أكثر منك . ومع ذلك ، فان الحساسية التي كانت في نفسي ، والتي لم اردها ، تشبه حساسيتك تماماً .
فقلت له انه كان غالباً ما يبدو لي مثملاً ان يوجد المرء بكل بساطة :
– ان هناك لحظات رائعة اعيشها احياناً .
فهزّ رأسه وقال :
– ارجو ذلك ، فانت تستحقين هذا يا آنسة . أما أنا ، فليست

عندي لحظـات رائعة ، وأنا شخص مسكين ، ولكن ما أفعله يدعو إلى الاعجـاب !

ولكنه ما لبث ، بابتسامة ، ان انكر فخامة كلماته الاخيرة : فالى اي حد تراه كان يؤمن بها ؟ كان يقول لي أحياناً :

— يجب الاّ تحكمي عليّ .

فلم أكن اميز ان كان يوجّه لي رجاء أم يعطيني امراً . فكنـت أهادنه عن رضى . وكان يحدثني عن الكتب التي سوف يكتبها : فربما كانت تدعو حقاً إلى الاعجاب . وكان هناك شيء واحد يضايقني فيه هو انه كان يعوّل على النجاح الاجتماعي ليرضي فرديته . وكنت أبعد مـا أكون عن مثل هذا المطمع . فأنا لم أكن أطمع بالمال ولا بالرتب ولا بالشهرة . ولكن الواقع اني كنت احتفظ بفكرة شبه دينية عما كنت اسميه « قَدَري » . أما هيربو فكان يهتمّ بالوجه الذي يخلقه لنفسه في عيون الآخرين ، وكان يواجه كتبه القادمة على انها عناصر من شخصيته . وفي هذا المجال ، لم أكن لأتراجع قط عن عنادي ، فاني لم أكن أفهم أن يتنازل المرء عن حياته بتصويت جمهور قريب .

ولم نكن نتحدث قط عن مشكلاتنا الشخصية . غير اني ما لبثت يوماً ان رويت له بخطوط عريضة قصتي مع جاك ، فحثني على أن أتزوجه وأضاف :

— وان لم يكن هو فسواه ... إن على المرأة أن تتزوج .

فلاحظت بدهشة ان رأيه في هذه القضية لا يكاد يختلف عن رأي أبي . وكان يرى ان الشاب الذي يبقى بكراً بعد أن يجاوز الثامنة عشرة هو رجل مصاب بداء عصبي . ولكنه كان يدّعي ان على المرأة الاّ تستسلم إلاّ ليلة العرس . أما أنا ، فلم أكن أقرّ ان يكون هناك مقياسان وكيلان . وكنت قد كففت عن لوم جاك ، ولكنني كنت في الوقت نفسه امنح النساء ان ينصرفوا كالرجال تصرفاً حراً بأجسادهن وكنت أحب كثيراً

رواية لميشال ارلان بعنوان «اللبادة الخضراء» وهي تروي أن سوء تفاهم كان قد أبعد البطلة ايريس ستورم عن حبيب شبابها «نابيه» ، ولم تكن تنساه قطّ بالرغم من انها كانت تنام مع كثيرين من الرجال . وأخيراً فضلت ان تقتل نفسها باصطدام مفتعل بسيارتها على أن تنزع حبيبها من زوجة يحبها وتحبه . وكنت معجبة بايريس : بوحدتها وعدم اكتراثها وشخصيتها الرفيعة . وقد أعرت هيربو الكتاب فقال لي وهو يعيده إليّ :

– اني لا احب النساء السهلات !

ثم ابتسم لي وأضاف :

– بقدر ما احب ان تروق لي المرأة ، يستحيل عليّ ان احترم امرأة امتلكتها !

فأخذني الغيظ وقلت :

– إن امرأة مثل ايريس ستورم لا تُمتلك . وليس ثمة امرأة تقبل مواصلة الرجال دون أن تُعاقب على ذلك .

وكرّر لي ان مجتمعنا لا يحترم إلا النساء المتزوجات . أما أنا ، فلم يكن يهمّني ان أكون محترمة . كان الحياة مع جاك ، والزواج به امراً واحداً . ولكن يبدو لي الآن ان من الافضل ، إذا كان بالامكان ، فصل الحب عن الزواج . ولقد رأيت ذات يوم في اللكسمبورغ نيزان مع زوجته وهي تدفع بعربة أولاد ، وتمنيت من كل قلبي ألاّ ترتسم هذه الصورة في مستقبلي . فقد كنت أرى مزعجاً أن تسلب القيود المادية رجلاً من امرأته أو امرأة من زوجها : فالصلة الوحيدة التي تربط اشخاصاً متحابّين ينبغي ان تكون الحب وحده .

وهكذا لم أكن اتفاهم مع هيربو دون تحفظ .فقد كانت تبرمني خفّة مطامعه واحترامه لبعض المواصفات واحياناً حسّه الجمالي : وكنت اقول لنفسي اننا لو كنا نحن الاثنين حرّين ، لما كنت ارتضي ان اشد حياتي إلى حياته ، فقد كنت انظر إلى الحب كالتزام كامل : وهذا يعني

اني لم اكن احبّه . ومع ذلك فان العاطفة التي كنت أكنّها له تذكّرني تذكيراً غريباً بالعاطفة التي أوحاها لي جاك . فمنذ اللحظة التي كنت أتركه فيها ، كنت انتظر اللقاء التالي . وكل ما كان يحدث لي ، وما كان يخطر في رأسي ، كنت أحفظه لأرويه له . وحين كنا نفرغ من الحديث ونعمل جنباً إلى جنب ، كان قلبي ينقبض ، لأننا كنا نميل آنذاك نحو الرحيل : ولم أكن أدري قط متى سأراه مرة أخرى ، وكان عدم اليقين هذا يحزنني . وكنت أستشعر في ضيق أحياناً ضعف صداقتنا، فكان هيربو يقول لي بلطف :

– انك اليوم كئيبة جداً ...

ثم ينصرف إلى محاولة إزالة كآبتي . وكنت أشجّع نفسي على ان أعيش كل يوم بيومه بلا أمل ولا خوف : هذه القصة التي لم تكن تهبني الا الفرح ، كل يوم بيومه .

ولقد انتصر الفرح . ولقد رحت ذات يوم ، وانا اراجع الدروس في غرفتي ، بعد ظهر يوم قائظ ، اتذكّر ساعات شبيهة كنت أعدّ فيها للبكالوريا : لقد كنت أشعر بالأمن نفسه وبالنشاط ذاته ، وكم ذا اغتنيت منذ عامي السادس عشر !

وأرسلت رسالة إلى براديل لاؤكد موعداً ضربته له ، وانهيت كلمتي بقولي :

« لنكن سعداء ! » وبعد عامين ذكّرني بذلك، وكنت قد طلبت منه ان يحذّرني من السعادة ، فتأثرت لتنبّهه ووعيه . ولكن الكلمة كانت قد تغيّر معناها ، فليس الأمر بعد تنازلاً أو خموداً : ذلك ان سعادتي كفّت عن أن تكون متوقّفة على جاك . وعزمت على امر : في العام القادم لن أبقى في البيت ، حتّى ولو لم أنجح . أما إذا نجحت فلن آخذ وظيفة ، ولن أغادر باريس : ففي الحالتين سأسكن وحدي وسأعيش من الدروس التي سوف أعطيها . وقد كانت جدتي ، منذ موت جدي،

تقبل طلاباً داخلين في بيتها . ولسوف استأجر احدى غرفها . مما يضمن لي استقلالاً كاملاً من غير ان أجفّل أهلي . ولقد وافقوا على ذلك .

إن بوسعي الآن ان اكسب مالاً وان أخرج وأستقبل واكتب واكون حرة : إن الحياة تنفتح حقاً هذه المرة .

٩

وكنت أسوق اختي نحو هذا المستقبل . وقد كنا نجلس على ضفاف السين ، إذ يهبط الليل ، فنأخذ نروي احلام الغد المنتظرة حتى نكاد نفقد أنفسنا : كنا نتحدث عن كتبي ولوحاتها ورحلاتنا والعالم . وكانت ترتجف فوق الماء المنسرب أعمدة وظلال ، وكنا نلقي على أعيننا غلالاتنا السوداء لنجعل الديكور أشد اغراء . وكنا غالباً ما نشرك جاك في مشاريعنا : ولم نكن نتحدث عنه بعد على انه حبيب عمري ، ولكن على انه ابن العمة العجيب الذي كان بطل شبابنا .

وكانت ليزا تقول لي :

ـ أما أنا ، فلن أكون هنا في العام القادم .

وكانت تجهد في انجاز دبلومها ، وكانت قد طلبت وظيفة في سايغون . ولا شك في ان براديل كان يحزر سرها ، فكان يتجنّب اللقاء بها . وكانت تتمتم بابتسامة رقيقة :

ـ آه ! كم أنا شقية !

وكنا نلتقي في السوربون وفي المكتبة الوطنية ، ونشرب الليمون في اللكسمبورغ ، أو نأكل البرتقال في غرفتها المزدهرة بشوك وردي أبيض . وبينما كنا نتحدث ذات يوم مع كليرو في ساحة السوربون ، سألنا بصوته الممتلئ :

ـ ما الذي تفضّلنه في نفوسكن ؟

فأجبته وأنا أكذب :

ـ انساناً آخر !

وأجابت ليزا :

ـ أما أنا ، فباب الخروج :

وقالت لي في مناسبة أخرى :

ـ إن ما يُحمد لديك هو انك لا ترفضين شيئاً أبداً ، انك تتركين جميع الابواب مفتوحة . أما أنا ، فاني ابداً خارجة ، واني أحمل معي كل شيء . ولماذا تراني دخلت يوماً إلى عندك ؟ ام انك انت التي أتيت وخطر لك ان تنتظري ؟ صحيح ان بوسعنا ان نفكر ، حين يكون المالك غائباً . انه سيعود بين لحظة وأخرى ، ولكن الناس لا يفكرون بهذا . »

وكان يتفق لها أن تكون جميلة ، في المساء ، إذ ترتدي مباذلها ، ولكن التعب واليأس كانا يجفّفان وجهها .

ولم يكن براديل ينطق باسمها قط . وعلى العكس ، كان غالباً ما يحدّثني عن زازا ، وقد دعاني يوماً إلى حضور اجتماع يتناظر فيه غاريك وغيهينو وأضاف يقول :

ـ اصطحبي صديقتك .

وتناولت زازا العشاء في بيتها وصحبتني إلى قاعة الاجتماع في شارع « ديفور » . وكان ماكسانس يرأس الجلسة . ولقد ذكرت محاضرة غاريك التي ألقاها منذ ثلاث سنوات حين كان يبدو لي نصف إله وحين كان جاك يشدّ على الأيدي في عالم لم أكن أستطيع دخوله : أما اليوم فاني أشدّ على أيدٍ كثيرة . وما زلت اتذوق صوت غاريك الحارّ الحيّ : أما اليوم فقد بدتّ لي كلماته بليدة مع الأسف .

وحين بدأ غيهينو الكلام ، ارتفعت أصوات تؤيد جريدة « العمل الفرنسي » وراحت تصفّر له ، وأصبح من المستحيل اسكات هذه

الأصوات . وانتهى الأمر بان خرج غاريك وغيهينو ليتناولا معاً قدحاً من الخمر في مقهى مجاور وتفرّق الجمهور .

وبالرغم من المطر ، سرنا أنا وزازا وبراديل مشياً على الأقدام في شارعي سان جرمان والشانزليزيه. وكان صديقاي اوفر ضحكاً مما اعتادا، وتحالفا ضدّي . ودعتني زازا « السيدة التي لا تلتزم الاخلاق » — وكان هذا هو لقب ايريس ستورم في « اللبادة الخضراء » — وأضاف براديل إلى ذلك :

— انك ضمير متوحّد .

وقد تسلّيت من هجومهما المشترك .

وبالرغم من ان تلك الامسية كانت فاشلة . فقد شكرتني عليها زازا بصوت متأثر ، فلقد فهمت فجأة وبصورة حاسمة انها لن تقبل ابداً ما يطلبه منها وسطها من تقليص للقلب والفكر . وتقدمنا أنا وبراديل للامتحان الشفهي من دبلومنا وأقبلت زازا تحضره ، ولقد احتفلنا بنجاحنا في الامتحان بأن تناولنا نحن الثلاثة الشاي في مقهى « الايفلين ». ونظمت ما سمّاه هيربو « رحلة غاب بولونيا الكبرى » .وفي ذلك المساء الدافئ ركبنا في بحيرة الغابة قارباً أنا وزازا وليزا واختي وجيجه وكليرو وشقيق زازا الثاني . وتحدثنا في السباق وضحكنا وغنينا كثيراً . وكانت زازا ترتدي ثوباً من الحرير الوردي وقبعة صغيرة من قش الارز ، وكانت عيناها السوداوان تبرقان ولم يسبق لي أن رأيتها على مثل ذلك الجمال . ولقيت مرة أخرى في بيت براديل المرح الذي كان قد نضج به قلبي في مستهل صداقتنا . وركبت مع براديل وزازا في يوم آخر قارباً في البحيرة فلاحظت ودّهما ودهشت لأن يظهرا من التعلّق بي ذلك المساء هذا القدر الكبير : فقد كانا يوجّهان لي النظرات والابتسامات والكلمات الدافئة التي لم يكونا يجرؤان بعد على تبادلها . وفي اليوم التالي اصطحبت زازا في السيارة . فحدثتني بتقوى عن براديل . وبعد بضع لحظات قالت لي

ان فكرة الزواج تزيدها اشمئزازاً يوماً بعد يوم،فهي لن تخضع للزواج بانسان متوسط ، ولكنها لم تكن تعتبر نفسها جديرة بأن يحبها إنسان ممتاز حقاً . وأخفقت مرة أخرى في ادراك سبب كآبتها . والحقيقة اني كنت شاردة بعض الشيء بالرغم من صداقتي لها .

وكانت مباراة الاغريغاسيون ستفتح في الغد ، وكنت قد ودّعت هيربو .. أما متى سنلتقي من جديد ؟... وقد لمحته في أثناء الامتحان ، وكان ينوي ان يغادر باريس ، وان يستعد للامتحان الشفهي مع سارتر ونيزان لدى عودته . وهكذا انتهت لقاءاتنا في السوربون ، وكم سوف أتحسّر عليها !

غير اني كنت ذات مزاج مرح في اليوم التالي أثناء الرحلة التي قامت بها « جماعة غابة بولونيا » إلى « فونتانبلو » . وكان براديل وزازا يشعّان. وبدا الجذل على كليرو وحده ، وكان يغازل أختي ولكنها لا تستجيب له . والواقع انه كان يعمد إلى ذلك بطريقة غريبة . وكان يدعونا لتناول قدح من الخمر في مقهى كبير ، ثم يصرخ قائلاً :

— ثلاثة شاي .

فتقول أختي بوبيت :

— كلا ، فأنا أفضل قدحاً من الليمون .

— ولكن الشاي اكثر انعاشاً !

— بل أنا أفضل الليمون .

فيقول غاضباً :

— اذن ثلاثة ليمون !

— ولكن خذ شاياً !

— لا أحب أن اتفرّد .

وكان لا يني يختلق لنفسه الهزائم التي كانت تقذفه في شعور الكراهية، وكان يبعث إلى أختي بين وقت وآخر رسالة مستعجلة يعتذر فيها بسبب

انه كان سيء المزاج ، ويَعِدُ بأن يصبح رفيقاً فرحاً ، وبان يحاول أغتاء تلقائيته . فاذا كان اللقاء التالي ، رأيناه يتدفّق تدفقاً يثلجنا فيستردّ وجهه تقلّصه .

وقال لي هيربو بصوته العذب حين دخلنا قاعة مكتبة السوربون للامتحـان :

— حظـاً سعيداً يا قندس !

ووضعت على مقربة منّي زجاجة ملأى بالقهوة وعلبة من الحلويات ؛ وأعلن صوت السيد لالاند : « الحرية وعدم لزوم الوجود » ، وراحت الأعين تنظر إلى السقف ، وبدأت الاقلام تتحرك ، وملأت الصفحات وأنا أشعر بأن الامر يجري على ما يرام .

وعند الساعة الثانية بعد الظهر ،أقبل براديل وزازا لاصطحابي . وبعد ان شربنا قدحاً من الليمون في مقهى « الفلور » الذي لم يكن آنذاك الا مقهى صغيراً من مقاهي الحيّ ، تنزهنا طويلاً في اللكسمبورغ ؛ وجرى بيني وبين براديل نقاش مرّ عذب ؛ وكنا نختلف دائماً في بعض وجهات النظر . فقد كان يرى انه لم يكن ثمة مسافةٌ بين السعادة والشقاء، بين الايمان والكفر ، بين اية عاطفة وغيابها.أما أنا فكنت اوئمن بالعكس ايماناً متعصباً . وبالرغم من أن هيربو كان يأخذ عليّ مناقشتي لأي انسان، فقد كنت أصنّف الناس إلى فئتين : فكنت استشعر لبعضهم تعلقــاً غريباً ، وللاكثرية الاخرى لامبالاة محتقرة .أما براديل ، فكان يضع جميع الناس في سلّة واحدة . ومنذ عامين ، اشتد كل منا إصراراً على موقفه . وكان قد كتب لي مساء الأمس رسالة يتحدث فيها عن خلافنا فقال :

— إن أشياء كثيرة تفصل بيننا ، أشياء أكثر من التي اتصورهـا وتتصورينها دون شك . وأنا لا أتحمّل ان يكون ودّك لي ضيقاً إلى هذا الحدّ . فكيف يمكن للانسان العيش دون أن يأخذ جميع الناس في شبكة

واحدة للحب ؟ الحق انك فاقدة الصبر فيما يخص هذه الامور :

وانهى رسالته بلطافة :

« بالرغم من عصبيتك التي تزعجني على انها فقدان وعي والتي تختلف تماماً عن عصبيتي ، فاني أكنّ لك صداقة كبيرة تستعصي على الشرح ... »

وبعد ظهر ذلك اليوم ، عاد يعظني في ضرورة الاشفاق على البشر وكانت زازا تؤيده بصورة خفية لأنها كانت تراعي تعاليم الانجيل : لا تحكموا على الناس . أما أنا فكنت أعتقد ان الانسان ليس بوسعه ان يحب من غير ان يكره : كنت احبّ زازا ، وكنت اكره امها .

وفارقنا براديل من غير ان نتراجع ، هو أو أنا ، مقدار ذرة . وبقيت مع زازا حتى ساعة العشاء. فقالت لي انها للمرة الاولى لم تشعر بانها كانت محايدة بيني وبين براديل ، وان ذلك قد أثر فيها كثيراً . ثم أضافت في اندفاع :

ــ لا أظن ان هناك شاباً أفضل من براديل .

وفي اليوم التالي ، حين خرجت من الامتحان الأخير ، كانا ينتظرانني في ساحة السوربون وهما يتحدثان بحيوية . واي عزاء احسست به لانتهاء المباراة !

وفي المساء صحبني أبي إلى احد المسارح ، وتناولنا العشاء في احد المطاعم . ثم نمت حتى الظهر . وبعد الغداء توجهت إلى بيت زازا ، وكانت ترتدي ثوباً جديداً من الغلالة الزرقاء ذا رسوم سوداء وبيضاء : فما أروع ما تفتّحت منذ أوائل الصيف ! وحين هبطنا شارع الشانزليريه عبرت لي عن دهشتها من هذا الانتعاش الجديد الذي باتت تحسّه . لقد حسبت منذ سنتين ، حين قطعت علاقتها بأندريه انها لن تفعل شيئاً بعد ذلك الا أن تجرّ نفسها في الحياة . ولكن هي ذي الآن تجد نفسها في مثل الفرحة التي عرفتها في أيام طفولتها . انها تستعيد حبها للكتب

والافكار ولتفكيرها بالذات ، وهي على الاخص تجابه المستقبل بثقة لا تدري لها شرحاً .

وفي ذلك اليوم نفسه حين خرجنا ، حوالى منتصف الليل من دار سينما « المزارعين » أخذ براديل يحدثني عن الاحترام الذي يكنّه لزازا ، كانت في رأيه لا تتكلم قط الا بما تعرفه معرفة عميقة ، وما تحسّه باخلاص ، ولهذا كانت غالباً ما تصمت : ولكن كل كلمة من كلماتها كان لها وزنها . وكان يعجبه أيضاً ان تظلّ محتفظة برباطة جأشها في الظروف الصعبة التي كانت تجتازها . وطلب مني ان أدعوها من جديد لتتنزه معنا . ودخلت البيت وقلبي يطفر فرحاً . لقد جعلت اتذكّر كيف كان براديل يصغي إليّ بانتباه ، في الشتاء الماضي ، حين كنت أنقل له بعض أخبار زازا ، وكانت هي غالباً ما تشير اليه في رسائلها ببعض كلمات ودية . لقد خلق احدهما للآخر ، وكانا متحابّين . وهكذا كانت احدى أعزّ امنياتي بسبيل التحقيق : ان زازا ستعيش سعيدة .

وأخبرتني امي صباح اليوم التالي اني بينما كنت مساء الامس في السينما ، مرّ هيربو بالبيت . فأحزنني ذلك لا سيما وانه لم يواعدني امس على اللقاء حين غادر قاعة الامتحان وهو غير راضٍ عن المسابقة التي كتبها . وكنت أجترّ خيبتي حين نزلت ظهراً لأشتري بعض الحلوى فلقيته في أسفل السلّم ، ودعاني إلى تناول الغداء. وتوجهنا كعادتنا إلى مطعم « زهرة الزنبق » ، وحدثني عن الترحيب الذي لقيه من أبي وأمي وذكر لي ان أبي عقد معه حديثاً طويلاً هاجم فيه النزعة العسكرية ، فردّ عليه بحديث أطول . وكان عازماً على أن يذهب في اليوم التالي للقاء زوجته في « بانيول دولورن » ، حتى إذا عاد بعد عشرة أيام ، فسينصرف إلى إعداد الامتحان الشفهي مع سارتر ونيزان اللذين كانا يدعوانني بترحاب لكي أنضمّ اليهما .

وكان سارتر يودّ ان يتعرّف عليّ : فعرض عليّ لقاء يتمّ في مساء

قريب . ولكن هيربو طلب مني الآ أوافيه إلى هذا اللقاء، بدعوى ان سارتر سينتهز الفرصة ليستولي عليّ ... وقـال لي هيربو بلهجة ودية:

ـ لا أريد أن يمسّ احدٌ اعزّ مشاعري !

وقررنا أن تلقى أختي سارتر في الموعد والمكان المحدّدين ،وان تقول له اني ذهبت فجأة إلى الريف وتخرج معه بدلاً مني .

وهكذا ، فسوف ارى هيربو مجدداً عما قريب ، وها أنّ عصبته ترحّب بي : وكدت أطير من الفرح . وانصرفت بلامبالاة إلى إعداد المنهاج الشفهي ، ورحت اقرأ كتباً مسلّية وأشرد وأضيع وقتي . وفي الأمسية التي ذهبت فيها بوبيت للقاء سارتر ، كنت استعرض بفرح أحداث العام المنصرم واحداث شبابي كلّه ، وأخذت أفكر بانفعال في المستقبل :

« عجيب هذا اليقين بأنّ ذلك الغنى الذي احسّه في نفسي سيقطف ثمرته ، وان الكلمات التي اقولها ستلقى آذاناً صاغية ، وان هذه الحياة ستكون ينبوعـاً يتردده الآخرون : يقين رسالة أحملها ... »

وأخذتني الحماسة ، كما أخذتني من قبل تلك الشطحات الصوفية ، ولكني هذه المرة لم أكن لاغادر الارض . لقد كانت مملكتي مستقرة نهائياً في هذا العالم .

وحين عادت أختي هنّأتني بأني ظللت في البيت . فقد قبض سارتر كذبتنا بمجاملة واضحة ، فاصطحبها الى السينما وأظهر لها وداً وملاطفة ولكنه لم يعقد أي حديث معها . وقالت لي أختي :

ـ ان هيربو يختلق من رأسه كل ما يرويه عن سارتر !

وكانت أختي تعرف هيربو قليلاً ، وتجده انساناً مسلياً .

وانتهزت فرصة بطالتي لأحيي بعض الصداقات التي كادت تبلى ، فزرت الآنسة لامبير التي أخافها هدوئي ، وسوزان بواغ التي كانـت السعادة الزوجية تبلّدها ، واستشعرت الضجر مع ريسمان . وكانت ستيفا

قد اختفت منذ شهرين اذ أقامت في « مونروج » حيث استأجر فرنان مرسماً له . وأحسب انهما يعيشان معاً ، وانها انقطعت عن رؤيتي لتخفي عني سوء مسلكها . وحين ظهرت من جديد . كان في أصبعها خاتم . وقد أتت تزورني في الساعة الثامنة صباحاً ، فتناولنا الغداء في مطعم « دومينيك » وهو مطعم روسي افتتح في مونبارناس منذ بضعة أسابيع وقضينا النهار كله نتنزّه ونتحدّث ، وفي المساء تناولت العشاء في المرسم الذي كان قد غُطّي بالطنافس الاوكرانية ، وكان فرنان يرسم من الصباح الى المساء ، وكان قد حقّق تقدماً كبيراً . وبعد بضعة أيام أقاما حفلة كبيرة بمناسبة زواجهما حضرها روس وأوكرانيون واسبانيون كلهم من الرسامين أو النحاتين أو الموسيقيين ، وشربنا ورقصنا وغنّينا وتنكّرنا . ولكن ستيفا كانت على أهبة السفر مع فرنان الى مدريد حيث ينويان الاستقرار ، وكانت معدّات هذا الرحيل تستغرقها مع الهموم البيتية . وكانت صداقتنا التي ستكتسب فيما بعد نضارة جديدة – تتغذّى خصوصاً بالذكريات .

وظللت أخرج غالباً مع براديل وزازا ، ولكني بدأت أشعر اني كنت دخيلة : فقد كانا متفاهمين كل التفاهم ! ولم تكن زازا تصرّح بعد بآمالها ، ولكنها كانت تستمد منها الشجاعة على ان تقاوم هجمات أمها . وكانت السيدة مابيل تدبّر لها زواجاً وكانت لا تني تلاحقها في ذلك :

– ما الذي تأخذينه على هذا الشاب ؟

– لا شيء يا أمي ، ولكني لا أحبه !

– إن المرأة يا صغيرتي لا تحبّ ، وانما الرجل هو الذي يحبّ .

ثم تغضب وتضيف :

– ما دمت لا تأخذين شيئاً عليه ، فلماذا ترفضين الزواج به ؟ لقد دبّرت أختك أمرها مع رجل أقلّ منها ذكاء !

وكانت زازا تروي لي هذه المناقشات بقدر من المشقة يفوق قدر السخرية ، لأنها لم تكن تستخف باستياء أمها منها . وكانت تقول لي:

– لقد بلغ بي التعب من المقاومة بحيث اني كنت استسلم لو كان ذلك منذ شهرين أو ثلاثة .

وكانت تجد الشاب الراغب فيها لا يخلو من لطف ، ولكنها لم تكن تستطيع التصور بأن يكون صديق براديل أو صديقي ، بحيث أنه لن يكون قائماً في مكانه المناسب حين نجتمع فيما بيننا . ولم تكن هي تريد القبول بزوج تحترمه أقل مما تحترم الآخرين .

ولعل السيدة مابيل قد أدركت الاسباب الحقيقية لذلك العناد . فحين كنت أدقّ بابهم كانت تستقبلني بوجه مثلج ، وما لبثت أن عارضت التقاء براديل بزازا . وكنا قد فكرنا بالقيام بنزهة تجذيف أخرى ، ولكني تلقيت عشية اليوم الموعود رسالة مستعجلة من زازا قالت فيها :

« جرى بيني وبين أمي حديث أصبح مستحيلاً عليّ بعده أن أشترك معكم في التجذيف يوم الخميس . ان أمي تغادر باريس صباح الغد ، وقد كان بوسعي لو أنها ظلت هنا أن أناقشها وأقاومها . أما ان أنتهز الحرية التي تتركها لي لكي أفعل شيئاً لا يروق لها تماماً ، فأنا لست جديرة بذلك . وأنه ليشقّ عليّ كثيراً أن أتخلّى عن أمسية الخميس التي كنت آمل أن أجد فيها مثل تلك اللحظات الرائعة التي قضيتها معك ومع براديل في غابة بولونيا . إن الاشياء التي قالتها لي أمي قد تركتني في حالة مريعة حتى اني أوشكت أن أقصد لمدة ثلاثة أشهر ديراً من الأديرة يتاح لي فيه ان أعيش بسلام . وأنا ما زلت أفكر بتنفيذ ذلك ، فاني في اضطراب عظيم ... »

وحزن براديل لذلك ، فكتب لي يقول :

« بلّغي الآنسة مابيل عن أعمق شعوري بالصداقة . وأعتقد أن بوسعنا أن نلتقي في وضح النهار ، وعن طريق المصادفة ، دون ان تخالف

وعدها ... »

والتقيا في المكتبة الوطنية حيث عدت الى العمل . وتناولت معهما الغداء ثم خرجا يتنزهان وحدهما . والتقيا مرتين أو ثلاثاً أخرى ، وصارحتني زازا ، في أواخر تموز ، انهما كانا متحابين ، وانهما عازمان على الزواج حين ينهي براديل الاغريغاسيون ويقوم بالخدمة العسكرية . ولكن زازا كانت تخشى معارضة أمها ، وقد اتهمتها بالتشاؤم ، وبأنها ليست بعد طفلة وان السيدة مابيل تتمنى لها السعادة في آخر الأمر ، ولا بد من ان تحترم اختيارها . وما عساها يكون اعتراضها ؟ لقد كان براديل من أسرة ممتازة ، وكان كاثوليكياً ممارساً ، وواضح ان مستقبله لامع ولا شك في ان الاغريغاسيون ستؤمن له مركزاً محترماً : فان زوج ليلي لم يكن هو الآخر يتقلّب على الذهب .

وهزّت زازا رأسها وقالت :

— القضية ليست هنا . ففي وسطنا لا تتم الزيجات على هذا النحو !

فلقد تعرّف براديل على زازا بواسطتي ، وهذه علامة سيئة . ثم ان فكرة امكانية الزواج المؤجل ستقلق السيدة مابيل ، ولكن المهمّ كما رددت زازا هو أن « ذلك لا يفعل في وسطنا » وكانت قد عزمت على انتظار العودة الى المدرسة لتحدث أمها . على انها تنوي ان تكاتب براديل في أثناء العطلة : وقد تلاحظ السيدة مابيل ذلك ، فماذا عساه يحدث ؟ وبالرغم من قلق زازا ، فانها شعرت بالأمل يغمرها حين وصلت الى لوباردون . وقد كتبت تقول لي :

« إن عندي يقيناً يتيح لي ان أنتظر بثقة وأن أتحمّل كثيراً من المتاعب والمعاكسات عند اللزوم . إن الحياة لرائعة . »

١٠

حين عاد هيربو الى باريس ، في مطلع تموز ، أرسل لي كلمة يدعوني فيها الى قضاء الأمسية معه . ولم يكن أهلي يوافقون على أن أخرج مع رجل متزوج ، ولكني كنت من شدة اقترابي من الافلات منهم بحيث أنهم تراجعوا عن التدخل في شؤون حياتي . وهكذا خرجت مع هيربو فشاهدنا « المسافر » وتناولنا العشاء عند « ليب » . وأبلغني ان « الاصدقاء الصغار » سينتظرونني صباح الاثنين في المدينة الجامعية وانهم يعتمدون علي في فهم ليبنتز .

وحين دخلت غرفة سارتر ذُعرت بعض الشيء لاضطراب الكتب وتناثر الاوراق وأعقاب السكاير في كل مكان والدخان الكثيف المنتشر. واستقبلني سارتر بترحيب ، وكان يدخن الغليون . أما نيزان فكان صموتاً ، وكانت لفافة ملتصقة في زاوية بسمته المنحرفة ، وكان يرقبني عبر نظارتيه السميكتين وكأنه يفكّر طويلاً . وقضيت النهار بطوله ، وأنا متحجّرة من الخجل ، أعلّق على « الخطاب الميتافيزيقي » . وفي المساء صحبني هيربو الى البيت .

وعدت بعد ذلك عدة مرات ، وكان الثلج يذوب عني . وكان ليبنتز يضجرنا واتفقنا ذات لحظة أننا كنا نعرفه معرفة كافية . وأخذ سارتر يشرح لنا « العقد الاجتماعي » وكانت له حوله آراء خاصة . والحق انه كان يعرف أكثر منا جميعاً مختلف المؤلفين ومختلف بنود المنهاج ، فكنا نكتفي بالاستماع اليه . وكنت أحاول أحياناً أن أناقش : فأتشاطر وأعاند ، فيقول هيربو جذلاً :

— انها أريبة !

بينما يتأمّل نيزان أظافره باستغراق . ولكن سارتر كان دائماً ينتصر عليّ . وكان يستحيل عليّ أن أغضب : فقد كان يبذل كل ما في

وسعه ليجعلنا نستفيد من علمه . وقد كتبت في مذكراتي : « إنه مدرّب فكري عجيب » وقد شُدهت بتدفقه وفيضه لأن هذه الجلسات لم تكن تفيده شيئاً ، وقد كان ينفق نفسه طوال ساعات بلا حساب .

وكنا نعمل خاصة في الصباح . أما بعد الظهر فقد كنا نأخذ لأنفسنا بعد الغداء في مطعم المدينة الجامعية فرصة راحة طويلة . وكانت زوجة نيزان ، وهي امرأة سمراء ذات جمال أخّاذ ، تنضم الينا غالباً ، فنزور المعرض القائم في ساحة « باب أورليان » أو نلعب البليارالياباني ..وكنا نتراكم في سيارة نيزان الصغيرة ونطوف باريس متوقفين هنا أو هناك لنشرب قدحاً في مقهى . وفي أثناء هذه النزهات كان سارتر وهيربو يغنّيان بأعلى صوتهما ألحاناً يرتجلانها . وكان لسارتر صوت جميل . وكان يحفظ كثيراً من الاغاني ، ولا سيما أغاني الجاز الشائعة ، وكانت مواهبه التمثيلية مشهورة في المدرسة كلها : وكان هو الذي يمثل في المسرحية السنوية دور « المسيو لانسون » فينجح نجاحاً كبيراً . فاذا ما تعب ، وضع أسطوانة على الفونوغراف . وكانت جدران غرفته تغتني كل يوم برسوم جديدة للحيوانات الميتافيزيقية . وكان نيزان يتخصص في رسوم ليبنتز فيرسمه راهباً أو مرتدياً قبعة أو يحمل على قفاه آثار ركلة من قدم سبينوزا ...

وكنا نترك أحياناً المدينة الجامعية لنلتقي في مكتب نيزان الذي كان يسكن في منزل أهل زوجته . وكان معلقاً على جدران غرفته صورة كبيرة للينين وصورة فينوس لبوتيشلي ، وكنت معجبة بالاثاث الحديث والمكتبة المنظّمة . وكان نيزان في طليعة الثلاثي ، وكان يتردد على الاوساط الأدبية ، وكان قد تسجّل في الحزب الشيوعي . وقد كشف لنا عن الأدب الايرلندي والروائيين الاميركيين الجدد . وكان مطلعاً على الموضة الاخيرة ، وحتّى موضة الغد . وكان يُعدّ مقالاً هجائياً ضد الفلسفة الرسمية ودراسة عن « الحكمة الماركسية » وكان قلما

يضحك ، ولكن غالباً ما يبتسم ، بقسوة . وكان حديثه يسحرني ، ولكني كنت أجد بعض الصعوبة في التحدث اليه بسبب لهجته الساخرة.

وكيف تراني تأقلمت بهذه السرعة ؟ كان هيربو قد حرص على ألا يصدمني ، ولكن « الاصدقاء الصغار » الثلاثة لم يكونوا ليتكلّفوا قطّ حين يجتمعون . وكانت لغتهم هجومية ، وفكرتهم حاسمة ، وعدالتهم لا استئناف لها . وكانوا يسخرون من النظام البورجوازي ، أما أنا فقد ظللت مخدوعة ببعض النزعات البورجوازية . وكانوا يهاجمون بلا شفقة جميع المثاليات ويستهزئون بالروحانيات ، والارواح النبيلة وجميع الارواح ، والحالات الروحية والحياة الداخلية ونزعات العجيب والاسرار والنخبة الخ ... وفي جميع المناسبات ، كانوا يظهرون في أحاديثهم وتصرفاتهم وسخرياتهم ان البشر ليسوا أرواحاً وانما هم أجساد فريسة الحاجة ، ملقاة في مغامرة قاسية . ولو عرفتهم قبل ذلك بعام لأرعبوني غير أني كنت قد سرت شوطاً منذ العودة الى المدرسة ، واتفق لي كثيراً ان شعرت بجوع الى لحم أقل تجويفاً من اللحم الذي كنت أغتذي به . وسرعان ما فهمت ان العالم الذي يدعوني اليه أصدقائي الجدد اذا ما بدا لي جافاً قاسياً ، فلأنهم لم يكونوا يخفون شيئاً ؛ انهم لم يكونوا يطلبون مني الا أن أحقق ما كنت أريده دائماً : أن أواجه الواقع بصراحة . ولم أحتج الى وقت طويل لأعزم على ذلك .

١١

قال لي هيربو :

— يسعدني أن تتفاهمي جيداً مع الرفاق الصغار ، ولكن ...

فقلت :

— فهمت ما تقصد ... الحقيقة انك انت أنت ...

فابتسم :

– انك لن تصبحي أبداً « رفيقاً صغيراً » فانما أنت قندس ...

وقال لي انه غيور في الصداقة كما في الحب ، ويطلب أن يُعامل بتغرّض وتحيّز . وكان يحافظ على حقوقه بقوّة . وفي المرة الأولى التي جرى فيها الحديث عن خروجي مع الجماعة ، هزّ رأسه قائلاً :

– كلا ! انني هذا المساء ذاهب الى السينما مع الآنسة دوبوفوار :

فقال نيزان بلهجة ساخرة :

– حسناً ، حسناً ...

وقال سارتر بلامبالاة :

– فليكن !

وكان هيربو ذلك اليوم كثير المزاح لأنه كان يخشى ان يسقط في الامتحان ، ولأسباب غامضة أخرى تمتّ الى زوجته بصلة . وبعد ان شاهدنا أحد الافلام ، قصدنا مقهىً صغيراً ، ولكن حديثنا كان يفتقر الى الحيوية . وسألني هيربو بشيء من القلق والدلال :

– هل أنت ضجرة ؟

ولم أكن ضجرة ولكن همومه كانت تُبعدني عنه قليلاً . غير أنه استردّ قربه مني في اليوم الذي قضيته معه بحجة مساعدته في ترجمة « الاخلاق الى نيكوماك » . وكان قد استأجر غرفة في فندق صغير كنا نشتغل فيها . ولكن أرسطو كان يبعث فينا الملل ، فلا نعمل كثيراً ؛ وقد قرأ لي هيربو مقتطفات من « أناباز » لسان جون بيرس الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً . ثم أخذ يحدّثني عن الفروق التي تجعله مختلفاً عن سارتر ونيزان . كان هو يهب نفسه بلا تحفّظات ، لمباهج هذه الدنيا : الآثار الفنية ، الطبيعة ، الرحلات ، الدسائس والملذات ؛ وقال لي :

– أما هما ، فيريدان دائماً أن يفهما ، ولا سيما سارتر !

وأضاف بلهجة ذعر معجب :

— إن سارتر يفكر الوقت كله الا حين ينام !

ورضي أن يقضي سارتر معنا أمسية ١٤ تموز . فبعد أن تناولنا العشاء في مطعم الزاسي ، جلسنا على العشب في المدينة الجامعية ، ورحنا نتفرج على الأسهم النارية التي كانت تطلق في السماء . ثم أقلّنا سارتر وكان كرمه أسطورياً ، وراح يسقينا في حانة « فالستات » بمونبارناس ألواناً من الكوكتيل حتى الساعة الثانية صباحاً . وكانا يتنافسان في اللطف ويرويان لي مجموعة من القصص فأشعر بأني أطير فرحاً . والحق أن أختي كانت على خطأ : فقد وجدت سارتر أدعى الى التسلية من هربو، على اننا اتفقنا نحن الثلاثة على أن هربو ظل يحتفظ بالمكان الأول من صداقتنا . وكان يأخذ ذراعي في الطريق دون ما تحرج . وفي الايام التالية أظهر لي من التعلق ما لم أعرفه فيه ، وكان يقول لي :

— الحق اني أحبك كثيراً يا قندس !

واتفق يوماً ان دعاني نيزان الى تناول العشاء عنده مع سارتر ، ولم يكن هربو حراً ليشاركنا ذلك ، فقد سألني بلهجة لا تخلو من فرض سلطة :

— ستفكرين بي هذا المساء ، اليس كذلك ؟

وكنت أتأثر لكل لهجة من لهجات صوته . وكنت أتحدث معه بعد ظهر أحد الايام في باحة المكتبة الوطنية ، فأقبل علينا براديل ، واستقبلته بلطف . فودّعني هربو غاضباً وتركني مزروعة هناك . وظللت أتأكّل طوال الوقت . ولقيته في المساء ، لكوني قد حزنت لما حدث ، وسمعته يقول لي بجذل :

— يا للقندس المسكين ! لقد كنت رديئاً ، اليس كذلك ؟

فصحبته الى « الستريكس » الذي كان يسحره ورحت أروي له بعض قصصي فقال لي ضاحكاً :

– إنك لظاهرة عجيبة !

وحدّثني عن نفسه وعن طفولته القروية وعن أيامه الأولى في باريس وعن زواجه . ولم يسبق لنا أن تحدثنا بمثل تلك اللهجة الصميمية . ولكنا كنّا قلقين في انتظار معرفة نتيجة الامتحان التحريري في اليوم التالي . وأخبرني أنه ، اذا سقط ، فسيقصد فوراً « بانيول دو لورن » وانه في العام القادم ، على أي حال ، سيتسلم وظيفة في الريف أو في الخارج . ووعدني بان يذهب لرؤيتي في الليموزين خلال هذا الصيف ولكني كنت أشعر بأن شيئاً ما ينتهي بيننا .

وفي اليوم التالي ، توجّهت الى السوربون خافقة القلب ، والتقيت بسارتر على الباب فأخبرني اني نجحت وكذلك هو ونيزان . أما هيربو فقد سقط . وقد غادر باريس في المساء نفسه من غير أن أراه ثانية . وقد كتب رسالة مستعجلة لسارتر يخبره فيها خبر سفره ويقول : «أحمل للقندس كل تمنياتي بالسعادة . » ولكنه ظهر بعد أسبوع وليوم واحد فقط . وقد دعاني الى « بالزار » وسألني هناك :

– ماذا تأخذين ؟

ثم أضاف :

– في أيامي ، كنت تأخذين الليمون !

فقلت له :

– انها دائماً أيامك !

فابتسم وقال :

– هذا ما أردت ان أسمعك تقولينه .

ولكنا كنا واثقين نحن الاثنين من اني كنت أكذب .

١٢

حين بشرني سارتر على باب السوربون بأني نجحت في امتحـــان « الاغريغاسيون » أضاف يقول : « ابتداء من الآن ، سأتعهد أمـــرك بنفسي » . وكان يميل الى الصداقات النسائية . وحين لمحته للمرة الأولى في « السوربون » كان يرتدي قبعة ويتحدث بلهجة حية مع فتاة طويلة خفيفة كنت أجدها قبيحة جداً ، وسرعان ما تخلى عنها ، وارتبـــط بفتاة أخرى أجمل منها ، ولكنها كانت توقعه في الارتباك ، فما لبث أن اختصم معها . وحين حدثه « هيربو » عني ، ابدى رغبته في معرفتي وها هو ذا الآن مسرور جداً بأن يتمكن من الاستئثار بي . أما أنا ، فيخيل الي ّ أن جميع الأوقات التي لم أقضها معه كانت أوقاتاً ضائعة . وفي الايام الخمسة عشر التي استغرقها الاستعداد للامتحان الشفهي لـــم نفترق الا للنوم . وكنا نقصد السوربون لنقدم الامتحان ونستمع الـــى دروس زملائنا . وكنا نخرج مع « نيزان » وزوجته ، ونشرب الخمر في « بالزار » مع « أرون » و « بوليتزر » الذي كان قد تسجل في الحزب الشيوعي . وكنا غالباً ما نتنزه معاً . وكان سارتر يشتري لي، عند أرصفة السين ، الكتب التي كان يفضلها ، ويصحبني مساء لمشاهدة الافلام « الكوبوي » التي كنت أحبها ، ونجلس على أرصفة المقاهـــي لنتحدث ساعات طويلة .

وكان هيربو قد وصفه لي بقوله : « انه لا ينقطع عن التفكـــير » ولكن هذا لم يكن يعني أنه يفرز في كل لحظة اقوالاً ونظريات . فقد كان يكره التحذلق كرهاً شديداً ، ولكن ذهنه كان متيقظاً أبداً . كان يجهل الحذر والنعاس والفرار والمدنة والحذر والاحترام . وكان يهـــتم لكل شيء ولا يعتبر أي شيء مبتوتاً بأمره . وكان اذا ما واجه شيئـــاً ينظر اليه بصراحة بدلاً من ان يتجنبه لصالح خرافة أو كلمة أو انفعال

أو فكرة مسبقة ، ولا يتركه قبل أن يستوفي أسبابه ومسبباته ومختلف معانيه . ولم يكن يتساءل عما كان يجب التفكير به ، أو ما كان التفكير به نافذاً أو ذكياً ، وانما كان يهمه ما كان يفكر به في الواقع وكان يثير دائماً اهتمام الاشخاص الذين لم يكونوا ينفرون من الجدة ، لانه لم يكن يقع في « الطابعية » لعدم تكلفه الابتكار . وكان ذهنه العنيد الساذج يلتقط الاشياء في ذروة حيويتها . وما كان أضيق عالمي الصغير ازاء هذه الدنيا الغنية ! ولقد استشعرت مثل هذه المذلة ، فيما بعد ، حين رأيت بعض المجانين الذين كانوا يبحثون في برعم زهرة عن عالم معقد من المؤامرات المظلمة !

وكنا نتحدث عن أشياء كثيرة ، وخصوصاً عن موضوع كان أكثر ما يثير اهتمامي : أنا نفسي . لقد كان الآخرون ، حين يحاولون شرحي ، يلحقونني بعالمهم ، ومن أجل هذا كانوا يغيظونني ، أما سارتر فقد كان يحاول على العكس ان يموضعني في نظامي بالذات ، فكان يفهمني على ضوء قيمي ومشاريعي . وقد استمع الي بغير حماسة حين رويت له قصتي مع جاك . لقد كان عسيراً على امرأة ربيت على شاكلتي ان تتجنب الزواج : ولكن سارتر لم يكن يرى في الزواج شيئاً عظيماً. ومهما يكن من أمر فقد كان عليّ أن أحتفظ في نفسي بكل ما كان موضع الاحترام في نفسي : حبي للحرية وللحياة وفضولي وارادة الكتابة وهو لم يكتف بتشجيعي في هذا المشروع فحسب ، بل ان يساعدني فيه . وكان يكبرني بعامين — أفاد منهما كثيراً — فكان أعمق مني عاماً بكل شيء . ولكن تفوقه الحقيقي الذي كان يبرز لعيني انما كان يكمن في هذه الحماسية الهادئة المتزنة التي كانت تدفعه نحو تلك الكتب التي كان ينوي تأليفها . لقد كنت أحسبني شاذة لاني لم أكن أتصور أن أعيش من غير أن أكتب . أما هو فلا يعيش الا ليكتب :

وبكل تأكيد لم يكن معولاً على ان يعيش حياة مكتب ، فقد كان

يكره الروتين والتدرج والاعمال والبيوت والحقوق والواجبات وكل شيء رصين في الحياة . وهو لا يكاد يهضم فكرة أن تكون له مهنة وزملاء ورؤساء وقواعد تراعى وتفرض ولن يكون أبداً رب أسرة حتى ولا رجلاً متزوجاً . لقد كان يحلم في ذلك العهد الرومانتيكي وفي أعوامه الثلاثة والعشرين بالرحلات الكبيرة : فيؤاخي الحمالين في مرفأ القسطنطينية ويثمل مع الناس في المقاهي الرخيصة ، ويطوف العالم فلا يلقى من يحافظ معه على سره . انه لن يزرع جذوره في أي أرض ، ولن يربك نفسه بأي شيء يمتلكه : وليس ذلك لكي يظل على استعداد من غير جدوى ، بل من أجل ان يظل شاهداً على كل شيء . ان جميع تجاربه يجب أن تفيد كتبه ، وقد كان يبعد بلا هوادة كل تجربة قد تنقص من قيمة هذه الكتب . وقد تناقشنا هنا طويلاً . فقد كنت معجبة ، نظرياً على الاقل ، بخرق القوانين الموضوعة والحيوات الخطرة والبشر الضائعين والاسراف في شرب الكحول وتناول المخدرات وتعاطي الحب . وكان سارتر يذهب الى ان كل اسراف هو عمل مجرم حين يكون للانسان شيء يقوله . وقد كان الاثر الفني ، الاثر الادبي غاية مطلقة في نظره ، وكان هذا الاثر يحمل في ذاته سبب وجوده ، وسبب وجود خالقه بل وحتى سبب وجود الكون كله ، ولو لم يقل هذه العبارة الاخيرة ، وان كنت أظن أنه مقتنع بها . وكانت المجادلات الميتافيزيقية تدعوه الى هز كتفيه استخفافاً . وكان يهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية ، ولكن عمله هو كان ان يكتب ، وكل شيء آخر يأتي في الدرجة الثانية . والحق أنه كان في تلك الفترة فوضوياً أكثر منه ثورياً . وكان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئاً محتقراً ، ولكنه لم يكن يحتقر أن يحتقره . وكان ما يدعوه « جمالية المعارضة » يلائم كل الملاءمة حياة البلهاء والقذرين ، بل يوجبها : فلو لم يكن هناك ما يحتاج الى المكافحة ما كان الأدب شيئاً عظيماً .

وقد وجدت صلة نسب قوية بين موقفه وموقفي . فانه لم يكن في مطامحه أي تكلف للظهور ، وانما كان يبحث عن السعادة في الادب : لقد كانت الكتب تدخل في هذا العالم العارض الى حد يرثى له ضرورة تعود فتتدفق على مؤلفها ، فينبغي له ان يقول بعض الاشياء واذ ذاك يصبح مبرراً كل التبرير . وكان على قدر كاف من الصبا ليتأثر بشأن مصيره حين كان يسمع نغم « ساكسفون » بعد أن يكون قد شرب ثلاثة أقداح من المارتيني . ولكنه كان يقبل أن يغفل اسمه لو لزم الأمر : المهم ان تنتصر أفكاره ، لا أن تنتصر أعماله الخاصة : ولم يكن قط ليقول لنفسه انه كان « أحداً » وان له « قيمة » ، بخلاف ما كان يحدث لي . ولكنه كان يعتقد أن حقائق هامة قد انكشفت له ، وان مهمته أن يفرضها في العالم . وقد أطلعني على مذكرات ومحادثات ، وحتى بعض الفروض المدرسية ، التي كان يؤكد فيها بعناد مجموعة من الافكار كان انسجامها وجدتها يدهشان أصدقاءه . وكان قد عرض هذه الافكار بصورة منظمة بمناسبة تحقيق قامت به مجلة « لينوفيل ليتيرير » ، فبرزت منها فلسفة برمتها لم تكن لها أية علاقة بتلك التي كانوا يدرسوننا اياها في السوربون :

« انه لاكبر تناقض في الفكر الا يستطيع الانسان الذي تتلخص مهمته في ان يخلق الضروري ، أن يرتفع هو نفسه الى مستوى الكائن شأنه في ذلك شأن العرافين الذين يتنبأون بالمستقبل لسواهم ، لا لأنفسهم؛ ومن أجل هذا أرى في أعماق الكائن الانساني ، كما في أعماق الطبيعة ، الحزن والضجر . وليس مرد ذلك أن الانسان لا يفكر بنفسه ككائن، فالواقع أنه يبذل في ذلك قصارى جهده ، ومن هنا منشأ فكرتي « الخير » و « الشر » ، فكرتي الانسان المفكر بالانسان . وانهما لفكرتان عابثتان . وعابثة ايضاً هي فكرة الحتمية التي تحاول محاولة تبعث على الفضول أن تحقق تركيب الوجود والكائن . اننا أحرار الى أي حد

تريده ... ولكننا مع ذلك عاجزون . أما ما يبقى بعد ذلك ، من ارادة القدرة والعمل والحياة فليس الا ايديولوجيات عابثة . فليس هناك في أي مكان ارادة القدرة ، لان كل شيء أضعف مما ينبغي، وجميع الاشياء تميل الى الموت . والمغامرة هي على الاخص خدعة ، أقصد ذلك الايمان بمصادفات تتحد بالضرورة . ان المغامر انسان حتمي غير منطقي يفرض في نفسه أنه حر . »

وينهي سارتر آراءه مقارناً جيله بالجيل الذي سبقه : « اننا أكثر شقاء ولكننا أجدر بالعطف والحب . »

وقد أضحكتني هذه العبارة الاخيرة . ولكني أدركت وأنا أتحدث الى سارتر غنى ما كان يسميه « نظرية العرض » التي كانت تحوي بذور آرائه عن الكائن والوجود والضرورة والحرية . واصبح بديهياً عندي انه سيكتب يوماً كتاباً فلسفياً ذا شأن . غير أنه لم يكن يعتبر مهمته يسيرة ، لانه لم يكن ينوي تأليف كتاب نظري وفق الاصول التقليدية . لقد كان يحب سبينوزا وستاندال على قدر المساواة ويرفض فصل الفلسفة عن الادب . ولم يكن العرض في نظره فكرة مجردة ، بل كان بعداً حقيقياً من أبعاد العالم : فمن الواجب اللجوء الى جميع مصادر الفن ليشعر القلب الانساني بهذا « الضعف » الذي كان يلحظه في الانسان والاشياء . ولقد كانت هذه المحاولة في ذلك العهد شاذة جداً ، اذ كان من المستحيل استلهام أي طراز أو أي نموذج . وبقدر ما أدهشني فكر سارتر بنضجه ، آذاني شذوذ المحاولات التي كان يعبر بها عنه ، وكان يلجأ الى الخرافة والاسطورة ليقدم فكرته بحقيقتها الفريدة . ولم يكن يأخذه القلق لذلك ، فان أي نجاح لم يكن على أية حال كافياً ليكون أساسياً لثقته في المستقبل . كان يعرف ما الذي يريد ان يعمله وكانت الحياة أمامه ، وسوف ينتهي به الأمر الى القيام به . ولم أكن أشك في ذلك قط : لقد كانت صحته ومزاجه الرضي يصمدان امام

جميع المحن : ولا ريب في أن يقينه كان يغطي عزماً جذرياً لا بد أن يؤتي ثماره ذات يوم بطريقة ما .

كانت هذه هي المرة الاولى التي أشعر فيها بأن انساناً يستولي علي فكرياً . وقد كنت أقيس نفسي بسارتر كل يوم ، فأجد اني لا وزن لي ازاءه في المناقشات . وقد عرضت له ذات صباح في حديقة اللكسمبورغ ، بالقرب من نبع « مديسيس » ، هذه الاخلاقية المتعددة التي صنعتها لنفسي لابرر الاشخاص الذين كنت أحبهم ولكني لم أكن أريد أن أشبههم ، فاذا هو يحطمها شر تحطيم . وقد كنت حريصة على هذه النظرية لانها كانت تتيح لي ان أتخذ قلبي حكَماً للخير والشر . وقد جادلته وأنا أتخبط طوال ثلاث ساعات ، وكان علي بعد ذلك ان أعترف بهزيمتي ، ثم اني لاحظت في أثناء النقاش ان كثيراً من آرائي لم تكن تعتمد الا على نزعات متغرضة أو على تضليل أو على عناد ، وان حججي كانت عرجاء ، وان أفكاري كانت مضطربة . وقد سجلت في مذكراتي « لست بعد على يقين مما أفكر به ، بل لست على يقين أني كنت أفكر حقاً ! » وأصبحت أشد ميلاً لأن أتعلم مني لأن أبرز . على أنه كان حادثاً جدياً ، بعد تلك السنوات من الوحدة القاتلة ، ان أكتشف اني لم أكن « الفريدة » ولا « الأولى » : وانما كنت واحدة بين الاخريات غير واثقة من قدراتها الحقيقية .

بيد ان همتي لم تثبط . صحيح ان المستقبل بدا لي فجأة أشق مما كنت أتصور ، ولكنه كان كذلك أوفر واقعية وأكثر ضماناً . فقد رأيت حقلاً محدداً ينفتح أمامي بمشكلاته ومهماته ومواده وآلاته ووسائل مقاومته ويحل محل إمكانيات لا شكل لها . وكففت عن أن أتساءل : ماذا أفعل ؟ كان أمامي أن أفعل كل شيء ، كل ما تمنيت في الماضي أن أفعله : أن أكافح الخطأ وأن أجد الحقيقة وأقولها وأضيء بها الدنيا ، بل وقد أساعد على تغييرها . وكنت بحاجة الى الوقت والجهد

لأني ولو جزءاً من الوعود التي قطعتها على نفسي : ولكن ذلك لم يكن ليرعبني . فلئن كنت لم أربح شيئاً ، فان كل شيء يظل مع ذلك ممكناً .

ثم ان حظاً كبيراً يوهب الآن لي : انني لم أكن وحدي فجـأة تجاه المستقبل . وقد كان الرجال الذين عرفتهم حتى الآن وتعلقت بهم — كجاك وهيربو — من غير نوعي : متحللين غير مستقرين وكأن قدراً مشؤوماً يلاحقهم ، وكان من المستحيل ان أتعاطى معهم دون تحفظ . أما سارتر فكان يستجيب أتم الاستجابة لرغبات أعوامي الخمسة عشر : كان الانسان الصنو الذي أجد فيه جميع رغباتي وقد بلغت حالة التوهج . وسوف أتمكن معه من ان أقاسمه كل شيء دائماً .

وحين تركت سارتر في مطالع شهر آب ، كنت أعلم انه لن يخرج من حياتي بعد أبداً .

ولكن قبل ان تأخذ حياتي هذه شكلها النهائي ، كان عليّ أن أوضح علاقاتي بجاك .

١٣

ماذا عساي استشعره حين أجدني وجهاً لوجه مع ماضيّ ؟ لقـد كنت أتساءل عن ذلك بقلق حين عدت في منتصف شهر أيلول مـن « مارينياك » فقرعت جرس باب أسرة « ليغيون » . وخرج جاك من غرفة المكتب فشدّ على يدي وابتسم لي ثم أصعدني الى البيت .

وجلست على الاريكة الحمراء ورحت أصغي اليه وهو يحدّثني عن خدمته العسكرية وعن أفريقيا وعن ضجره . وكنت مسرورة ، بيـد اني لم أكن قطّ منفعلة ، وقلت له :

ـ ما أيسر أن نلتقي من جديد !
فأمرّ يده في شعره وأجاب :
ـ لقد آن لنا ذلك !

وعدت أرى حركاته وأسمع نبرات صوته المعهودة ، وأحسّني أعرفه أكثر مما ينبغي وقد كتبت مساء على دفتري « انني لن أتزوجه ابـــداً فأنا لم أعد أحبه » . والحق ان هذه التصفية القاسية لم تثر دهشتي : « ان من البدهي انني في اللحظات التي كنت أحبّه فيها أشدّ الحب ، كان هناك فيما بيننا خلاف عميق لن أتغلّب عليه الا اذا عدت عن ماهيتي ، أو انني كنت آنذاك أثور على الحب . » ولقد كذبت على نفسي اذ كنت اتصنّع انتظار هذه المقارنة لأرسم لمستقبلي طريقه ، فلقـــد كان الأمر منتهياً منذ أسابيع وأسابيع .

وكانت باريس ما تزال خالية ، ولقد رأيت جاك كثيراً في تلك الفترة ، فروى لي قصته مع ماغدة بأسلوب قصصي . وحدّثته مـــن جهتي ، عن صداقاتي الجديدة ، فلم يبد عليه انه يقدّرها . أتـــراه قد أخذته الغيرة ؟ وماذا كنت بالنسبة له ؟ وماذا كان ينتظر مني ؟ انني لا أستطيع أن أعرف ذلك لا سيما وأنه كان يقوم بيننا دائماً أشخاص آخرون اذ كنا نجتمع في بيته أو في السّتريكس : كنا نخـــرج مع ريكيه ومع أولغا . وتألمت قليلاً . لقد سبق لي ، اذ كنا متباعدين، ان ملأت جاك بحبي ، أما اذا سألني الآن عن هذا الحب ، فان يديّ فارغتان منه . ولم يسألني عن شيء ، ولكنه كان يذكر مستقبله أحياناً بلهجة تشوبها قدرية غامضة .

ودعوته ذات مساء مع ريكيه وأولغا وأختي لتدشين منزلي الجديد . وكان أبي قد أنفق على تأثيثه وكان يروق لي كثيراً . وساعدتني أختي على أن أملأ الطاولة بزجاجات الكونياك والاقداح والصحون والحلويات الصغيرة . وقد وصلت أولغا متأخرة ، وكانت وحدها ، وهذا مـــا

خيّب أملنا . ومع ذلك ، فبعد كأسين أو ثلاث انتعشت المحادثة ، ورحنا نتساءل عن جاك وعن مستقبله . فقالت أولغا :

– ان كل شيء يتوقف على زوجته !

وأضافت بعد أن تنهّدت :

– ومع الاسف ، لا أعتقد أنها خلقت له !

فسألتها :

– من هي هذه التي تتحدّثين عنها ؟

–انها أوديل ريوكور . ألم تكوني تعرفين أنه سيتزوج أخت لوسيان ؟

فقلت مذعورة :

– كلا ..

فأخذت تروي لي التفاصيل :

كان جاك ، بعد عودته من الجزائر ، قد أمضى ثلاثة أسابيع في أملاك أسرة ريوكور ، فوقعت الصغيرة في حبه وصارحت أهلها برغبته في أن تتخذه لها زوجاً ، فوافق جاك على ذلك . وكان لا يكاد يعرفها ، ولولا مهرها الكبير لما كانت لها ، في رأي اولغا ، أية ميزة خاصة . وأدركت لماذا لم اكن التقي بجاك وحدنا : فانه لم يكن يجروء على الكلام ولا على الصمت . وإذا كان قد تغيّب ذلك المساء عن الحضور ، فلكي يترك الفرصة لاولغا لكي تطلعني على الحقيقة . ولقد تظاهرت باللامبالاة ، ولكني ما كدت أختلي باختي حتى رحنا نعبّر عن ألمنا وتبرمنا . ورحنا نسير وقتاً طويلاً في شوارع باريس ونحن نشعر بالحزن أن يتحوّل بطل حياتنا إلى بورجوازي دقيق الحساب .

وحين عدت لأرى جاك ، حدّثني ببعض الارتباك عن خطيبته وعن اهتمامه بتبعاته الجديدة . وتلقيت منه ذات مساء رسالة عجيبة يقول لي فيها انه هو الذي فتح لي الطريق ، وها هو ذا

الآن متخلّف تتقاذفه الرياح ، من غير أن يستطيع اللحاق بي: « أضيفي إلى ذلك ان الريح إذا رافقت التعب تحمل دائماً على البكاء » ، ولقد أثّرت بي هذه العبارة تأثيراً شديداً ، ولكني لم أجب عليها ، لأنه لم يكن ثمة ما أجيب به . إنها على أي حال قصة قد انتهت .

وماذا كان معنى هذه القصة بالنسبة لجاك ؟ وهو نفسه من كان ؟ لقد كنت مخطئة حين حسبت ان زواجه يكشف لي حقيقته ، وانه بعد أزمة من الرومانتيكية الطفولية سيصبح بهدوء ذلك البورجوازي الذي كانه .

ولقد رأيته مراراً مع زوجته بعد ذلك ،وكانت علاقاتهما تتراوح بين العذوبة والمرارة . وكادت علاقتي به تنقطع ، ولكني ما لبثت أن رأيته كثيراً في حانات مونبارناس ، وحيداً ، كالح الوجه ، دامع العينين ، يبدو عليه بوضوح انه ممتلئ خمراً .

وقد رزق جاك خمسة أولاد أو ستة ، ثم رمى نفسه في مشروع خطر ، بأن نقل أثاث مصنعه إلى مخزن زميل له ، وهدم مصنع ليغيون ليقيم محله بناية كبيرة للأجار ، ولكن بعد هدم البيت لم يستطع أن يجمع المال الكافي لإقامة البناء الكبير ، واختصم مع والد زوجته ومع أمه ، وكان كلاهما قد رفض الدخول في هذه المغامرة . أما هو فقد أنفق جميع ما كان معه ثم رهن المصنع وما لبث أن باعه. واشتغل بضعة أشهر في مخزن زميله ولكن لم يمض عليه وقت قصير حتى طُرد من العمل .

وحتى لو سلك جاك مسلك الحكمة ونجح في مجازفته ، فقد كان هناك مجال للتساؤل : لماذا أراد أن يصفّي المصنع ؟..

ففي السنوات التي تلت معرض ١٩٢٥ ، انتشرت الفنون التزيينية

انتشاراً كبيراً ، فتحمّس جاك للتجميل الحديث وفكّر بأن الزجاجيات تكشف عن امكانيات ضخمة ، وكان هــذا صحيحاً بصورة تجريدية ، ولكنه لم يكن كذلك عند التطبيق . فقدكان لا بدّ في الاثاث والزجاجيات والاقمشة والورق الملوّن من الاختراع لأن الزبائن البورجوازيين كانوا بحاجة إلى التجديد ، ولكن جاك كان قــد اكتفى من قبل بارضـــاء بعض رهبان الريف ذوي الاذواق المتخلّفة ، فكان عليه إما أن يهدم نفسه أو أن يخلّد إلى الابد بشاعة زجاجيات ليغيون التقليدية ، وكانت البشاعة تنفّره ، ولهذا آثر أن يقذف نفسه في أشغال لم تكن تمتّ إلى الفنّ بصلة .

وعاش جاك فترة من الزمن بلا مال ولا عمل ، متعلقــاً بذيــل زوجته التي كان ابوها يقدّم لهـــا إعانة مالية . ولكن الامور بينهـما كانت إلى سوء . لقد كان جاك وهو الكسول البليد المسرف السكّير الكاذب — زوجاً يستحق الاحتقار . وقد انتهى الأمر باوديل إلى طلب الانفصال وإلى طرده من البيت .

وكان قد مضى عليّ عشرون سنة لم أره فيها حين التقيت بـــه مصادفة في شارع سان جرمان . وكان آنذاك في الخامسة والاربعين ، ولكنه كان يبدو في الستين : كان شعره قــد ابيضّ تمامــاً واحتقنت عيناه ، وكان الاسراف في ادمان الخمرة قــد أحاله إلى نصف أعمى . ولم يبق له نظر ولا ابتسامة ولا بشرة ، حتّى أن وجهه وقد تقلّص إلى العظام أصبح يشبه في ملامحه كلهـــا وجه جده فلاندان . وكان يكسب خمسة وعشرين الف فرنك في الشهر في عمل كتابيّ غامض في احدى محطات شاطئ السين . وكان يرتدي ثياب المتشرّدين ، وكان ينام في الاكواخ ، وكان يشرب الخمر ما وسعه ذلك ولا يكاد يأكل الطعام . ولم يمض عليه وقت طويل حتّى فقد عمله ووجد نفسه من غير مورد على الاطلاق ، وكان إذا لجـأ إلى أمه أو أخيه ليطلب منهما ما

يأكله ، كانا يوبّخانه ، ولم يكن يعينه إلاّ اخته وبعض أصدقائه . ولكن مساعدته لم تكن أمراً يسيراً ، إذ انه لم يكن يبذل أي جهد ليساعد نفسه ، وكان مهترئاً حتى العظم .

ومات جاك في السادسة والاربعين من فرط ضعفه الجسمي .

*

قال لي جاك حين التقينا بعد عشرين سنة من فراقنا ، وهو يشدّ على يدي بحرارة :

ـ آه ! لماذا لم أتزوجك ؟ يا للخسارة ! ولكن أمي كانت تردد على مسمعي بلا انقطاع : إن الزواج بين الاقارب ملعون !

وإذن ، فقد فكّر بأن يتزوجني ! ولكن متى غيّر رأيه ، ولماذا على الضبط ؟ ولماذا سارع إلى ذلك الزواج العاقل في تلك السن المبكرة ، بدل ان يمضي في حياة العزوبة ؟ اني لم أفلح في ادراك سبب ذلك ، ولعله هو نفسه لم يكن يدرك السبب لفرط ما غشي عقله الضباب . ثم انني لم أحاول ان أسأله عن سبب سقوطه لأن همّه الاول كاد أن ينسيني إياه . وكان في الايام التي يرتدي فيها قميصاً نظيفاً ويكون قد اكل حتى الشبع يحدّثني بفخر عن أمجاد اسرة ليغيون ، ويتحدث بلهجة البورجوازي الكبير . وكان يتفق لي ان أقول لنفسي إنه لو نجح لما كان خيراً من الآخرين ، ولكن هذه القسوة كانت في غير محلّها ، فانه لم يستمط هذا السقوط الذريع بداعي المصادفة . فهو لم يكتف بسقوط وسط ، وقد كان بالامكان مؤاخذته على أمور كثيرة ، ولكنه على أي حال لم يكن قط مسكيناً ، وكان قد تدحرج إلى مكان منحطّ جداً حتى انه كان مأخوذاً من غير ريب بـ « جنون التهدم » الذي كنت أعزوه إلى شبابه . ولا شك في انه قد تزوج ليتخفّف من المسؤوليات ، وقد حسب انه يولّد في نفسه ، إذا ضحّى بملذّاته وحريته ، انساناً جديداً مقتنعاً كل الاقتناع بواجباته

وحقوقه ، مخلوقاً لمكتبه وبيته . ولكن *التطوع لا يجدي* : **فقد بقي** هو نفسه ، عاجزاً عن أن يتجسّد في جلد بورجوازي وعن أن يتحرّر منه في وقت واحد . فاذا هو يلجأ إلى الحانات ليهرب فيها من صفته كزوج وكربّ اسرة . وفي الوقت ذاته كان يحاول ان يرتفع في سلّم القيم البورجوازية ، ولكن بدون عمل صابر مستمرّ . كان يحاول ذلك بقفزة واحدة ، ولقد قام بها ولكن بسوء حكمة وتصرف حتى ان رغبته الخفية كانت تبدو في ان بودّه ان يحطم ضلوعه . ولا شك في ان هذا المصير كان مرتبطاً بقلب الصبي الصغير المهجور المذعور الذي كان في السابعة من عمره يتجول كالسيّد المطلق بين أمجاد مصنع ليغيون وغباره ، ولئن كان في شبابه يحثّنا دائماً على أن « يعيش كجميع الناس » فلأنه كان يشكّ في أن يستطيع ان يعيش هو كذلك .

١٤

بينما كان مستقبلي يتقرّر ، كانت زازا ، من جهتها ، تصارع من أجل سعادتها . وقد كانت رسالتها الأولى تشعّ أملاً . أما الثانية فكانت أقلّ تفاؤلاً . وقد كتبت لي بعد أن هنّأتني بنجاحي في «الاغريغاسيون» تقول :

« انه لشاق عليّ جداً في هذه الفترة أن أكون بعيدة عنك . فكم أنا بحاجة إلى ان احدّثك حديثاً متقطعاً لا دقة فيه ولا تفكير حول حياتي منذ ثلاثة أسابيع . لقد عشت ، حتى يوم الجمعة الماضي ، قلقاً فظيعاً وصعوبات جمّة ، تخلّلتها بعض لحظات من الفرح . وفي ذلك اليوم تلقيت من براديل رسالة طويلة بعض الشيء ، قيلت فيها أمور أكثر ، وأتاحت لي كلمات أكثر ان أتعلّق بشواهد لا تُدحض من أجل ان أناضل ضدّ شكّ لا أفلح في التخلص منه تماماً. انني

أقبل ، بدون مشقة نسبياً ، صعوبات ثقيلة ، واستحالة التحدث عن هذا مع أمي ، في اللحظة الحاضرة ، وامكانية انقضاء وقت طويل قبل أن تتضح علاقاتي مع « ب » (وهذا في الواقع لا أهمية له ما دام الحاضر يملأني ويكفيني) ولكن أشقّ ما ينتابني هذه الشكوك وتلك الذبذبات والوان الفراغ تلك التي تحملني على التساؤل أحياناً عما إذا لم يكن كل ما حدث حلماً . وحين تعود الفرحة في امتلائها ، أستشعر الخجل من اني كنت من الجبن بحيث لم أعد اؤمن بها . والحق انه يصعب عليّ ان اوفّق بين « ب » في حالته الحاضرة وبينه منذ ثلاثة أسابيع ، واني اربط ربطاً رديئاً بين رسائله وبين لقاءات تمت بينناحديثاً وكنّا لانزال فيها متباعدين غامضين : ويخيّل إليّ أحياناً ان الأمر لا يعدو أن يكون لعبةً ، وان كل شيء سيسقط فجأة في الواقع ، في الصمت الذي عرفته منذ ثلاثة أسابيع . فكيف لي أن افعل لكي أراه من غير أن تأخذني الرغبة بأن أفرّ ، هذا الفتى الذي كتبت له أشياء كثيرة ، وبسهولة كبيرة ، والذي لا اجرؤ أمامه على أن افتح فمي الآن لفرط ما يخيفني من حضوره . آه ! ما الذي اكتبه لك الآن ولا احسن التعبير عنه! إن شيئاً واحداً يستحق ان يُقال لك ، وهو ان هناك لحظات رائعة تسقط فيها جميع هذه الشكوك وهذه المصاعب مني كأنها أشياء فارغة من المعنى ، لحظات رائعة لا أشعر فيها بغير فرح لا يعكّره شيء ، فرح يعلو على جميع هذه الالوان من البؤس ويملأني كلياً .ويكفي ان أفكّر بأن هذا الفرح موجود حتى انفعل حتى إلى حد ان تنهمر دموعي ، وحين اذكر ان هذا الفرح هو من أجلي وانه موجود بسببي أشعر بأن قلبي يتوقف عن الخفق توقفاً مؤلماً تحت ثقل سعادة عظيمة . هأنذا يا سيمون كما أصبحت . انني لا أملك الشجاعة هذا المساء لاحدثك عن الحياة التي أسوقها . إن الفرح الكبير الذي يشعّ من الداخل يمنح بعض الأشياء الصغيرة ثمناً بالغاً في هذه الايام . ولكن ما يتعبني

حقاً ان اراني مضطرة ، رغم كثافة الحياة الداخلية التي أعيشها ورغم حاجتي الشديدة إلى الوحدة ، نزهاتي هنا وهناك والتنس واللهو .. إن اللحظة الوحيدة الهامة من اليوم هي لحظات وصول البريد .. وأنا لم أحبك قط ، يا عزيزتي سيمون ، كما احبك الآن واني قريبة منك بكل مشاعر فؤادي . »

ولقد أجبتها برسالة مطوّلة حاولت فيها أن أشدّ ازرها ، فكتبت لي في الاسبوع التالي تقول :

« لقد بدأت أصبح سعيدة سعادة هادئة يا عزيزتي ، يا عزيزتي سيمون ، ومـا أروع هذا ! إنني الآن على يقين بأن ليس هناك ما يمكن ان يخطفني ، يقين عذب انتصر على المصاعب وعلى جميـع ثوراتي . حين تلقيت رسالتك ... لم أكن قـد خرجت بعد من الضيق . ولم تكن لي ثقة بنفسي تكفي لكي احسن قراءة الرسائل اللطيفة جداً والصامتة جداً التي كان براديل يكتبها لي ، حتى اني كتبت له ، بدافع من حركة تشاؤمية حمقاء ، رسالة وصفها ، من غير مبالغة ، بأنها « متوحشة بعض الشيء » . أما رسالتك فقد أتت تردّ لي الروح ... ولقد بقيت معك ، منذ وصول رسالتك ، صامتة ، ومعك انت قرأت الرسالة التي تلقيتها يوم السبت من براديل والتي أتت تنجز فرحي وتجعله خفيفاً نضراً بحيث يرافقه منذ ثلاثة أيام جذل طفل في الثامنة . لقـد خشيت ان تفسد رسالتي الظالمة الافق من جديد ، ولكنه ردّ عليهـا ردّاً متفهماً ذكياً بحيث عاد كل شيء ، على خلاف ما كنت انتظر ، يسيراً ومدهشاً . انني لا أعتقد ان بالامكان توبيخ الناس بطريقة لطيفة ، ومحاكمتهم وتبرئتهم واقناعهم – في مزيد من المرح والجذل – بأن كل شيء يسير ، وان كل شيء جميل ، وانـه يجب الايمـان بـذلك . »

ولكن ما لبثت صعوبات أخرى ، أدعى إلى الخوف ، ان برزت .

فقد تلقيت في أواخر آب رسالة أحزنتني :

« لا ينبغي لك ان تعتبي عليّ لهذا السكوت الذي تجاوز حدّه ... أنتِ تعرفين ما هي الحياة في لوباردون .. لقد كان عليّ ان ارى اناساً كثيرين ، وان أقصد إلى « لورد » للبقاء خمسة أيام، وقد عدنا منها يوم الأحد ، وسوف نستقل غداً القطار ، أنا وبيبيل ، لنلحق باسرة « برافيل » في مقاطعة « ارياج » . وتعرفين ان بوسعي ان استغني عن جميع هذه التسليات ، فمن المريع جداً ان يتسلّى المرء حين لا يشعر بأية حاجة للتسلية . ثم إني بأشد الحاجة إلى الهدوء ، لا سيما وان الحياة تكون شاقة بعض الوقت ، من غير أن تفقد روعتها . لقد راودتني وساوس أوشكت ان تسمّم فرحتي ، فدفعتني إلى أن احدث أمي التي كان موقفها المتسائل القلق المحاذر يجلب لي ألماً شديداً . ولكن ، لما لم يكن في استطاعتي أن أصارحها إلاّ بنصف الحقيقة ، فان نتيجة اعترافي كانت اني لن أستطيع بعدُ ان اكتب لبراديل وان أمي طلبت ان أنقطع عن لقائه ، حتى إشعار آخر . وقد كان هذا قاسياً ، بل مريعاً . واني إذ أفكر بما كانت تعنيه لي تلك الرسائل التي أجبرتُ الآن على العدول عنها ، وحين أتخيّل هذه السنة الطويلة التي كنت انتظر منها شيئاً كثيراً وأتصوّر انها ستكون خالية من تلك اللقاءات التي لا بد أن تكون رائعة ، فانّ غصّة خانقة تأخذ بحنجرتي ، وينقبض قلبي حتى أحسّ منه بالألم . لا بدّ ان نعيش مفترقتين تماماً — فيا للفظاعة ! واني استسلم ، فيما يخصني ، أما فيما يخصه فانّ الأمر يشقّ عليّ كثيراً . إن التفكير بأنه قد يتألم بسببي يثيرني . لقد تعوّدت منذ وقت طويل على الألم حتى أصبحت أعتبره شيئاً طبيعياً . أما ان ارتضيه له ، هو الذي لا يستحقّه قط ، هو الذي اودّ لو اراه ابداً متفتحاً للسعادة كما كان يوم جلس بيني وبينكِ على مقعد في غابة بولونيا ... آه ما أمرّ هذا ! إنّ من تلقّى مثلي هذا الشيء العظيم الذي أحسّه

فيّ نقياً صافياً ، يستطيع أن يتحمّل كل شيء . فان أهمّ ما في سعادتي ليس مرهوناً للظروف الخارجية : ومن أجل ان يُدرك أو يُمسّ ، لا بدّ من صعوبة تصدر مباشرة عنه أو عني . ولكن هذا ليس مما يخشى بعد ، لأن الاتفاق العميق هو من الاكتمال بحيث انه هو أيضاً يتكلم حين يصغي إليّ ، واني أنا أيضاً اتكلم حين أصغي اليه ، وليس باستطاعتنا الآن بعد أن ننفصل واقعياً برغم الانفصال الظاهر . وما تفتأ فرحتي تسيطر على جميع الافكار القاسية فتزداد ارتفاعاً وتنتشر فوق جميع الأشياء ... بالأمس ، بعد أن كتبت لبراديل الرسالة التي شقّ عليّ كثيراً ان اكتبها ، تلقيت منه كلمة تفيض بذلك الحب العجيب للحياة الذي كان عنده ، حتى ذلك التاريخ ، أقلّ حساسية مما كان عندك . والفرق انه لم يكن تماماً تلك الأغنية الملحدة في صدر السيدة العزيزة التي لا تهمها الأخلاق . لقد كان يحدثني ، بصدد خطبة اخته ، عما تفجره عبارة « التمجيد الصافي للعالم » من حماسة « لحياة تصادق عذوبة جميع الأشياء الأرضية » . فما أقسى ان أنقطع الآن ، يا سيمون ، عن تلقّي صفحات رائعة كالتي تلقيتها أمس . يجب ان نؤمن حقاً بقيمة الألم ، ولست بالطبع جديرة بأن أتمنى حمل الصليب مع المسيح لأرتضي ذلك من غير ان احتج أو أتمتم . ولكن لندع ذلك . إن الحياة رائعة رغم كل شيء ، وسوف اكون عاقة بصورة مريعة إذا لم أشعر الآن اني أفيض عرفاناً بالجميل . اترى هناك كثير من الكائنات في العالم يملكون ما تملكين انت وما أملك أنا أو يعرفون شيئاً قريباً من ذلك ؟ وهل ترانا ندفع أغلى مما ينبغي حين نتحمل من أجل هذه الثروة الثمينة أيّ شيء ، وكل ما يبدو ضرورياً وطوال الوقت الذي يتطلبه ؟ إن ليلي وزوجها هما عندنا في هذه الفترة ، واعتقد انهما منذ ثلاثة أسابيع لم يتحدثا في غير موضوع مسكنهما وما سيكلفه تأثيثه . انهما لطيفان، وأنا لا آخذ عليهما شيئاً . ولكن اية

تعزية لي الآن في أن اوقن بأنه لن يكون بين حياتهما وحياتي أي شيء مشترك ، وان أشعر بأني انا التي لا أملك شيئاً خارجياً أغنى منهما ألف مرة ، واني ازاء هؤلاء الاشخاص الذين هم بالنسبة إليّ اغرابٌ أكثر من حصى الطريق ، من بعض النواحي على الاقل ، لن أكون ابداً وحيدة ؟ »

واقترحت حلاً بدا لي انه يفرض نفسه : لقد كانت السيدة مابيل قلقة من علاقات زازا الحائرة ببراديل . فلم يكن عليه إلا أن يتقدم منها بطلب يد ابنتها بالشكليات المعهودة . ولكني تلقيت ، جواباً على هذا الاقتراح ، الرسالة التالية :

« حين عدت أمس من مقاطعة « الارياج » حيث قضيت عشرة أيام مرهقة على أي حال ، وجدت هنا رسالتك التي كنت أنتظرها . ومنذ ان قرأتها لا أفعل شيئاً الا أن أجيب عليها ، والا أن اتحدث اليك على مهل بالرغم من المشاغل والتعب وكل شيء خارجي . إن الشيء الخارجي مريع . وفي الأيام العشرة التي قضيتها في ضيافة آل برافيل ، كانت بيبيل في غرفتي ، فلم أكن وحدي دقيقة واحدة . وكنت من العجز عن احتمال أية نظرة يوجهها احدٌ إليّ بينما كنت أكتب بعض الرسائل بحيث وجب عليّ ان أنتظر ان تنام بيبيل لأنهض إلى الكتابة بين الثانية والخامسة أو السادسة صباحاً . وكان علينا في النهار أن نقوم بنزهات طويلة وان استجيب بكل عناية لاستقبال الناس الذين كانوا يلقوننا . وان الصفحات الأخيرة التي تلقاها « ب » مني تكشف عن تعبي الفظيع . ولقد قرأت رسالته الاخيرة في حالة من الارهاق يخيّل لي الآن اني لم أفهم معها بعض المقاطع . وربما خلّف الجواب الذي ارسلته له بعض الألم في نفسه ، فأنا لم احسن التعبير عما كنت اودّ ان اقوله له ، وهذا كله يحزنني قليلاً ، ولئن لم اعترف لنفسي حتى الآن بأية ميزة ، فاني أشعر اني اكتسب هذه الايام بعض الميزات لشدة حاجتي إلى الارادة من

أجل مقاومة رغبتي في أن أكتب له كل ما أفكر به وكل هذه الاشياء البليغة المقنعة التي أحتج بها ، في أعماق قلبي ، على طلبات الصفح التي يوجهها لي بصورة لاواعية . وأنا لا أودّ يا سيمون ان اكتب لـ « ب » من خلالك ، فهذا نفاق اسوأ في نظري من عصيان القرارات التي ليس لي ان أناقشها بعد . ولكن تعاودني مقاطع من رسائله الأخيرة لم أجب عليها إجـــابة كافية ، وهي ما تفتأ تمزّقني. «لا بدّ ان بعض رسائلي قد جلبت لك الخيبة . » « لا بدّان يكون الصدق الذي حدثتك به قد حمل لك الارهاق وبعض الحزن . » وعبارات اخرى تأثرت لها كثيراً . فأنت يا سيمون التي تعرفين الفرح الذي أنا مدينة به لـ «ب» ، وان كل كلمة من الكلمات التي قالها او كتبها لي لم يكن من شأنها الا ان تعمق وتؤكد اعجابي وحبي له ، انتِ التي كنت ترين من كنت ومن انا الآن ، ما كان ينقصني وما أعطاني اياه .. أوه ! حاولي يا سيمون ان تفهميه قليلاً اني مدينة له بكل الجمال الذي تفيض به الآن حياتي، وانه ليس فيه شيء الا وهو عندي عزيز أثير ، وان من الجنون ان يعتذر عما يقول أو عن الرسائل التي أدرك جمالها وعذوبتها العميقة أكثر فأكثر كلما عاودت قراءتها . قولي له يا سيمون ، انت التي تعرفينني كلياً والتي تابعت في هذه السنة جميع خفقات قلبي ، انه ليس في العالم كله كائن سواه قد وهبني أو يستطيع ان يهبني السعادة خالصة والفرحة الكبرى التي اراني غير جديرة بها ؟

« وإذا اتيح للمسعى الذي تقترحينه يا سيمون ان يتحقق ،فان جميع الامور ستكون أيسر في هذا الشتاء . واعتقد ان براديل لا يقوم بهذه الخطوة لاسباب وجيهة في نظره ونظري . ففي هذه الحالة ، قد لا تطلب امي مني الانقطاع النهائي عن رؤيته، ولكنها أفهمتني ان صعوبات وقيوداً كثيرة ستنتصب أمامي تجاه هذه العلاقة ، مما أرعبني من امكانية صراع متجدد دائماً . فانتهى بي الامر إلى تفضيل الحل الاسوأ :

ولقد أشعرني جوابه على الرسالة الحزينة التي كتبتها له بما عساها تكون تلك التضحية بالنسبة اليه . وسوف احاول ان أسوّي الامور وان اقنع أمي ، عن طريق الخضوع والصبر ، بأن تفسح لي ، لنا ، من مجال الأمل ، وان تعدل عن ارسالي إلى الخارج . وليس هذا كله بالسهل يا سيمون ، بل هو شديد القسوة ، وانه ليحزنني من أجله هو . لقد حدثني مرتين عن القدرية . وأنا أفهم ما يعني قوله بهذه الطريقة الجانبية ، وسوف أقوم ، من أجله ، بكل ما في وسعي لكي أحسّن وضعنا : وسوف أحتمل ما ينتج عن ذلك بصبر ، بل سأجد لوناً من الفرح أن أتألم من أجله ، بل سأجد اني مهما بلغ الثمن الذي أدفعه ، فانه لن يكون أغلى من السعادة التي حققها لي ولا من الفرح الذي لن يؤثر عليه اي شيء عارض ... لقد نزلت إلى هنا ، وأنا شديدة الحاجة لان أكون وحيدة ، فوجدت فضلاً عن صهري خمسة من اخوته وأخواته . واني انام مع الاخت الكبرى ومع الاختين التوأمين في هذه الغرفة التي كنت فيها معك ومع ستيفا . وقد كتبت لك هذه الاسطر بأقل من ثلاثة ارباع الساعة قبل ان أصحب اسرتي إلى سوق الضاحية ، وغداً ستقضي اسرة « دو مولين » نهارها هنا ، وبعد غد تصل جنفياف دو برفيل وفي مساء اليوم نفسه تقام حفلة راقصة في بيت اسرة «مولو» ، ولكني أظلّ حرة من غير ان يتنبّه إلى ذلك أحد . فان جميع هذه الاشياء لا حساب لي عندها . ذلك ان حياتي هي أن أبتسم خفيةً للصوت الذي لا ينِي يدوّي في أعماقي ، وهي ان التجئ اليه نهائياً ... »

وحنقت على براديل : لماذا يرفض الحل الذي اقترحته ؟

وكتبت له في ذلك ، فأجابني بأن اخته قد خطبت ،وان أخاه الأكبر مسافر إلى « التوغو » فاذا أبلغ أمّه بأنه هو أيضاً يفكّر في تركها ، فانه سيوجه اليها ضربة قاضية .

وحين عاد براديل إلى باريس في أواخر أيلول سألته قائلة :

– وزازا ؟ ألا ترى أنها تستنفد قواها في هذا الصراع الذي تعيش فيه ؟

فأجاب بأن زازا تقرّه على موقفه ، وعبثاً حاولت ان اقنعه بطلب يدها فلم يستجب ...

وبدت لي زازا على غاية من الارهاق . وكانت قد هزلت وفقدت الوان وجهها . وكان الصداع ينتابها باستمرار ، وكانت السيدة براديل تسمح لهـا بصورة موقتة بأن ترى براديل ، ولكنها كانت عازمة على ارسالها إلى برلين في كانون الأول لقضاء سنة فيها : وكانت زازا تواجه هذا النفي برعب وذعر شديدين .

واقترحت اقتراحاً جديداً ، وهو أن يتفاهم براديل ، بالخفية عن امه ، مع السيدة مابيل . فهزّت زازا رأسها استخفافاً : إن أمها لن تنطلي عليها هذه الاساليب ، فهي تعرفها ولا ترى فيها الا خداعاً . وقد كانت تعتقد بأن براديل غير عازم على الزواج من زازا ، والاّ لوافق على ان يقوم بالخطوات الرسمية : والأم لا يتحطم قلبها حين يخطب ابنها فتاة ، وانما هذه قضية غير مقنعة . والواقع اني كنت من رأيها ، في هذه النقطة . ومهما يكن من أمر ، فان الزواج لن يتم قبل عامين ، وان موقف السيدة براديل لا يبدو لي فاجعاً .. وكانت زازا تقول لي :

– لا أريد أن تتألم بسببي .

وكان نبلها يغيظني ، وكانت تفهم غضبي وتفهم وساوس براديل وتفهم تبصّر أمّها . كانت تفهم جميع هؤلاء الاشخاص الذين لم يكونوا متفاهمين فيما بينهم والذين كان عدم تفاهمهم يعودعليهوحدها بالأضرار.

وكان براديل يقول بانزعاج :

– إن انتظار عام لا يعني شرب ماء البحر !

وبدلاً من أن تشجّع هذه الحكمة زازا ، كانت تضع ثقتها في اتون

المحنة . فانها من أجل ان تقبل فراقاً طويلاً كهذا من غير ضيق شديد ، تحتاج إلى أن تملك ذلك اليقين الذي أومأت اليه مراراً في رسائلها والذي كانت تفقده في الحقيقة . وكان تنبوئي يجد هنا تبريره : إن براديل لم يكن ذلك الشخص الذي يسهل حبّه . لا سيما بالنسبة لقلب عنيف كقلب زازا . فقد كان يشكو منها ، بصدق يكاد يمتّ إلى النرجسية ، أن عاطفتها غير حارّة ، ولم تكن تستطيع الامتناع عن أن تستنتج من ذلك انه كان يحبّها حباً مائعاً . ولم يكن مسلكه ليجلب لها الطمأنينة . فقد كان له تجاه اسرته الوان مسرفة من التعلق والاحترام الدقيقين ، ولم يكن يبدو انه يهتمّ بالاّ تتأذى زازا من ذلك .

ولم يكونا ، حتى ذلك التاريخ ، قد تقابلا الا لمدة قصيرة . وكانت هي تنتظر بفارغ صبر ذلك الموعد الذي ضرباه للقاء بعد ظهر أحد الايام ، حين تلقت في صباح ذلك اليوم نفسه رسالة مستعجلة يبلغها براديل فيها وفاة خالٍ له ويذكر انه لا يرى ذلك الحداد ينسجم مع الفرحة التي كان يعد نفسه بها من ذلك اللقاء ، ولهذا فانه يعتذر عن رؤيتها ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي اقبلت زازا تشرب في منزلي كأساً .وكان بصحبتها اختي وستيفا : فلم تفلح في أن تنزع من شفتيها بسمة واحدة. وارسلت لي في المساء كلمة :

« انني لا أكتب هذه الكلمة لاعتذر عن اني كنت كئيبة بالرغم من استقبالك المشجّع وخمرك اللذيذ . فلا بدّ انك فهمت اني كنت ما ازال تحت تأثير رسالة براديل المستعجلة ، تلك الرسالة التي اتت في غير محلها تماماً . فلو أن براديل استطاع ان يحدس بالعاطفة التي كنت اعلّقها على هذا اللقاء ، لما أجله على ما أعتقد . ولكن من حسن الحظ انه لم يحدس بذلك ، فأنا احب كثيراً ما قد عمله ، وانه لم يشقّ عليّ ان ارى أيّ مبلغ يمكن ان تبلغه خيبتي حين أبقى وحدي تماماً لأقاوم الافكار المرّة

والانذارات السوداء التي كانت امي ترى من الضروري ان توجهها لي . على ان آلم شيء هو الا أستطيع الاتصال به : فانا لم اجرؤ على أن أبعث له بكلمة إلى بيته . وستكونين جد لطيفة إذا ارسلت له كلمة مستعجلة تعبّرين فيها عما سبق له وعرفه من اني ابداً إلى قربه في السراء والضراء وان بوسعه ان يكاتبني إلى البيت متى اراد . وسوف يحسن صنعاً إذا لم يمتنع عن ذلك ، لأنه إذا لم يكن ممكناً ان اراه وشيكاً فسأكون بأشدّ الحاجة إلى كلمة منه على الاقل . والحق انه ليس له ان يخشى الآن جذلي . فاذا كنت أتحدث اليه حتى عن أنفسنا ، فسيكون ذلك برصانة وخطورة كافيتين . ولنفرض أن حضوره يحرّرني ، فانه يبقى في الحياة كثير من الاشياء الحزينة التي يمكن ان نتحدث عنها ونحن في حالة الحداد . هذا إذا لم نتحدث عن كتاب « غبار » . لقد تناولت هذا الكتاب مرة أخرى مساء أمس ،فلم يكن انفعالي لقراءته دون انفعالي في أول العطلة . أجل ! ان «جودي» رائعة وساحرة ، ولكنها تبقى برغم ذلك غير ناجزة ، وتبقى خصوصاً شديدة البؤس ، وأنا أقرّ ان ينقذها من قسوة الحياة تعلّقها بحياتها الخاصة وبالأشياء المخلوقة ، ولكن فرحتها لن تتماسك امام وجه الموت ، وليس حلاً كافياً ان يعيش المرء كما لو ان ذلك غير موجود نهائياً . واني اذ تركتها استشعرت الخجل بان ارثي لنفسي لحظة ، أنا التي أشعر بأن فوق جميع الصعوبات والأحزان التي يمكن ان تخفيها احياناً ، فرحةً من الصعب تذوّقها ، فرحة لا يقدر عليها ضعفي ، ولكن ليس هناك على الاقل أي كائن في العالم ضروري لها ، إذ هي لا تتوقف حتى عليّ توقفاً كاملاً . انهذه الفرحة لا تقلّل من شأن شيء . وليس على الذين احبهم ان يقلقوا ، فأنا لا أقرّ منهم وأشعر في هذه اللحظة بأني مشدودة إلى الارض وحتى إلى حياتي الخاصة كما لم اكن من قبل قط . »

وبالرغم من هذه الخاتمة المتفائلة ، وبالرغم من الرضى المتشنّج الذي

كانت تعلّقه على قرار براديل ، فان زازا لم تكن لتخفي مرارتها . فلكي تقابل « الأشياء المخلوقة » بفرح فوق الطبيعة « ليس احدٌ ضرورياً له على الاقل » فينبغي الاّ تأمل ان تستطيع نهائياً في هذا العالم أن تعتمد على أي كائن .

ولقد ارسلت خطاباً مستعجلاً لبراديل الذي سارع بالكتابة لها ، فكتبت تشكرني : « منذ السبت تحرّرت ، بفضلك ، من أشباح كثيرة كانت تعذّبني . »

ولكن الأشباح لم تتركها طويلاً في أمان ، ولقد كانت تجاهها وحيدة. بل ان قلقي على سعادتها كان يباعد فيما بيننا ، إذ اني كنت اعلن غضبي على براديل ، فتتهمني بانني أنكر مزاياه . لقد اختارت الزهد والتخلّي ، وكانت تشتدّ في موقفها حين كنت أحرّضها على الدفاع عن نفسها . والحق أن أمها كانت قد منعتني من دخول بيتها ، وكانت تحاول كل شيء لمنعها من الخروج منه . ومع ذلك فقد أتيح لي ان أتحدث اليها في منزلي حديثاً طويلاً عن حياتي الخاصة ، وقد كتبت لي في اليوم التالي كلمة تعبّر لي فيها عن مدى السعادة التي حققها لها هذا اللقاء ، واضافت تقول : « ولكنني لبعض الاسباب العائلية التي يطول امر شرحها ، لن أستطيع ان اراك لفترة من الزمن ، فانتظري قليلاً . »

وكان براديل ، من جهة أخرى ، قد أخبرها بأن أخاه قد أبحر ، وان انشغاله بتعزية أمه سيستغرقه كلياً طوال اسبوع . ولقد اصطنعت ، في هذه المرة أيضاً ، الشعور بأنّ من الطبيعي الاّ يتردّد في التضحية بها ولكني كنت واثقة من ان شكوكاً جديدة كانت تتأكلها : وطوال ثمانية أيام تألمت الاّ يرتفع اي صوت ليهزم « الانذارات السوداء » الـتي اصدرتها السيدة مابيل :

وبعد عشرة ايام التقيت زازا مصادفة في حانة « بوكاردي » ، وكنت ذاهبة إلى المكتبة الوطنية وكانت هي تبتاع حاجياتها من الحي ، فرافقتها . وقد أدهشني كثيراً ان اراها تفيض مرحاً . كانت قد فكرت طويلاً

خلال هذا الاسبوع الذي قضته وهي وحيدة ، فاذا بالامور تنتظم شيئاً فشيئاً في رأسها وفي قلبها . وحتى رحيلها إلى برلين لم يعد يفزعها ، فسوف تجد هناك أوقات فراغ ، وسوف تحاول ان تكتب الرواية التي كانت تفكر فيها منذ وقت طويل ، وستقرأ كثيراً : فهي لم تشعر قبل الآن بمثل ذلك العطش للقراءة . وكانت قد استكشفت من جديد روعة آثار « ستاندال » ، وكانت اسرتها تكرهه كرهاً شديداً حاسماً حتى انها لم تستطع حتى ذلك التاريخ ان تتغلب على هذا الحكم المسبّق . ولكنها إذ قرأته مرة ثانية في تلك الايام ، فهمته تماماً وأحبّته بلا خفاء. وشعرت بالحاجة لأن تراجع عدداً كبيراً من أحكامها : لقد كان عندها إحساس بأن تطوراً هاماً يتحقق الآن في نفسها . وقد حدّثتني بحرارة وتدفق عجيبين . وكان في تفاؤلها شيء مقتسر . غير اني فرحت لذلك : فلقد وجدت قوى جديدة وكان يخيل إليّ انها كانت بسبيل ان تقترب مني كثيراً : وحين ودّعتها ، كنت ممتلئة بالأمل .

وبعد أربعة أيام ، تلقيت كلمة من السيدة مابيل تخبرني فيها بأن زازا كانت مريضة جداً . كانت مصابة بحمّى شديدة وكان ينتابها صداع مريع . وكان الطبيب قد أمر بنقلها إلى عيادة في « سانت كلود » ، وكانت بحاجة إلى وحدة وهدوء مطلقين ، ولم يكن يسمح لها بأية مقابلة ، فاذا لم تسقط عنها الحرارة ، فستكون هالكة .

ورأيت براديل ، فروى لي ما كان يعرفه : ففي اليوم الذي تلا لقائي بزازا ، كانت السيدة براديل وحدها في البيت حين طرق الباب ، ففتحته ، فاذا هي أمام فتاة أنيقة الملبس ولكنها لم تكن ترتدي قبعة : وكان هذا ، في ذلك العهد ، امراً لا يليق . وسألتها الفتاة :

– هل أنت امّ جان براديل ؟ وهل استطيع ان احدّثك ؟

وأعلنت عن اسمها ، فأدخلتها السيدة براديل . وتلفتت زازا فيما حولها ، وكان وجهها ممتقعاً وخداها ملتهبين ، وتساءلت :

– اليس جان هنا ؟ لماذا ؟ هل ذهب إلى السماء ؟

فذعرت السيدة براديل وقالت بأن جان سيعود عما قليل . وسألتها زازا :

– هل تحتقرينني يا سيدتي ؟

فأنكرت ذلك محتجّة .

– لماذا اذن لا تريدين أن نتزوج ؟

فحاولت السيدة براديل جهدها أن تهدّئها ، وكانت قد سكنت حين عاد براديل بعد قليل ، ولكن جبينها ويديها كانت تلتهب . فقال لها براديل :

– سأصحبك إلى البيت .

واستقلاّ سيارة ، وبينما كانت تتجه بهما نحو شارع « بيري » سألته بعتاب :

– ألا تريد أن تقبلني ؟ لماذا لم تقبّلني قط ؟

فقبّلهـا .

وآوتها السيدة مابيل إلى فراشها واستدعت الطبيب . وتحدثت مع براديل : انها لم تكن تريد شقاء ابنتها ، ولم تكن تعارض ذلك الزواج ، ولم تكن السيدة مابيل تعارضه هي أيضاً ، فهي لا تريد شقاء أحد ، وكان كل شيء يميل إلى التسوية . ولكن درجة الحرارة كانت قد بلغت لدى زازا الاربعين وكانت قد دخلت في طور الهذيان .

وظلّت طوال اربعة ايام ، في عيادة سانت كلود ، تطلب أن يأتوها بـ « كماني ، وبراديل وسيمون وبالشمبانيا » ولم تسقط الحرارة . وسُمح لأمّها بأن تقضي الليلة الأخيرة إلى جانبها ، فعرفتها زازا وأدركت انها كانت تموت . فقالت لها :

– لا تحزني يا امي الحبيبة . ان في كل اسرة نفاية . وانا النفاية في اسرتي .

وحين رأيت زازا في كنيسة المستشفى ، كانت راقدة وسط الشموع والازهار . وكانت ترتدي قميصاً طويلاً من الكتّان الخشن . وكان شعرها متناثراً خِصلاً جافّة حول وجه ممتقع بلغ من هزاله اني لم أكد اعرف ملامحه . وكانت اليدان ذواتا الاظافر الطويلة الصفراء تبدوان ، وهما متشابكتان فوق الصليب ، سهلتي التفتّت كيدي مومياء قديمة جداً. وكانت السيدة مابيل تبكي ، وقد قال لها السيد مابيل :

– اننا لم نكن إلاّ آلاتٍ بين يدي الرب .

وتحدّث الاطباء عن التهابِ السحايا أو التهاب الدماغ او لستأدري عن أي شيء بالتدقيق . أتراه كان مرضاً جاء بالعدوى أو بالمصادفة ؟ ام أن زازا قد سقطت تحت مزيد من الارهاق والتعب والضيق ؟

لقد ظهرت لي مراراً في الليل بعد ذلك ، ممتقعة الوجه ، تحت قبعة وردية ، وكانت تنظر إليّ بعتاب . لقد كافحنا معاً ضد القَدَر الوَحِل الذي كان يترصّدنا ، ولقد فكّرت طويلاً بأني اشتريت بموتها حرّيتي ...

٣٠٠٠ / ٥٩ / ٧ / ٣٣٠